
بعض الهوس
ليس جنوناً..
بل محاولة يائسة
لإيجاد حياة."
حين يتكفن العقل
رواية
أسماء صمادي

حين يتعفّن العقل

رواية نفسية قوطية

أسماء صمادي

إلى الذين أخفوا عواصفهم خلف وجوه هادئة،
وإلى كلّ من حاول أن يجد في العتمة سببًا للاستمرار،
ثم تعلّم، ولو متأخرًا، أن النجاة لا تعني أن نفقد إنسانيتنا.

ليس كلّ ما يتعفّن يُصدر رائحة، وليس كلّ ما يموت يُدفن. بعض الأشياء تبقى حيّة في الداخل، تتغذّى على الخوف والندم والطموح، حتى يصبح المرء غريبًا عن صورته في المرآة.

هذه حكاية روران؛ امرأة بدأت حياتها وهي تظنّ أن المستقبل الذي اختير لها هو حلمها، ثم اكتشفت أن الفراغ قد يتخفّى خلف النجاح، وأن الشغف إذا تُرك بلا حدود قد يتحوّل إلى هوس يلتهم صاحبه ومن حوله. وبين أسرار العائلة، ودهاليز السلطة، وحبّ لا يبرّئ صاحبه من جرائمه، تمضي روران نحو حقيقة لا تمنحها خلاصًا سهلًا.

هذه الرواية لا تقدّم الظلام بوصفه بطولة، ولا تجعل الألم عذرًا للأذى؛ إنها تسأل عمّا يحدث حين يتعلّم الظلام طريقه إلى الداخل، وحين يعجز الإنسان عن التمييز بين ما يمنحه الإحساس بالحياة وما يسلبه إنسانيته.

حقوق النشر

حين يتعفّن العقل

تأليف: أسماء صمادي

جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة لا يجوز إعادة نشر هذا العمل أو نسخه أو توزيعه كليًا أو جزئيًا دون إذن خطّي من صاحبة الحقوق، باستثناء الاقتباسات القصيرة المسموح بها لأغراض المراجعة والنقد مع ذكر المصدر.

الطبعة الإلكترونية الأولى — 2026

ملاحظة إلى القارئ

تتضمن الرواية موضوعات نفسية قاتمة، وفقدًا، وهوسًا، وجرائم، ومشاهد تتناول الموت والاضطراب الداخلي.

إذا بدت بعض الصفحات قاسية، فذلك لأن هذه الحكاية لا تسعى إلى تجميل ما يؤذي، بل إلى تتبّع الطريق الذي يقود الإنسان إلى حافة نفسه.

الفصول

الفصل الأول — الحلم الذي لم يكن لي

الفصل الثاني — الرجل الذي لم يُعجب به أبي

الفصل الثالث — لم أكن أعلم أن للوقت رائحة

الفصل الرابع — السؤال الذي لم يكن ينبغي أن أطرحه

الفصل الخامس — الوجه الآخر للمرآة

الفصل السادس — الرجل الذي عاد من الموت

الفصل السابع — ما تركه أبي خلف الباب

الفصل الثامن — ما لا تقوله الرسائل

الفصل التاسع — دعوة إلى الحديقة الملكية

الفصل العاشر — الرجل الذي ترك الباب مفتوحًا

الفصل الحادي عشر — حين يصمت البيت

الفصل الثاني عشر — ما لا يقوله الموت

الفصل الثالث عشر — أثرٌ لم يمحُه المطر

الفصل الرابع عشر — البلدة التي لا تنام فيها القبور

الفصل الخامس عشر — ما دُفن خارج الأسوار

الفصل السادس عشر — أشياء أخرى تستحقّ الانتباه

الفصل السابع عشر — حين لامس الموت يدي

الفصل الثامن عشر — الرائحة التي لم تغادر يديّ

الفصل التاسع عشر — الجوع الذي استيقظ في العتمة

الفصل العشرون — امرأتان تحت جلدٍ واحد

الفصل الحادي والعشرون — متحف الأشياء التي لا ينبغي أن تبقى

الفصل الثاني والعشرون — كل الأصوات التي تسكن رأسي

الفصل الثالث والعشرون — حين صار الماضي يتكلم بصوتي

الفصل الرابع والعشرون — ما تركته الأرض خلفها

الفصل الخامس والعشرون — الشاهد الذي لم يمت

الفصل السادس والعشرون — الرجل الذي محوه من السجلات

الفصل السابع والعشرون — الجمال الذي أردتُ إفساده

الفصل الثامن والعشرون — الجملة التي لم يكن ينبغي أن يقولها

الفصل التاسع والعشرون — الرجل الذي كان يعرف النهاية

الفصل الثلاثون — حين يتعفّن العقل

الفصل الحادي والثلاثون — مغفرة لا تستحقها يداي

الفصل الثاني والثلاثون — الجوع الذي لم يغفر لي

الفصل الثالث والثلاثون – المكتب الذي ابتلعني

الفصل الرابع والثلاثون – لم يرحم الموتُ مَن أحبّوه

الفصل الأول

الحلم الذي لم يكن لي

لا أتذكّر متى بدأت أكره أبي.

ربما في المرة الأولى التي أخبرني فيها أن البكاء لا يليق بابنة كاسيان، أو حين أجبرني على إعادة درسٍ لم أخطئ فيه، لأن إجابتي لم تكن بالطريقة التي يريدها. وربما بدأت كراهيتي له في وقت أبكر بكثير، قبل أن أمتلك اسمًا لمشاعري، وقبل أن أفهم أن الإنسان قد يعيش عمرًا كاملًا وهو يركض نحو بابٍ لم يختر يومًا أن يفتحه.

لكنني أتذكّر جيدًا اليوم الذي مات فيه.

كان المطر يهطل منذ الصباح، وكانت السماء رمادية على نحوٍ جعل القصر يبدو وكأنه غارق في ظلّه. وقفت أمام المرآة أرتّب ياقة ثوبي الأسود، بينما كانت الخادمة العجوز، ماريان، تحاول إقناعي بتناول شيءٍ من الطعام.

قالت وهي تضع الصينية على الطاولة:

«آنستي، لم تأكلي منذ البارحة.»

نظرت إلى انعكاسي في المرآة.

«لست جائعة.»

«لكن عليكِ أن تأكلي شيئًا. سيأتي الناس بعد قليل، ولن يكون من المناسب أن تظهري بهذا الشحوب.»

كدت أضحك.

لم يكن موت أبي قد مضى عليه يومان، ومع ذلك كان أكثر ما يشغل الناس هو الطريقة التي سأظهر بها أمامهم.

التفتُّ إليها وقلت:

«وهل سيعود أبي إن ظهرتُ بصحة جيدة؟»

تجمّدت ملامحها.

ندمت على سؤالي للحظة، لا لأنني كنت حزينة، بل لأن ماريان كانت واحدة من القلائل الذين أحبّوا أبي بطريقةٍ لم أفهمها يومًا. كانت تراه رجلًا عظيمًا، أما أنا فكنت أراه رجلًا لا يسمح لأحدٍ بأن يكون عظيمًا إلا وفقًا لشروطه.

خفضت عينيها وقالت:

«رحمه الله، يا رووران.»

لم أجب.

كان اسم أبي يتردّد في المدينة حتى حين لا يكون حاضرًا. كاسيان؛ الرجل الذي امتلك المال والأراضي والمستشفى الذي كان الناس يقصدونه حين يعجز الأطباء الآخرون عن إنقاذ مرضاهم. كان اسمه كافيًا ليفتح الأبواب، وكافيًا أيضًا ليُغلق أفواهًا كثيرة.

لم يكن محبوبًا.

بل إنني سمعت، في اليوم الذي أعادوا فيه جثمانه إلى القصر، رجلًا يهمس لآخر بأن موت كاسيان قد يكون بداية عهدٍ أكثر عدلًا.

لم أصفعه، ولم أصرخ في وجهه.

اكتفيت بالنظر إليه حتى ابتلع كلماته وغادر.

لم أكن أدافع عن أبي. كنت أكره أن يتحدث الغرباء عنه كما لو أنهم يعرفونه، بينما أمضيت عمري كله أحاول معرفة الرجل الذي يعيش خلف ذلك الاسم.

لم يكن لدي إخوة، ولم تكن أمي موجودة في حياتي منذ زمنٍ بعيد.

انفصلت عن أبي وأنا صغيرة، ولم أحتفظ منها إلا بذكرى ضبابية ليدٍ ناعمة كانت تمرّر أصابعها بين خصلات شعري، ورائحة عطرٍ خفيف لم أعد أعرف اسمه. لم يحدّثني أبي عنها كثيرًا، وحين كنت أسأله، كان يجيب بأن الماضي لا يستحق أن نضيّع وقتنا فيه.

كنت أكرهه حين يقول ذلك.

كيف يمكن للماضي ألّا يستحق وقتنا، وهو الشيء الوحيد الذي يفسّر لنا لماذا أصبحنا على ما نحن عليه؟

ومع ذلك، كنت أطيعه.

كنت أطيعه في كل شيء تقريبًا.

أخبرني أنني سأصبح طبيبة، فحفظت أسماء الأدوية والأمراض. قال إنني سأدير مستشفاه يومًا ما، فبدأت أرافق الأطباء وأراقبهم من خلف الأبواب. وحين كان يحدّث ضيوفه عن مستقبلي، كنت أجلس إلى جواره وأبتسم، كأنهم يتحدثون عن حلمٍ ولد في صدري أنا.

وكان هناك حلم آخر، أكثر غرابة، لم أكن أجرؤ على الاعتراف به حتى لنفسي.

كنت أتخيّل عالمًا يحكمه الأباطرة، عالمًا تُرفع فيه الستائر الثقيلة أمام الملوك، وتُضاء فيه القاعات بآلاف الشموع، وتصبح فيه امرأة واحدة قادرة على تغيير مصير الرجال بمجرد نظرة. كنت أتخيّل نفسي قريبة من العرش، امرأة لا يمكن تجاهلها ولا استبدالها بسهولة.

لم أكن أعرف إن كنت أريد السلطة فعلًا، أم كنت أريد فقط أن أصبح شخصًا لا يستطيع أحد أن يقرر عنه حياته.

في ذلك العمر، لم أكن أرى الفرق بين الأمرين.

في مساء اليوم الثالث لوفاة أبي، وجدت نفسي واقفة أمام باب مكتبه.

لم أدخله منذ أعادوا جثمانه. كانت رائحته ما تزال عالقة في المكان؛ خليطًا من الخشب المصقول والحبر والتبغ الفاخر. على مكتبه استقرت أوراق مرتّبة بعناية، وبجانبها ساعة ذهبية توقفت عقاربها عند وقتٍ لا أعرف إن كان يعني شيئًا.

اقتربت من الكرسي خلف المكتب.

كان أبي يجلس هنا كل مساء، يقرأ الرسائل ويوقّع الأوراق، بينما أقف أنا أمامه لأخبره بما تعلّمته في ذلك اليوم.

«أصبحتِ أفضل.»

كانت هذه عبارته المفضلة حين أنجح.

لم يكن يقول إنني ذكية، أو إنني موهوبة، أو حتى إنه فخور بي. كان يقول إنني أصبحت أفضل، وكأنني مشروعٌ لم يكتمل بعد، وكأن عليّ أن أظل أتحسّن حتى أصل إلى الصورة التي رسمها لي في ذهنه.

مددت يدي نحو إحدى الأوراق، لكن طرقًا خفيفًا على الباب أوقفني.

التفتُّ.

كان واقفًا هناك رجل في منتصف العمر، يرتدي معطفًا داكنًا ويحمل قبعة بين يديه. عرفته من زياراته السابقة إلى القصر، لكنه لم يكن من الأشخاص الذين سمح لي أبي بالاقتراب منهم كثيرًا.

قال بانحناءة مقتضبة:

«الآنسة روران.»

«من أنت؟»

تردّد قبل أن يجيب:

«اسمي إدوين. كنت أعمل مع والدك في بعض شؤونه الخاصة.»

«وما الذي تريده؟»

نظر إلى المكتب، ثم عاد ببصره إليّ.

«هناك أمور ينبغي أن تعرفيها عن ممتلكاته، وعن الأشخاص الذين كانوا يتعاملون معه.»

جلست في كرسي أبي دون أن أدعوه إلى الجلوس.

«إذًا تحدّث.»

فتح فمه، ثم أغلقه. بدا كأنه يراجع كلماته قبل أن يسمح لها بالخروج.

«والدك لم يكن رجلًا سهلًا، آنستي. كان له أعداء.»

«هذا ليس خبرًا جديدًا.»

«لكن بعض أعدائه كانوا أكثر نفوذًا مما تتصورين.»

تأملت وجهه. لم يكن يبدو كمن جاء ليعزّيني، بل كمن يحمل خبرًا يخشى عواقبه.

«هل تعرف من قتله؟»

سقط الصمت بيننا.

للمرة الأولى منذ دخل، بدا إدوين خائفًا حقًا.

«لا أملك دليلًا.»

«لم أسألك إن كنت تملك دليلًا. سألتك إن كنت تعرف.»

شدّ أصابعه حول قبعته، ثم قال:

«أحيانًا، يا آنسة، تكون معرفة الحقيقة أخطر من الجهل بها.»

ابتسمت ابتسامة صغيرة لم أشعر بها على وجهي.

«هذا ما يقوله الجبناء حين يريدون أن يبدوا حكماء.»

لم يغضب. اكتفى بإحناء رأسه.

«احذري يا روران. ليس كل من يبتسم لك يتمنى لك الخير، وليس كل من يقف في طريقك عدوًا لك.»

غادر قبل أن أتمكن من سؤاله عن شيء آخر.

بقيت أنظر إلى الباب المغلق طويلًا.

لم أكن أعرف يومها إن كان الرجل يحاول حمايتي أم إخافتي، لكنني عرفت أمرًا واحدًا: موت أبي لم يكن نهاية شيء. كان بداية شيء لم أكن أعرف اسمه بعد.

في تلك الليلة، لم أنم.

جلست قرب النافذة أراقب المطر وهو ينزلق على الزجاج، وأفكر في الرجل الذي قضى عمره يخطط لمستقبلي، ثم مات دون أن يمنحني فرصة واحدة لأخبره أنني لم أعد متأكدة من رغبتي في ذلك المستقبل.

كنت أريد أن أصبح طبيبة، نعم.

لكن هل كنت أريد ذلك حقًا؟

أم أنني كررت الكلمات نفسها طويلًا حتى تحولت إلى حقيقة في رأسي؟

أغمضت عيني، فرأيت أبي أمامي. ظهره مستقيم، يده فوق عصاه، وصوته هادئًا وهو يقول:

«ستشكرني يومًا يا روران.»

فتحت عيني بسرعة.

لم أكن أريد أن أشكره.

كنت أريد أن أسأله لماذا لم يسألني مرة واحدة عمّا أريده أنا.

نهضت عن مقعدي، وسحبت الستائر الثقيلة حتى انحجبت المدينة عن نظري. كان القصر ساكنًا، لكنني شعرت للمرة الأولى بأنه أضيق من أن يتّسع لي.

لم أكن أعرف أنني سأفتقد يومًا رجلًا لم يطلب مني أن أكون طبيبة، ولا وريثة، ولا امرأة تليق باسم عائلة.

رجلًا سيضع أمامي أصيصًا صغيرًا من التراب، ويقول لي إن النبتة لا تحتاج إلى أن تصبح شجرةً كي تستحق أن تعيش.

لم أكن أعرف أن اسمه سيكون جوزيف.

ولا أنني سأخالف وصيته يومًا، ثم أقضي بقية حياتي أتمنى لو أنني امتلكت الشجاعة لأطيعه.

كل ما عرفته في تلك الليلة أن أبي مات، وأنني بقيت وحدي في قصرٍ مليء بالأشياء التي أرادها لي.

وللمرة الأولى، خطر لي سؤال لم أجرؤ على قوله بصوتٍ مسموع:

إذا لم أعد ابنة كاسيان، فمن أكون؟

الفصل الثاني

الرجل الذي لم يُعجب به أبي

لم يكن القصر هادئًا في الأيام التي تلت وفاة أبي، بل كان هدوؤه أشبه بشيءٍ يتظاهر بالنوم بينما يراقب كل ما يحدث حوله.

كان الخدم يتحركون بحذر، والوجوه التي اعتادت أن تبتسم أمام كاسيان صارت تظهر في القصر بملامح متجهّمة، كأن موت رجلٍ واحد أعفاها من عبءٍ ثقيل، لكنها لا تعرف بعد إن كان عليها أن تفرح أم تخاف.

أما أنا، فقد اكتشفت أن الحزن ليس دائمًا بكاءً.

أحيانًا يكون أن تستيقظ في الصباح، وتجلس إلى مائدة الإفطار، ثم تكتشف أن لا أحد ينتظر منك أن تحفظي درسًا أو تجيبي عن سؤال أو تبرّري سبب تأخرك عشر دقائق. وأحيانًا يكون أن تمرّي أمام باب مكتبٍ مغلق، فتشعري بالارتياح لأنك لن تُستدعي إليه، ثم تشعري بالذنب لأنك ارتحتِ.

كنت أعيش بين الشعورين، ولم أكن أحب أيًّا منهما.

كنت أقرأ رسالة من أحد الأطباء الذين عملوا مع أبي. رسالة طويلة مليئة بعبارات التعزية والوعود بالوفاء، ولم أستطع أن أقرر أيّ الجمل كانت أكثر كذبًا. وضعتها جانبًا وسألت:

«من هو؟»

قال كبير الخدم:

«يقول إن اسمه جوزيف، آنستي. لم يسبق له أن زار القصر، لكنه أصرّ على مقابلتك.»

«هل أخبرك بسبب الزيارة؟»

«قال إنه يعرف والدك.»

أعدت النظر إلى الرسالة أمامي، ثم أغلقتها.

«يبدو أن الجميع يعرف أبي بعد موته.»

لم يبتسم الرجل، لكنه انحنى وغادر لينقل جوابي.

لم أكن أتوقع أن يعود.

«قال إنه لا يمانع الانتظار.»

أزعجني جوابه أكثر مما ينبغي. اعتدت أن يتعجل الناس إرضائي، أو أن يطلبوا موعدًا آخر إذا لم أستقبلهم. أما أن يقف رجل غريب في بهو القصر منتظرًا فتاة لا يعرفها، وكأن وقته لا قيمة له، فقد بدا لي أمرًا غير مألوف.

أغلقت الكتاب ونهضت.

«أدخله.»

كان جوزيف أقصر مما تخيلت، عريض الكتفين، وقد تجاوز منتصف العمر بقليل. ارتدى معطفًا بنيًا بسيطًا، بدت أطرافه مستهلكة من كثرة الاستعمال، وحمل حقيبة جلدية قديمة أمسك بها بيده اليسرى.

لم ينظر إلى ثوبي الأسود، ولا إلى الخاتم الذي تركه أبي لي، ولا إلى الأثاث الفاخر المحيط بنا. نظر إلى وجهي وحده.

قال:

«أنتِ روران.»

أجبته ببرود:

«وأنت جوزيف، كما أخبرني كبير الخدم. ما الذي تريده؟»

لم يبدُ منزعجًا من طريقتي.

«جئت لأتحدث إليكِ عن والدك.»

«إذا كنت هنا لتخبرني أنه كان رجلًا عظيمًا، فقد سبقك كثيرون.»

«لم أقل إنه كان عظيمًا.»

ضيّقت عينيّ قليلًا.

«أعتقد أن المال يستطيع شراء أشياء كثيرة، لكنه لا يستطيع إجبارها على أن تكون ما نريده.»

لم أعرف لماذا أغضبتني إجابته.

ربما لأنني شعرت بأنه يتحدث عن أمرٍ لا يحق له معرفته، أو لأن كلماته اقتربت أكثر مما ينبغي من شيءٍ كنت أحاول تجاهله منذ أيام.

قلت:

«لا أظن أنني طلبت رأيك في فلسفة المال.»

«صحيح.»

قالها ببساطة، ثم أضاف:

«وأنا لم آتِ لأبيعك فلسفة.»

للمرة الأولى، كدت أبتسم.

تراجعت في اللحظة الأخيرة، وعدت إلى مقعدي.

«إذًا لماذا جئت؟»

وضع حقيبته على الأرض، وأخرج منها قارورة زجاجية صغيرة. كان بداخلها سائل أصفر باهت، تتراقص فيه قطعة نبات دقيقة.

«لأن والدك كان يعرف أنني أعمل في الصيدلة، ولأنه طلب مني قبل مدة أن أبحث في علاجٍ لمرضٍ استعصى على أطبائه.»

تغيّرت ملامحي.

«أي مرض؟»

«لا أستطيع الجزم بأنه كان يبحث عن علاج لنفسه. لم يخبرني بكل شيء.»

«وهل وجدته؟»

«وجدت أشياء قد تكون مفيدة. وأشياء أخرى لم أفهمها بعد.»

مددت يدي نحو القارورة، لكنه أبقاها في يده.

«لا تلمسيها.»

سحبت يدي فورًا، واشتعل الغضب في صدري.

«هل جئت إلى هنا لتأمرني؟»

نظر إلى القارورة، ثم إليّ.

«لا. جئت لأخبرك أن بعض الأشياء لا ينبغي لمسها قبل أن نعرف ما هي.»

«وهل هذه قاعدة من قواعد الصيدلة؟»

«إنها قاعدة من قواعد البقاء على قيد الحياة.»

ساد الصمت.

كان في نبرة صوته شيء لم أستطع تحديده. لم تكن نبرة رجل يريد إظهار تفوقه، ولا نبرة أبٍ يوبّخ طفلته. كان يتحدث كما لو أنه يشارك حقيقةً بسيطة لا تحتاج إلى إثبات.

أعاد القارورة إلى حقيبته، ثم وقف.

«لن أطيل عليكِ. أعلم أن الأيام ليست سهلة.»

«أنت لا تعرف شيئًا عن أيامي.»

قال وهو يرفع الحقيبة:

«هذا صحيح. لكنني أعرف أن الناس، حين يفقدون شخصًا مهمًا، لا يحتاجون دائمًا إلى من يخبرهم كيف يشعرون.»

لسببٍ لم أفهمه، لم أجد جوابًا ساخرًا هذه المرة.

وقبل أن يغادر، توقّف عند الباب والتفت إليّ.

«إذا احتجتِ يومًا إلى معرفة شيء عن النباتات أو الأدوية، فتعالي إلى دكاني لا أستطيع أن أعدك بأنني سأعرف الإجابة عن كل سؤال، لكنني لن أطلب منكِ أن تتظاهري بأنك تعرفينها.»

ثم غادر.

وبقيت أحدّق في الباب بعد رحيله، مستاءة من أن رجلًا غريبًا استطاع، في أقل من عشر دقائق، أن يقول لي شيئًا لم أسمعه طوال حياتي.

لم يكن عليّ أن أعرف كل شيء.

ولم يكن عليّ أن أكون الأفضل في كل مرة.

لكنني لم أكن مستعدة للاعتراف بأن هذه الفكرة قد راقت لي.

مرّت أيام قبل أن أذهب إلى دكانه.

أخبرت نفسي أنني ذاهبة لأفهم ما كان يفعله مع أبي، وأنني لا أريد ترك أي أمرٍ متعلق بالمستشفى دون معرفة. لكن الحقيقة أنني كنت فضولية، والفضول صفة لم ينجح أبي في انتزاعها مني، رغم محاولاته الكثيرة.

كان الدكان في شارعٍ بعيد عن الأحياء الراقية، حيث تضيق الطرقات وتقترب الشرفات من بعضها، وتفوح من النوافذ روائح الخبز والتوابل والصابون.

لم أزر ذلك الجزء من المدينة من قبل إلا داخل العربة، خلف ستائر مغلقة.

نزلت عند بداية الشارع، ورفضت أن ترافقني الخادمة التي أصرت على أن الطريق لا يليق بابنة كاسيان.

لم أجبها يومها، لكنني تعمدت ارتداء معطفٍ بسيط لا يحمل شارة العائلة.

أردت أن أعرف كيف ينظر الناس إليّ حين لا يعرفون من أكون.

لم أكتشف شيئًا مذهلًا. لم يتغير العالم لمجرد أنني أخفيت اسمي. امرأة ساومتني على سعر تفاحة، وصبي كاد يصطدم بي وهو يركض، ورجل عجوز طلب مني أن أبتعد عن طريق عربته. لم يفسح أحدهم الطريق لي، ولم يعتذر أحدهم لمجرد أنني وقفت أمامه.

وكان ذلك غريبًا بما يكفي ليجعلني أرغب في العودة.

وجدت الدكان أخيرًا بين مخبز صغير ومتجر يبيع الأدوات المنزلية. لم تكن هناك لافتة فاخرة، بل لوح خشبي كُتبت عليه كلمة «الأعشاب» بحروفٍ غير متساوية.

دفعت الباب، فصدر عنه رنين خافت.

لم يبدُ متفاجئًا برؤيتي.

«كنت أتساءل متى ستأتين.»

خلعت قفازي ببطء.

«هل تقول هذا لكل زبون يدخل دكانك؟»

«فقط للزبائن الذين يبدون كأنهم يتوقعون أن تعتذر لهم النباتات عن وجودها.»

نظرت إليه بحدة.

ثم، على غير عادتي، ضحكت.

كانت ضحكة قصيرة خرجت مني قبل أن أتمكن من منعها. توقفت عنها سريعًا، وكأنني ارتكبت خطأً، لكنه لم يعلّق.

أشار إلى رفٍ قريب.

«هل تعرفين هذه؟»

لا أعرف.»

قال:

«إذًا، تعلّمنا اليوم شيئًا.»

التفتُّ إليه.

«ماذا؟»

«أنك لا تعرفين اسم هذه النبتة.»

انتظرت أن يبتسم ساخرًا، لكنه لم يفعل.

«هذا كل شيء؟»

«ألا يكفي؟»

هززت رأسي باستغراب.

«في العادة، حين أقول إنني لا أعرف، يسألني الناس لماذا لم أدرس بما يكفي.»

«ربما لأنهم يخلطون بين المعرفة والخوف من الاعتراف بالجهل.»

قالها وهو يعود إلى الهاون، كأن الأمر لا يستحق نقاشًا طويلًا.

وقفت بين الرفوف أتأمل الجرار. لأول مرة منذ مدة، لم أشعر بأنني في امتحان، ولم أكن مضطرة إلى توقع السؤال التالي قبل أن يُطرح.

أخذ جوزيف النبتة من يدي ووضعها على الطاولة.

«اسمها إكليل الجبل. لها استعمالات معروفة، لكن ليس كل ما ينفع في حالة يكون مناسبًا في حالة أخرى. لهذا لا نأخذ النباتات لمجرد أن رائحتها طيبة، ولا نجرّب دواءً لمجرد أن أحدهم قال إنه نجح معه.»

«بعضه من الكتب.»

«والباقي؟»

رفع عينيه نحوي.

«من أخطائي. ومن أخطاء أشخاص تمنّوا لو أنهم لم يرتكبوها.»

لم أضغط عليه بالسؤال. لم أعرف لماذا، لكنني شعرت أن وراء عبارته قصةً لا يريد أن يحكيها الآن.

أشار إلى كرسي خشبي بجانب الطاولة.

«اجلسي. إن كنتِ ستبقين واقفة طوال الوقت، فسأظن أنك جئتِ لتفتيشي.»

جلست، ونظرت حولي مرة أخرى.

كان المكان ضيقًا، والطلاء متقشرًا عند الزوايا، وإحدى النوافذ لا تُغلق جيدًا. لم يكن فيه شيء يشبه القصر الذي نشأت فيه. ومع ذلك، شعرت براحة لم أعرف كيف أفسّرها.

ربما لأن لا أحد هنا كان ينتظر مني أن أكون وريثة كاسيان.

ربما لأن الرجل الجالس أمامي لم يكن مهتمًا بأن يعرف إن كنت ذكية بما يكفي لأحمل اسم عائلتي.

أو ربما، وهذا ما لم أفكر فيه طويلًا، لأنني كنت متعبة من أن أكون الشخص الذي أراده أبي، ولم أكن أعرف بعد كيف أصبح الشخص الذي أريده أنا.

في ذلك اليوم، لم أتعلّم سوى اسم نبتة واحدة.

لكنني حين عدت إلى القصر، وجدتني أتذكر رائحة الدكان أكثر مما أتذكر أي شيء آخر رأيته خلال الأسبوع كله.

وللمرة الأولى منذ وفاة أبي، كان لدي سبب لأنتظر صباح الغد.

لم يكن سببًا عظيمًا، ولا حلمًا جديدًا، ولا وعدًا بمستقبلٍ استثنائي.

كان مجرد سؤالٍ لم أستطع الإجابة عنه.

كم شيئًا في هذا العالم يمكن أن أتعلمه، إن توقفت عن الخوف من أن أبدو جاهلة؟

لفصل الثالث :

أشياءلا تشترى

في الأسبوع الذي تلا زيارتي الأولى لدكان جوزيف، وجدت لنفسي عذرًا للعودة إليه ثلاث مرات

في المرة الأولى، أقنعت نفسي بأنني نسيت سؤاله عن بعض النباتات التي كان أبي يستخدمها في المستشفى. وفي الثانية، قلت إنني أريد أن أرى إن كان قد عثر على إجابة بشأن القارورة التي أحضرها إلى القصر. أما في الثالثة، فلم أجد عذرًا مقنعًا، فاكتفيت بإخبار السائق أن ينتظرني في نهاية الشارع.

لم أحب الاعتراف بذلك، حتى لنفسي، لكنني بدأت أحب المكان.

لم يكن جميلًا بالمعنى الذي اعتدت عليه لا ستائر حريرية، ولا أرضيات رخامية، ولا أثاث صُنع خصيصًا ليذكّر الزائر بأن صاحب المكان يستطيع شراء ما يعجز الآخرون عن امتلاكه. كان كل شيء فيه يحمل أثر

الاستعمال؛ الطاولة التي امتلأت بالخدوش، والرف الذي مال قليلًا إلى اليمين، والكرسي الذي أصدر صوتًا مزعجًا كلما تحرك عليه أحد.

لكنني لم أشعر يومًا بأن عليّ الاعتذار عن وجودي هناك.

في القصر، كان لكل شيء مكان محدد، حتى للأشخاص. كنت أعرف أين ينبغي أن أجلس، وكيف أحيّي الضيوف، ومتى أتكلم ومتى أصمت. أما عند جوزيف، فكنت أستطيع الجلوس حيث أشاء، ولم يكن أحد يلاحظ إن وضعت كتابًا فوق الطاولة الخطأ.

وقد يبدو هذا أمرًا تافهًا لمن يقرأ حكايتي الآن، لكنه لم يكن تافهًا بالنسبة إلى فتاة أمضت حياتها وهي تشعر بأن خطأً صغيرًا قد يغيّر نظرة أبيها إليها.

في إحدى زياراتي، وجدته واقفًا قرب النافذة، يحاول نقل أصيص كبير إلى مكان تصله الشمس.

كان النبات يميل نحو جانب واحد، وأوراقه السفلية ذابلة.

وضعت حقيبتي على الكرسي واقتربت منه.

«أعتقد أنك تسقيه أكثر مما ينبغي.»

نظر إليّ من فوق كتفه.

«حقًا؟»

أوراقه ذابلة، والتربة تبدو رطبة.»

«وماذا تقترحين؟»

رفعت ذقني قليلًا. أخيرًا، سنحت لي فرصة لإثبات أنني لم أضيّع الوقت في زياراتي السابقة.

«تتركه حتى تجف التربة قليلًا، وتراقب إن كان يتحسن.»

أبعد جوزيف يده عن الإبريق، ثم أمال رأسه نحو النبات.

«اقتراح معقول.»

لم يقل شيئًا آخر.

فسألته:

«ألن تخبرني إن كنت محقة؟»

«بعد أن نرى ما سيحدث.»

«لكن يمكنني أن أكون محقة الآن.»

«يمكنكِ ذلك.»

«إذًا؟»

ابتسم.

«إذًا، سنرى.»

نظرت إليه مستاءة، ثم جلست على الكرسي الخشبي.

«أنت رجل مستفز.»

«سمعت ذلك من قبل.»

«لا بد أن كثيرين أخبروك.»

«أغلبهم لم يعودوا يزورونني.»

ضحكت رغمًا عني، بينما عاد هو إلى ترتيب أوعيته.

لم أعرف متى بدأت ألاحظ تفاصيله الصغيرة. الطريقة التي يرفع بها حاجبه حين أطرح سؤالًا لا يعجبه، وكيف يترك لي فرصة الإجابة حتى حين يعرفها، وكيف يضع الأشياء التي أستخدمها كثيرًا في متناول يدي دون أن يخبرني بأنه فعل ذلك.

لم يكن يعاملني كابنة كاسيان، ولا كفتاة ينبغي إرضاؤها.

كان يعاملني كشخصٍ يستطيع أن يخطئ، ويغضب، ويغيّر رأيه، ثم يعود في اليوم التالي دون أن يُطالَب بتبرير كل ما فعله.

وفي ذلك الوقت، لم أفهم أن هذا النوع من الأمان قد يصبح أثمن من كل ما امتلكته.

بعد أيام، وصلني أول خطاب رسمي يتعلق بمستشفى أبي.

كنت أجلس في غرفة الطعام حين وضع كبير الخدم الظرف إلى جوار طبقي. كان مختومًا بخاتم الإدارة، وقد كُتب اسمي على وجهه بخطٍّ دقيق.

فتحته وقرأت الرسالة مرتين.

كانت الإدارة تطلب مني الحضور لمناقشة شؤون المستشفى، بما أنني الوريثة الوحيدة لكاسيان، ولأن بعض القرارات المالية والطبية باتت تحتاج إلى موافقتي.

وضعت الخطاب على الطاولة.

كان هذا بالضبط ما أعدّني أبي له. المستشفى، الأطباء، الحسابات، المسؤوليات. كل ما قيل لي إنني سأديره يومًا، صار الآن أمامي، ولم يعد هناك من يستطيع أن يتولى الأمر عني.

ومع ذلك، لم أشعر بالفخر الذي توقّعه أبي

شعرت بثقلٍ بارد يستقر في صدري.

في اليوم التالي، ذهبت إلى المستشفى.

كان المبنى أكبر مما بدا لي في طفولتي، أو ربما لأنني كنت أراه آنذاك من نافذة عربة أبي، بينما صرت الآن أدخله وحدي. في الردهة، كان المرضى يجلسون على المقاعد الخشبية، وبعضهم يسند رأسه إلى الجدار، وآخرون يتحدثون بصوت منخفض.

مرّت ممرضة مسرعة تحمل وعاءً من الماء الساخن، ثم توقفت حين رأتني.

«آنسة روران؟»

أومأت.

«الطبيب سيلفان ينتظرك في مكتبه.»

كان سيلفان رجلًا نحيلًا في أواخر الثلاثينيات، له عينان غائرتان ووجه بدا أكبر من عمره. عرفته منذ سنوات، لكن علاقتي به لم تتجاوز التحيات الرسمية. كان أبي يثق بكفاءته، وإن كان كثيرًا ما يختلف معه حول نفقات العلاج.

استقبلني واقفًا، ثم أشار إلى المقعد المقابل لمكتبه.

«أشكرك على مجيئك. أعلم أن الظروف ليست سهلة.»

جلست ووضعت القفازين في حجري.

«أخبرني ما الذي تحتاج إليه.»

فتح دفترًا سميكًا، وأخذ يشرح لي الوضع المالي للمستشفى. تحدث عن ارتفاع أسعار بعض الأدوية، وعن الديون المتراكمة، وعن مرضى لا يستطيعون دفع تكاليف العلاج. كانت الأرقام تتوالى أمامي، واضحةً ومنظمة، لكنني شعرت بأنها تنتمي إلى لغة أخرى لم أتعلمها جيدًا.

قاطعته بعد مدة:

«أليس لدينا احتياطي مالي؟»

«كان لدينا.»

«وماذا حدث له؟»

توقف لحظة.

«جزء منه استُخدم في السنوات الماضية لتوسيع المستشفى وشراء المعدات. وجزء آخر ذهب إلى نفقات لا تتعلق بالعمل الطبي مباشرة.»

«أي نفقات؟»

أغلق الدفتر قليلًا.

«قرارات اتخذها والدك بنفسه.»

لم يعجبني جوابه، لكنني لم أستطع الاعتراض. لم أكن أعرف تفاصيل حسابات أبي، ولم أكن مستعدة لأن أتهمه بسوء الإدارة دون دليل.

سألته عن الأطباء، وعن المخازن، وعن المرضى الذين ينتظرون العمليات. حاولت أن أتحدث بثقة، وأن أظهر أنني قادرة على تولي المسؤولية.

وكان سيلفان مهذبًا بما يكفي لئلا يفضح جهلي.

لكنني لاحظت أنه، كلما طرحت سؤالًا، كان ينظر إلى الأوراق قبل أن يجيب، وكأنه يبحث عن الكلمات التي لن تجعلني أبدو أقل معرفة مما ينبغي.

وفي نهاية الاجتماع، نهضت وأنا أحمل ملفًا مليئًا بالتقارير.

قال سيلفان:

«ستحتاجين إلى وقت حتى تعتادي على هذه المسؤوليات.»

أجبته ببرود:

«لقد أُعدّدت لها منذ طفولتي.»

لم يرد مباشرة.

ثم قال:

«أعرف، آنسة روران.»

كانت طريقته في قولها أسوأ من الاعتراض.

خرجت من مكتبه وأنا أشعر بالغضب، لا منه وحده، بل من أبي أيضًا. كيف أمكنه أن يعلّمني ما ينبغي أن أحلم به طوال سنوات، ثم يتركني أكتشف بعد موته أنني لا أعرف من الأمر إلا اسمه؟

ذهبت إلى جوزيف في ذلك المساء، ولم أحمل معي أي سؤال عن النباتات.

وضعت الملف أمامه وجلست دون أن أنزع معطفي.

نظر إلى الأوراق، ثم إلى وجهي.

«يوم سيئ؟»

«يوم طويل.»

«هل تريدين أن تتحدثي عنه؟»

«لا.»

أومأ وعاد إلى عمله.

كان صمته مزعجًا في البداية. اعتدت أن يسألني الناس عما حدث، وأن يحاولوا انتزاع الكلام مني حتى لو لم أرغب فيه. أما جوزيف، فلم يحاول أن يجعلني أتحدث، ولم يتظاهر بأن لديه إجابة لمشكلة لم يسمعها.

بعد دقائق، وجدتني أفتح الملف بنفسي.

«هل سبق أن أدرت مستشفى؟»

رفع رأسه.

«لا.»

«إذًا كيف تعرف إن كنت أستطيع فعل ذلك؟»

وضع ما في يده جانبًا.

«لا أعرف.»

حدّقت فيه.

«أنت دائمًا تجيب بهذه الطريقة.»

«لأنني لا أعرف فعلًا.»

«كان أبي يقول إنني خُلقت لهذا الأمر.»

لم يرد فورًا. سحب كرسيًا وجلس قبالتي.

«وهل تريدين أنتِ ذلك؟»

كان السؤال بسيطًا إلى حدٍّ جعلني أشعر بأنه يسخر مني.

«بالطبع.»

«لم أسألك إن كان بإمكانك فعل ذلك. سألتك إن كنت تريدينه.»

فتحت فمي لأجيبه، لكن الكلمات لم تخرج.

نظرت إلى الملف. إلى الأرقام، والأسماء، والصفحات التي يُفترض أن أدرسها حتى أصبح المرأة التي وعد أبي الجميع بأنني سأكونها.

لا أعرف.»

خرجت العبارة هامسة.

لم أشعر بالخجل منها هذه المرة، لكنني شعرت بالخوف.

خوفٍ من أن تكون هذه هي الإجابة الحقيقية، وأن يكون كل ما عشته حتى الآن مبنيًا على سؤال لم يكلّف أحد نفسه عناء طرحه عليّ.

قال جوزيف:

«حسنًا.»

رفعت رأسي بحدة.

«حسنًا؟ هذا كل ما لديك؟»

«ماذا تريدين مني أن أقول؟»

«أن تخبرني ماذا أفعل!»

خرج صوتي أعلى مما قصدت. التفتت امرأة كانت تشتري الأعشاب نحونا، ثم عادت إلى اختيارها بصمت.

خفضت صوتي.

«الجميع ينتظر مني أن أعرف. الأطباء ينتظرون، والإدارة تنتظر، والناس ينتظرون. أبي أمضى عمره يخبرني أنني سأكون قادرة على هذا، والآن لا أستطيع حتى أن أفهم الحسابات التي تركها خلفه.»

شعرت بحرارة في عينيّ، فالتفتُّ نحو النافذة.

كرهت أن أبكي أمامه. لم أكن أريد أن يراني ضعيفة، ولم أكن أعرف لماذا يهمني رأيه أصلًا.

لكنه لم يقل إنني أبالغ، ولم يخبرني بأن ابنة كاسيان ينبغي أن تكون أقوى من ذلك.

اكتفى بالقول:

«يمكنكِ أن تتعلمي الحسابات، ويمكنكِ أن تسألي الأطباء عمّا لا تفهمينه. ويمكنكِ أن تعترفي بأنكِ لا تعرفين شيئًا بعد.»

ثم أضاف:

«لكن لا تتخذي قرارًا بشأن بقية حياتكِ فقط لأن رجلًا آخر اتخذه نيابةً عنكِ.»

بقيت أنظر إلى الشارع خلف النافذة.

لم يقل إن أبي كان سيئًا، ولم يقل إنني يجب أن أتخلى عن المستشفى. لم يطلب مني أن أختار حلمًا جديدًا.

للمرة الأولى، شعرت أن أمامي مساحةً لأفكر.

وكان ذلك مخيفًا أكثر مما توقعت.

حين غادرت الدكان، كان الليل قد بدأ يهبط على المدينة.

وجدت سائقي ينتظر عند الزاوية، وقد بدا مستاءً من طول غيابي. صعدت إلى العربة وجلست قرب النافذة، والملف فوق ركبتي.

في الطريق، مررنا أمام مجموعة من الأطفال يركضون خلف عربة صغيرة. كان أحدهم يحمل زهرة برية، يلوّح بها في الهواء كأنه عثر على كنز.

تابعتهم بعيني حتى اختفوا.

ثم فتحت الملف من جديد.

لم تكن الأرقام أقل تعقيدًا، ولم تختفِ الديون، ولم أصبح فجأة طبيبةً خبيرة بإدارة المستشفيات. لكنني بدأت أرى الأمور على نحوٍ مختلف.

ربما لم يكن عليّ أن أثبت أن أبي كان محقًا في كل شيء.

وربما لم يكن فشلي في أمرٍ ما دليلًا على أنني فشلت في أن أكون ابنته.

أغلقت الملف وأسندت رأسي إلى المقعد.

في تلك الليلة، لم أعد أفكر في الرجل الذي مات بقدر ما فكرت في الفتاة التي تركها خلفه.

فتاة لم تكن تعرف إن كانت تحب الطب، أم تحب فكرة أن تكون جيدة فيه.

فتاة أرادت يومًا أن تكون قريبة من العرش، دون أن تفهم إن كانت ترغب في السلطة، أم أنها فقط لم تحتمل أن تبقى حياتها في يد رجل آخر.

فتاة بدأت، للمرة الأولى، تشكّ في أن الأحلام التي حملتها طويلًا قد تكون أقرب إلى وصايا لم يطلب منها أحد أن توافق عليها.

ولم أكن أعرف بعد أنني سأحتاج إلى وقت طويل حتى أميّز بين ما أريده، وما أظن أنني أريده، وما سأقنع نفسي لاحقًا بأنني أريده كي أبرر أشياء لا أستطيع احتمال حقيقتها.

كل ما عرفته في تلك الليلة أنني سأعود إلى دكان جوزيف.

ليس من أجل أبي.

ولا من أجل المستشفى.

بل لأنني، للمرة الأولى منذ سنوات، وجدت مكانًا أستطيع فيه أن أقول «لا أعرف» دون أن أشعر بأنني خسرت شيئًا.

ولم أكن أعلم أن بعض الأماكن لا تدخل حياتنا لتمنحنا ما نحتاج إليه فحسب، بل لتجعلنا نعرف مقدار ما سنخسره حين نفقدها.

الفصل الثالث

لم أكن أعلم أن للوقت رائحة

عرفت ذلك في دكان جوزيف، حيث كانت الأيام تمرّ محمّلة بروائح الأوراق المجففة والجذور والتراب الرطب، حتى صرت أستطيع تمييز الصباح من المساء دون أن أنظر إلى النافذة. في الصباح، كانت الرائحة أكثر حدّة، كأن النباتات تستيقظ قبلي. أما في المساء، فكانت تختلط برائحة الخشب القديم والدخان المتسرّب من المدفأة الصغيرة، وتصبح أقلّ وضوحًا، لكنها تبقى عالقة في ثيابي حتى بعد عودتي إلى القصر.

لم أخبر أحدًا عن زياراتي المتكررة.

لم يكن الأمر سرًّا يستحق الإخفاء، لكنني لم أرد أن أسمع أسئلة ماريان، ولا أن أرى الدهشة في وجه كبير الخدم حين يعرف أن ابنة كاسيان تقضي ساعاتها في متجر ضيّق بين مخبز ومتجر للأدوات المنزلية.

كان يكفيني أن أسمع تعليق أبي لو كان حيًّا.

«ألا تجدين ما هو أنفع لوقتك؟»

كنت أعرف نبرة صوته جيدًا، حتى إنني أحيانًا كنت أسمعها في رأسي وأنا أقلب صفحات الكتب التي أحضرها لي جوزيف.

ولعلّ أكثر ما أزعجني أنني بدأت أجيب عنه.

لم أعد أقول لنفسي إنني أذهب إلى الدكان لأنني أريد أن أصبح طبيبة أفضل، ولا لأنني أحاول إصلاح ما تركه أبي خلفه. كنت أذهب لأنني أحب الذهاب، ولأنني أشعر هناك بأن اليوم ملكي، ولو لساعات قليلة.

وكان هذا، بالنسبة إليّ، اكتشافًا أكبر من أن أعترف به بسهولة.

في صباح بارد، دخلت الدكان فوجدت جوزيف واقفًا أمام الطاولة، يفرز مجموعة من الجذور البنية.

ألقى نظرة على معطفي المبلل وقال:

«يبدو أنكِ خسرتِ معركتكِ مع المطر.»

خلعت قفازي ووضعتهما قرب المدفأة.

«المطر هو الذي بدأ.»

«وهل انتصرتِ عليه؟»

«لو كنت انتصرت، لما كنت هنا أقطر ماءً على أرضك.»

ضحك، ثم دفع نحوي قطعة قماش.

«جففي شعركِ قبل أن تصابي بالبرد.»

أخذتها منه، وبدأت أمسح أطراف شعري، بينما عاد إلى الجذور التي أمامه.

راقبته قليلًا، ثم سألت:

«كيف تعرف ما الذي يجب الاحتفاظ به من كل هذا؟»

رفع إحدى القطع بين أصابعه.

«المعرفة.»

«هذا ليس جوابًا.»

«بل هو الجواب الذي لا يعجبكِ.»

جلست إلى الطاولة المقابلة له.

«أريد أن أعرف كيف تعلّمت.»

وضع الجذر جانبًا، ومسح يديه بمئزر قديم.

«بالقراءة، والسؤال، والملاحظة، والتجربة حين تكون آمنة ومناسبة. والأهم من ذلك، بتقبّل أنني قد أكون مخطئًا.»

«وهل أخطأت كثيرًا؟»

«بما يكفي حتى لا أستهين بخطأ صغير.»

قالها دون أن يبتسم هذه المرة.

أردت أن أسأله عن تلك الأخطاء، لكنني لم أشأ أن يبدو فضولي تطفّلًا. كنت قد بدأت أفهم أن جوزيف، رغم بساطته، لا يحب أن يضع حياته كلها أمام الآخرين لمجرد أنهم سألوه.

أشار إلى كتاب مفتوح على الطاولة.

«تعالي. اليوم سنتعلّم كيف نقرأ وصف النبات، لا اسمه فقط.»

اقتربت منه، فشرح لي كيف تختلف النباتات في أوراقها ورائحتها وبيئتها، وكيف يمكن للتشابه في الشكل أن يخدع شخصًا قليل الخبرة. ثم جعلني أقارن بين عينات متقاربة، وأسجّل ملاحظاتي في دفتر صغير.

في البداية، شعرت بالملل.

كنت أريد أن أعرف الأسرار الكبيرة؛ النباتات التي تشفي أمراضًا عجز عنها الأطباء، والمواد التي يمكن أن تغيّر حياة إنسان، والحدود التي تفصل بين الدواء والسم.

لكن جوزيف لم يمنحني أيًّا من تلك الإجابات دفعة واحدة.

كان يعيدني إلى التفاصيل الصغيرة، ويطلب مني أن ألاحظ ما كنت أتجاوزه، وأن أصف ما أراه قبل أن أقرر ما يعنيه.

وبعد ساعة، وجدتني أجادله في ملاحظة كتبها هو نفسه.

أعاد قراءة ما كتبت، ثم نظر إليّ.

«أحسنتِ.»

انتظرت أن يضيف شيئًا.

لم يفعل.

«ألن تقول إنني تعلّمت بسرعة؟»

«لكنكِ تعلّمتِ بسرعة.»

«إذًا لماذا تقولها وكأن الأمر عادي؟»

ابتسم وهو يعيد الكتاب إلى مكانه.

«لأنكِ لا تحتاجين إلى أن يصبح كل شيء في حياتكِ حدثًا استثنائيًا كي يكون مهمًا.»

بقيت أفكر في عبارته بعد أن غيّر الموضوع.

كان أبي يحب الأشياء الكبيرة؛ المشاريع الكبيرة، والصفقات الكبيرة، والأحلام التي يمكن أن يرويها أمام الناس فيشعرون بصغرهم أمامها. أما جوزيف، فكان يستطيع أن يقضي نصف نهارٍ في دراسة ورقة صغيرة، ثم يبدو راضيًا كأنه أنجز أمرًا يستحق الاحتفال.

لم أفهم كيف يمكن لشخص أن يعيش بهذه الطريقة.

لكنني أردت أن أتعلم.

مع مرور الأسابيع، أصبح لي مكان ثابت في الدكان.

كان هناك كرسي قرب النافذة، ودفتر أتركه في أحد الأدراج، وكوب خزفي قديم يصرّ جوزيف على أنه الأفضل للشاي رغم أن حافته كانت مشروخة. لم يخبرني قط إن كانت هذه الأشياء قد خُصّصت لي، ولم أسأله.

كنت أصل أحيانًا فأجده يجهّز الشاي بالفعل، وأحيانًا أخرى أجده منشغلًا بمريض جاء يسأله عن دواء، فأنتظر حتى ينتهي.

لم يكن جوزيف طبيبًا حاصلًا على تعليم رسمي كامل، لكنه اكتسب معرفة واسعة بالأعشاب والصيدلة من الكتب والملاحظة والأسفار، ومن السنوات التي قضاها في تعلّم ما لم يجد من يعلّمه إياه.

وكان يحرص دائمًا على تذكيري بأن المعرفة لا تعني أن يصبح المرء قادرًا على علاج كل شيء.

«هناك أمراض تحتاج إلى طبيب، وهناك حالات لا تنفع معها الأعشاب، وهناك أناس يأتون إليكِ وهم يريدون علاجًا، لكنهم لا يريدون سماع الحقيقة.»

سألته ذات يوم:

«وما الحقيقة التي لا يريدون سماعها؟»

«أننا لا نستطيع دائمًا إنقاذ من نحب.»

قالها وهو يرتب قواريره.

لم أجب.

تذكرت أبي، ثم أمي، التي لم أعرف لماذا رحلت فعلًا، ثم شعرت بضيقٍ جعلني أتمنى لو أنني لم أطرح السؤال.

ربما لاحظ جوزيف تغيّر وجهي، لأنه ترك ما في يده وجلس قبالتي.

«رووران، ليس كل ما نعجز عن تغييره خطأ ارتكبناه.»

نظرت إليه.

«هل تقول ذلك لأنك تؤمن به، أم لأنك تريد مني أن أؤمن به؟»

فكر قليلًا قبل أن يجيب.

«لأنني احتجت إلى سنوات حتى أتعلمه، ولا أريدكِ أن تضيّعي سنواتكِ بالطريقة نفسها.»

لم أعرف ماذا أقول.

كنت أظن أن الحكمة تعني امتلاك الإجابات، لكن جوزيف جعلني أرى أنها قد تعني أحيانًا معرفة الأسئلة التي لا ينبغي أن نتوقع منها جوابًا سهلًا.

في إحدى الأمسيات، عدت إلى القصر متأخرة، فوجدت ماريان تنتظرني في الردهة.

كانت تضم يديها إلى صدرها، وحين رأتني تنفّست بارتياح، ثم قطّبت حاجبيها.

«أين كنتِ؟»

نزعت معطفي.

«في الخارج.»

«هذا واضح. لكن أين؟»

«لدي بعض الأمور التي أتعلمها.»

نظرت إلى أصابعي، حيث تركت النباتات أثرًا أخضر خفيفًا.

«هل كنتِ في دكان ذلك الرجل؟»

توقفت.

«أي رجل؟»

«جوزيف.»

لم أحب الطريقة التي قالت بها اسمه، وكأنه شخص ينبغي الحذر منه.

«نعم. ماذا في ذلك؟»

ترددت ماريان.

لا شيء، آنستي. لكن والدك كان يريد لكِ مستقبلًا مختلفًا.»

شعرت بأن شيئًا داخلي انغلق فجأة.

«أبي مات يا ماريان.»

ارتبكت.

«أعرف، يا عزيزتي. لم أقصد—»

«إذًا لا تخبريني ماذا كان يريد أبي. لقد قضيت عمري كله أسمع ما يريده، وما يتوقعه، وما يعتقد أنني سأصبحه لا أريد أن أسمع ذلك كلما خرجت من القصر.»

سكتت ماريان طويلًا.

ثم قالت بصوتٍ خافت:

«كنت أحاول حمايتكِ.»

«من ماذا؟»

لم تجب.

تجاوزتها وصعدت الدرج، لكنني توقفت عند المنعطف. شعرت بوخزة ندم لأنني رفعت صوتي عليها. كانت ماريان واحدة من الأشخاص الذين بقوا إلى جانبي بعد وفاة أبي، ولم تكن تستحق غضبي.

ومع ذلك، لم أعد إليها.

لم أكن أعرف كيف أعتذر عن شيءٍ ما زلت أعتقد أنه صحيح.

في غرفتي، وقفت أمام المرآة ورفعت يدي إلى وجهي. بدا لي أن ملامحي تغيّرت قليلًا، أو ربما أنني بدأت ألاحظها للمرة الأولى بعيدًا عن الصورة التي كان أبي يريدني أن أراها فيها.

تساءلت إن كان جوزيف يعرف عن غضبي من أبي

لم أجد جوابًا.

وكانت تلك بداية مشكلة لم أعرف كيف أتعامل معها؛ كلما ابتعدت عن أبي، اكتشفت أن جزءًا منه ما زال يعيش في داخلي، يراقبني ويحاكم اختياراتي، حتى بعد أن صار قبره أبعد من أن يسمعني.

في اليوم التالي، ذهبت إلى الدكان في وقتٍ أبكر من المعتاد.

وجدت جوزيف يعمل في حديقة صغيرة خلف المبنى، حيث وضع أصصًا متفرقة من الأعشاب والزهور. كانت المساحة ضيقة، يحيط بها سور حجري منخفض، وتوجد في زاويتها طاولة خشبية عليها أدوات زراعة قديمة.

رفع رأسه حين سمع خطواتي.

«أنتِ مبكرة اليوم.»

«لم أنم جيدًا.»

لم يسألني عن السبب.

انحنيت لأتأمل نبتة صغيرة خرجت حديثًا من التراب.

«ما هذه؟»

«زهرة.»

نظرت إليه بامتعاض.

«أستطيع رؤية ذلك.»

«إذًا، يبدو أنكِ تعرفين شيئًا عنها.»

رفعت عينيّ نحوه، فابتسم.

«لماذا لا تنمو هذه أسرع؟»

مسح التراب عن أصابعه.

«لأنها لا تستطيع.»

«لكن لو اعتنينا بها أكثر—»

«يمكننا أن نمنحها ما تحتاج إليه، لا أن نجبرها على تجاوز الوقت الذي تحتاجه.»

النبتة من جديد.

كان ذلك جوابًا بسيطًا، وربما لم يقصد به أكثر من الزراعة، لكنني شعرت أنه يلمس شيئًا في داخلي.

كم مرة حاول أبي أن يجعلني أكبر قبل أواني؟ كم مرة اعتقد أن إعدادي للمستقبل يعني أن يقرر كل تفصيلٍ فيه؟ وكم مرة ساعدته أنا، حين حاولت أن أكون الفتاة التي يتوقعها، لأنني كنت أظن أن رضاه هو الدليل الوحيد على أنني أسير في الطريق الصحيح؟

مددت يدي، لكنني توقفت قبل أن ألمس النبتة.

«هل يمكن أن تموت رغم أنك تعتني بها جيدًا؟»

«نعم.»

«وهل يعني ذلك أنك أخطأت؟»

«ليس بالضرورة.»

«إذًا، كيف تعرف متى يكون موتها نتيجة خطأ منك؟»

نظر إليّ جوزيف طويلًا.

«تتعلمين من العلامات التي سبقت موتها. تحاولين فهم ما حدث. وإذا كان بإمكانكِ فعل شيء مختلف في المرة المقبلة، تفعلينه. لكنكِ لا تستطيعين إعادة النبتة إلى الحياة بمجرد أن تعاقبي نفسكِ.»

لم أكن أعرف لماذا شعرت برغبة مفاجئة في البكاء.

ربما لأنني كنت أحاول منذ أيام أن أجد خطأً واحدًا في حياتي أستطيع إصلاحه، شيئًا يجعلني أشعر بأن موت أبي لم يترك كل شيء خارج سيطرتي.

لكن الموت لا يعيد إلينا ما فقدناه، حتى لو فهمنا أسبابه.

جلست على حافة الطاولة، ونظرت إلى الحديقة الصغيرة.

«أنت تتحدث عن النباتات وكأنها أشخاص.»

أجابني:

«وأنتِ تتحدثين عن الأشخاص وكأنهم أشياء يمكن إصلاحها إذا عرفتِ الطريقة الصحيحة.»

التفتُّ إليه.

لم يكن يبتسم.

شعرت بالانزعاج، لأنني لم أحب أن يرى فيّ شيئًا لم أكن قد اعترفت به لنفسي بعد.

قلت:

«ربما لأن الأشياء أوضح.»

«ربما.»

عاد إلى عمله، ولم يحاول أن يشرح أكثر.

وللمرة الأولى، لم أشعر أنني مضطرة إلى الدفاع عن نفسي.

بقيت إلى جانبه حتى اقترب الظهر، أساعده في نقل الأصص وترتيب أدواته. لم نتحدث كثيرًا، لكن الصمت لم يكن ثقيلًا.

وحين حان وقت المغادرة، أوقفني عند الباب.

«روران.»

التفتُّ.

«نعم؟»

أشار إلى الدفتر الذي كنت أحمله.

لا تكتبي فيه ما تعرفينه فقط. اكتبي أيضًا ما لا تفهمينه، وما يزعجكِ، وما تتمنين لو كان مختلفًا.»

نظرت إلى الدفتر.

«ولماذا؟»

«لأنكِ إذا لم تكتبي أسئلتكِ، فقد يأتي يومٌ تنسين فيه أنكِ كنتِ تملكين حق طرحها.»

أخذت كلماته معي إلى القصر.

وفي تلك الليلة، فتحت الدفتر على صفحة جديدة، وكتبت في أعلاها:

ما الذي أريده أنا؟

ثم بقيت أحدّق في السؤال حتى جفّ الحبر.

لم أكتب تحته شيئًا.

لم تكن لدي إجابة بعد.

لكنني، للمرة الأولى، لم أشعر بأن عليّ اختراع إجابة كي أبدو جديرةً بالحياة التي أعيشها.

في الأيام التالية، بدأت أدوّن ملاحظاتي عن النباتات، وأضيف إليها أسئلة لا تتعلق بالصيدلة وحدها.

كتبت عن أبي، وعن أمي التي لم أعرفها، وعن المستشفى الذي كنت أظن أنني سأديره يومًا. كتبت عن شعوري حين أكون في القصر، وعن شعوري حين أخرج منه. وكتبت عن جوزيف، عن طريقته في الاستماع، وعن صبره الذي كان يثير أعصابي أحيانًا، وعن حقيقة أنني لم أعد أشعر بالحاجة إلى إخفاء جهلي أمامه.

لم تكن الصفحات مرتبة، ولم تكن أفكاري واضحة. بعض الأسئلة تكررت، وبعضها بدا لي سخيفًا حين عدت إليه بعد أيام.

لكنني لم أمزق شيئًا منها.

لم أعرف أن ذلك الدفتر سيصبح يومًا شاهدًا على فتاةٍ لم تكن قد قررت بعد ما الذي تريد أن تفعله بحياتها، قبل أن تتحول أسئلتها إلى رغبات، وتتحول رغباتها إلى شيءٍ لن تعرف كيف تتوقف عنه.

في ذلك الوقت، كنت ما أزال أؤمن بأن المعرفة تجعل الإنسان أكثر قدرة على الاختيار.

لم أكن أعرف أن هناك أبوابًا، متى عرف الإنسان بوجودها، لن يكفّ عن التفكير فيما وراءها.

ولم أكن قد سألت جوزيف بعد عن الموت.

لكن السؤال كان يقترب مني ببطء، كما تقترب رائحة المطر من نافذة مفتوحة.

وكان ينتظر اليوم الذي سأجرؤ فيه على النطق به.

الفصل الرابع

السؤال الذي لم يكن ينبغي أن أطرحه

لم أكن أخطط لسؤاله عن الموت في ذلك اليوم.

أقول هذا لأنني، حين أتذكر ما حدث لاحقًا، أجدني أعود إلى تلك الأمسية وأفتّش عن اللحظة التي كان بإمكاني فيها تغيير كل شيء. أبحث عن كلمة كان ينبغي ألّا أقولها، أو نظرة كان ينبغي أن أتجاهلها، أو حتى سببٍ يجعلني أصدّق أنني كنت أستطيع أن أكون شخصًا آخر لو أنني اخترت الصمت.

لكن الحقيقة أنني لم أكن أعرف إلى أين يقودني فضولي.

كنت أظن أن الأسئلة مجرد أسئلة، وأن الإنسان يستطيع الاقتراب من أي حقيقة ثم العودة كما كان، ما دام لم يفعل شيئًا خاطئًا.

لم أفهم يومها أن بعض الأسئلة لا تكتفي بأن نطرحها، بل تبقى فينا، تنمو بصمت، حتى يصبح تجاهلها أصعب من مواجهتها.

وصلت إلى دكان جوزيف بعد الظهر بقليل، فوجدته يرتّب مجموعة من الكتب القديمة على رفٍّ جديد صنعه بنفسه.

كان قد وضع معطفه على مسمار قرب الباب، ورفع أكمامه حتى مرفقيه. وعلى الأرض تناثرت قطع خشبية صغيرة، بينما استقرّ مطرقة ومنشار بجانب الطاولة.

توقفت عند المدخل أتأمل ما فعله.

«هل قررت أن تصبح نجّارًا أيضًا؟»

لم يلتفت إليّ.

«قررت أن أتوقف عن وضع الكتب فوق بعضها حتى تقع على رأسي.»

اقتربت من الرفّ ولمست إحدى حوافه.

«إنه مائل.»

توقف عن العمل ببطء.

«صباح الخير لكِ أيضًا.»

ضحكت، ثم وضعت حقيبتي على الكرسي وبدأت أساعده في ترتيب الكتب.

كانت بعض المجلدات سميكة، وأغلفتها متشققة من كثرة الاستعمال. وجدت كتبًا عن النباتات الطبية، وأخرى عن تركيب الأدوية، وكتابًا عن تاريخ الممالك القديمة، حتى إنني عثرت على مجلدٍ عن السموم وطرق التعرّف إليها.

سحبته من بين الكتب.

«لماذا تحتفظ بهذا؟»

نظر إلى الغلاف.

«لأن السموم جزء من علم الصيدلة.»

«هل درستها؟»

«درست ما يكفي لأعرف أن الجهل بها قد يكون أخطر من معرفتها.»

فتحت الكتاب، فتطايرت منه رائحة الورق القديم.

كانت صفحاته مليئة بملاحظات بخطٍّ دقيق، بعضها مكتوب على الهوامش، وبعضها الآخر بين السطور. شعرت بفضول فوري، وبدأت أتصفح الصفحات بسرعة.

قال جوزيف من خلفي:

لا تقرئي ما لا تفهمينه ثم تتظاهري بأنك فهمتِه.»

أغلقت الكتاب.

«هل تتهمني بذلك؟»

«أنا أعرفكِ منذ وقتٍ قصير، لكنني بدأت ألاحظ أنكِ حين لا تفهمين شيئًا، تسألين سؤالًا أصعب منه حتى لا يلاحظ أحد.»

حدّقت فيه، ثم وضعت الكتاب على الطاولة.

«ربما لأن الناس لا يحبون الإجابات البسيطة.»

«وربما لأنكِ لا تحبين أن تكوني في موضع الشخص الذي يحتاج إلى التعلّم.»

أردت الاعتراض، لكنني لم أجد ما أقوله.

كان مزعجًا أن يلاحظ جوزيف هذه الأشياء، ومزعجًا أكثر أن يفعل ذلك دون أن يحاول إهانتي.

أخذت كتابًا آخر وجلست قرب النافذة.

«هل كنت هكذا دائمًا؟»

«كيف؟»

«تلاحظ كل شيء، ثم تقرر أن تقوله في الوقت الذي يكون فيه أقلّ فائدة بالنسبة إليّ.»

ضحك هذه المرة.

«لا، كنت أسوأ.»

قضينا جزءًا من المساء في مراجعة ملاحظاتي عن النباتات. أخطأت في تصنيف إحداها، واختلفت معه بشأن وصف رائحة أخرى، ثم اضطررت إلى الاعتراف بأنني بنيت استنتاجًا كاملًا على ملاحظة واحدة.

كان جوزيف يستمتع بذلك أكثر مما ينبغي.

وحين انتهينا، أغلقت دفتري وألقيت القلم على الطاولة.

«أعتقد أنني لن أصبح صيدلانية أبدًا.»

قال وهو يعيد الأوراق إلى مكانها:

«لم أقل لكِ إن عليكِ أن تصبحي صيدلانية.»

«لكنني أخطأت في نصف ما كتبته.»

«وهل توقعتِ أن تصيبي في كل شيء منذ البداية؟»

«كنت أتوقع أن أكون أفضل من ذلك.»

نظر إليّ قليلًا، ثم سأل:

«أفضل ممّن؟»

لم أجب.

كنت أعرف الإجابة، ولم أحبها.

أفضل من الأشخاص الذين يرونني ابنة كاسيان ولا يرون شيئًا آخر. أفضل من الصورة التي رسمها أبي لي، لأنني كنت أريد أن أثبت أنني أستطيع الوصول إليها. أفضل من نفسي القديمة، تلك التي كانت تنتظر الثناء بعد كل إنجاز.

لكنني لم أقل شيئًا من ذلك.

جمعت كتبي ووقفت لأغادر، إلا أن المطر بدأ يهطل بغزارة قبل أن أصل إلى الباب.

نظر جوزيف إلى السماء من النافذة.

«لن تذهبي الآن.»

«لدي عربة تنتظرني.»

«إذًا ستنتظرك أكثر.»

لا أريد أن أتأخر.»

«لن يصبح المطر أقلّ احترامًا لكِ لأنكِ ابنة كاسيان.»

نظرت إليه، ثم إلى الشارع المبتل.

كان محقًا، وهو أمرٌ بدأ يصبح عادةً مزعجة.

عدت إلى مقعدي، بينما وضع جوزيف إبريق الماء على النار وأخرج كوبين.

كانت هذه من المرات القليلة التي بقيت فيها في الدكان بعد انتهاء العمل. خفتت الأصوات في الشارع، وأُغلقت المتاجر واحدًا تلو الآخر، حتى لم يبقَ سوى وقع المطر على الزجاج.

جلست أراقب قطراته، ثم سألت دون أن أنظر إليه:

«هل تخاف الموت؟»

سمعت حركة الكوب في يده، ثم سكوتًا قصيرًا.

«ما الذي دفعكِ إلى هذا السؤال؟»

لا أعرف.»

وهذه المرة كنت صادقة.

ربما كان الكتاب الذي قرأته، أو المطر، أو حديثنا عن الأشياء التي لا نستطيع إصلاحها. وربما كان السؤال يعيش في داخلي منذ وفاة أبي، ينتظر لحظةً هادئة كي يظهر.

وضع جوزيف الكوب أمامي وجلس.

«أخاف بعض الأشياء التي قد تسبق الموت أكثر مما أخاف الموت نفسه.»

التفتُّ إليه.

«مثل ماذا؟»

«أن يموت الإنسان وهو يظن أنه لم يعش كما أراد. أو أن يؤذي من يحبّهم، ثم يكتشف متأخرًا أنه لم يعد يستطيع إصلاح ما فعل.»

شعرت بانقباضٍ في صدري.

لم أكن أتوقع هذه الإجابة.

«وهل تعتقد أن الإنسان يستطيع أن يعرف متى يكون قد عاش الحياة التي يريدها؟»

حرّك جوزيف الكوب بين يديه.

«أعتقد أن عليه أن يسأل نفسه من وقتٍ إلى آخر إن كان الطريق الذي يسير فيه لا يزال طريقه.»

«وإذا اكتشف أنه أخطأ الطريق؟»

«يغيّره، إن استطاع.»

«وإذا كان قد وصل إلى مكان لا يستطيع العودة منه؟»

رفع عينيه نحوي.

«حينها عليه أن يفكر بما يستطيع فعله من المكان الذي وصل إليه، لا أن يضيّع ما بقي من حياته وهو يتمنى لو أنه لم يصل.»

لم أعرف لماذا بدت لي كلماته ثقيلة إلى هذا الحد.

ربما لأنني كنت أفكر في أبي، وفي السنوات التي أمضيتها أحاول أن أكون ما أراده لي. وربما لأنني بدأت أشعر أنني لا أعرف نفسي بما يكفي حتى أستطيع أن أقرر إن كنت قد أخطأت الطريق أصلًا.

ارتشفت قليلًا من الشاي، ثم سألت:

«هل يمكن للإنسان أن يفعل شيئًا سيئًا، وهو يعتقد أنه يفعل شيئًا صحيحًا؟»

لم يجب فورًا.

«بالطبع.»

«وكيف يعرف أنه مخطئ؟»

«حين يبدأ في البحث عن الأعذار بدلًا من البحث عن الحقيقة.»

أخفضت عينيّ إلى الكوب.

لم أكن أعرف أنني سأعود إلى هذه العبارة كثيرًا في السنوات المقبلة، أو أنني سأصبح بارعةً في اختراع الأعذار لنفسي، حتى إنني سأحتاج أحيانًا إلى وقتٍ طويل كي أتذكر السؤال الذي كنت أحاول الهرب منه.

ظل المطر يهطل حتى المساء.

وحين خفّ أخيرًا، ساعدت جوزيف في إغلاق النوافذ وترتيب الأدوات. كنت على وشك المغادرة حين وقعت عيناي على بابٍ صغير في آخر الدكان، لم ألاحظه من قبل.

كان الباب مواربًا، وخلفه ممرّ ضيق يؤدي إلى الغرفة الخلفية.

سألته:

«ماذا يوجد هناك؟»

رفع رأسه من فوق الصندوق الذي كان يغلقه.

«غرفة أحتفظ فيها ببعض الأشياء.»

«أي أشياء؟»

«أشياء لا تتّسع لها الرفوف هنا.»

اقتربت خطوة، فرأيت صناديق خشبية مكدسة ورفوفًا تحمل قوارير وأدوات قديمة. لم يكن في المكان ما يثير الخوف، لكنني شعرت بفضول مفاجئ تجاهه.

«هل يمكنني الدخول؟»

تغير وجه جوزيف قليلًا.

لم يكن غضبًا، لكنه لم يكن التعبير الذي اعتدت رؤيته حين أسأله عن شيءٍ جديد.

قال:

«ليس اليوم.»

توقفت.

«لماذا؟»

«لأنني أريد ترتيبها أولًا.»

كان جوابًا معقولًا، لكنني لم أقتنع به تمامًا.

«هل تحتفظ بأسرار في الداخل؟»

«كل إنسان يحتفظ بأشياء لا يرغب في عرضها على الآخرين.»

«هذا لا يعني أنها أسرار.»

«صحيح.»

أغلق الباب برفق، ثم عاد إلى الصندوق.

كان بإمكاني الإصرار، وربما كنت سأفعل لو أنني كنت في القصر، حيث اعتدت أن أحصل على الإجابات بمجرد أن أطلبها أكثر من مرة.

لكنني لم أفعل.

لسببٍ لم أفهمه، شعرت أن رفضه لا يعني أنه يستخفّ بي، ولا أنه يعتقد أنني غير جديرة بالمعرفة. كان ببساطة يضع حدًّا لم أعتد أن يضعه أحد أمامي دون أن يحاول تبريره طويلًا.

أخذت حقيبتي.

«حسنًا. لكنني سأعرف يومًا ما.»

نظر إليّ جوزيف، وكانت في عينيه نظرة غريبة، كأن عبارتي لم تكن مزحةً بالنسبة إليه.

«أتمنى أن تتعلمي متى يكون من الأفضل ألّا تعرفي.»

لم أفهم قصده.

ولم أسأله.

في طريق عودتي، لم أستطع التوقف عن التفكير في الغرفة الخلفية.

لم يكن لدي سبب حقيقي للشك في جوزيف. لم أرَ منه إلا الصبر والصدق، ولم أشعر يومًا أنه يخفي عني شيئًا بقصد خداعي. لكن الباب المغلق أيقظ في داخلي فضولًا قديمًا؛ ذلك الشعور الذي ينتابني حين أعرف أن هناك شيئًا لا أعرفه.

كنت أريد أن أفهم كل شيء.

لم أكن أكتفي بمعرفة أن النبتة نافعة، بل أردت أن أعرف لماذا تنفع، وكيف تعمل، وما الذي يحدث إن استُخدمت بطريقة خاطئة. ولم أكن أكتفي بمعرفة أن أبي مات، بل أردت أن أعرف من قتله، ولماذا، وما الذي سبق موته.

كنت أظن أن الحقيقة، مهما كانت قاسية، أفضل من الجهل.

ولم أكن أعرف أنني سأكتشف يومًا أن بعض الحقائق لا تأتي وحدها، بل تحمل معها رغباتٍ جديدة، وأن الإنسان قد يبدأ بحثه عن إجابةٍ واحدة، ثم يجد نفسه يسير وراء أسئلة لم يكن ليتخيل أنه سيطرحها يومًا.

عندما وصلت إلى القصر، كان كبير الخدم ينتظرني في الردهة.

قال:

«آنسة روران، وصلتك رسالة من إدارة المستشفى. وضعوها على مكتبك.»

صعدت إلى غرفتي وفتحت الرسالة.

كانت تتضمن موعدًا لاجتماع جديد مع الأطباء، وقائمةً بالقرارات التي ينبغي أن أراجعها قبل الاجتماع. قرأتها مرةً، ثم وضعتها في الدرج دون أن أفتح الملف المرفق.

جلست أمام مكتبي.

على أحد جانبيه كان دفتر ملاحظاتي عن النباتات، وعلى الجانب الآخر أوراق المستشفى.

تأملت الاثنين طويلًا.

كان أحدهما يمثل الحياة التي أُعدّت لها، والآخر يمثل شيئًا لم أكن أعرف اسمه بعد.

وللمرة الأولى، لم أستطع أن أقنع نفسي بأن عليّ اختيار أحدهما فورًا.

فتحت دفتر النباتات وكتبت:

«ليس كل باب مغلق دعوةً إلى فتحه.»

ثم توقفت، وأضفت تحتها:

«لكن لماذا أشعر أنني لن أرتاح حتى أعرف ما وراءه؟»

أغلقت الدفتر، وأطفأت المصباح.

لم أكن أعرف أن هذا السؤال الصغير سيصبح، يومًا ما، أكثر الأسئلة خطورةً في حياتي.

ولم أكن أعرف أن جوزيف، الرجل الذي منحني للمرة الأولى حقّ ألّا أعرف، سيصبح الشخص الذي أتمنى لاحقًا لو أنني استمعت إليه حين حاول أن يمنعني من المعرفة.

لفصل السابع :

الذي تخفيه رائحة الاعشاب ؟

لم أذهب إلى دكان جوزيف في اليوم التالي.

ولا في اليوم الذي تلاه.

لم يكن ذلك لأنني مللت المكان، بل لأنني بدأت أخشى أن أعتاد عليه أكثر مما ينبغي. كان في دكانه شيء يجعل العالم الخارجي يبدو بعيدًا، كأن ضجيج الناس ومطالبهم وخيباتهم لا تستطيع عبور العتبة الخشبية ما دامت رائحة الأعشاب تملأ الهواء.

ولم أكن أريد أن أجد مكانًا أهرب إليه كلما ضاق بي العالم. كنت أريد أن أتعلم كيف أواجهه، أو هكذا أقنعت نفسي.

في صباح اليوم الثالث، استدعاني الدكتور سيلفان إلى المستشفى.

وصلت قبل الظهيرة بقليل، مرتدية معطفي الداكن الذي ورثته عن أبي. كان واسعًا عند الكتفين، طويلًا عند الأكمام، تفوح منه رائحة خفيفة من خشب الصندل. لم أكن أحبه، لكنه كان يذكّر الموظفين بأنني ابنة كاسيان، وأن وجودي بينهم ليس زيارة عابرة.

استقبلني سيلفان أمام غرفة السجلات، يحمل ملفًا سميكًا تحت ذراعه.

قال وهو يشير إلى الباب:

— أريدك أن تري شيئًا بنفسك، آنسة روران. أظن أن الوقت قد حان لتعرفي كيف تسير الأمور هنا فعلًا.

دخلت خلفه.

كانت الغرفة ضيقة، تتكدس فيها دفاتر الحسابات وملفات المرضى وفواتير الأدوية. جلس رجل مسن إلى المكتب القريب من النافذة، يضع نظارة صغيرة على طرف أنفه، بينما كانت امرأة شابة تقلب صفحات دفتر كبير بملامح متجهمة.

رفع الرجل رأسه حين رآني.

— الآنسة روران؟

أومأت.

— أنا المسؤول عن حسابات المستشفى. كان والدك يفضّل مراجعة بعض السجلات بنفسه، لكنه ترك أمورًا كثيرة معلّقة.

وضع أمامي ثلاثة دفاتر.

لم أفهم في البداية ما الذي يريدونه مني. الأرقام كانت متراصة في أعمدة طويلة، والأسماء تتكرر، وبعض الحسابات مشطوب عليها بخط أبي الحاد. بدا لي الأمر كأنني أحاول قراءة لغة أعرف حروفها، لكنني لا أفهم كلماتها.

قلبت الصفحات ببطء.

— لماذا توقفت بعض التوريدات؟

أجاب الرجل:

— لأننا لم نسدد مستحقات الموردين.

— ولماذا لم نسددها؟

تبادل نظرة سريعة مع سيلفان.

— لأن السيولة المتاحة أقل مما ينبغي.

أغلقت الدفتر.

— أعرف ذلك. أريد أن أعرف السبب.

لم يجبني فورًا. ثم سحب ورقة من بين الأوراق الموضوعة أمامه، ودفعها نحوي.

كانت هناك مبالغ كبيرة صُرفت قبل أشهر، بعضها لتوسعة جناح جديد، وبعضها لمشروعات لم أفهم ضرورتها، وبعضها الآخر لم يحمل وصفًا واضحًا.

شعرت بانقباض في معدتي.

لم يكن أبي رجلًا يترك الأمور للفوضى. كان يكره الفوضى في كل شيء، من ترتيب مائدته إلى طريقة وقوف الخدم أمامه. فكيف ترك مستشفى يحمل اسمه غارقًا في حسابات لا يستطيع أحد تفسيرها؟

— هل كان يعلم بهذا؟

سألت.

أجاب سيلفان بحذر:

— كان يعلم بأكثر مما نعلم، على الأرجح. لكن والدك لم يكن يحب أن يشرح قراراته لأحد.

كدت أقول إنني أعرف ذلك جيدًا، لكن الكلمات بقيت في حلقي.

كم مرة وقفت أمامه وأنا أستمع إلى خططه لمستقبلي، وأخلط بين ثقته بنفسه وثقته بي؟ كم مرة ظننت أن إصراره على اختياراتي دليل على أنه يعرفني أكثر مما أعرف نفسي؟

أعدت النظر إلى الأوراق.

وما الذي تتوقعونه مني؟

قال سيلفان:

— أن تتخذي قرارًا. إما أن نوقف بعض الخدمات مؤقتًا حتى نستعيد توازننا المالي، أو أن تبحثي عن جهة تموّل المستشفى. هناك نفقات لا يمكن تأجيلها، والمرضى لا ينتظرون حتى تتحسن حساباتنا.

كانت تلك أول مرة أفهم فيها أن اسم أبي، بكل ما يحمله من هيبة، لا يستطيع شراء الوقت.

نهضت، وأخذت نسخة من الحسابات.

— لن أوقّع على شيء اليوم. أريد أن أراجع كل هذه السجلات أولًا.

لم يعترض أحد.

لكنني، حين خرجت من الغرفة، أدركت أنني لم أكن أملك خطة، ولا خبرة كافية، ولا حتى رغبة واضحة في أن أكون الشخص الذي ينتظر الجميع منه الحل.

كنت أملك اسمًا ثقيلًا فحسب.

وفي ذلك اليوم، كرهت اسمي قليلًا.

لم أعد إلى القصر مباشرة.

وجدت نفسي أسير في الشارع المؤدي إلى دكان جوزيف، والملف تحت ذراعي، وخطواتي أسرع كلما اقتربت منه. حاولت أن أقنع نفسي بأنني ذاهبة لأطلب نصيحة عملية، لا لأهرب من عجز لم أستطع الاعتراف به أمام أحد.

كان الباب مفتوحًا، لكن جوزيف لم يكن خلف المنضدة.

سمعت صوتًا يأتي من الغرفة الخلفية، يتبعه صوت ارتطام خفيف، ثم شتيمة مكتومة.

توقفت عند العتبة.

— هل ينبغي أن أقلق؟

ظهر جوزيف بعد لحظات، يحمل صندوقًا خشبيًا صغيرًا، وعلى كمّه بقعة تراب.

نظر إليّ، ثم إلى الملف.

— يبدو أنك تحملين ما هو أثقل من صندوقي.

— صندوقك لا يحتوي على ديون مستشفى كامل، على حد علمي.

ابتسم.

— لا، لكنه يحتوي على بذور أصرّت على السقوط في المكان الخطأ.

وضعت الملف على المنضدة.

— أظن أنني بحاجة إلى شخص يخبرني من أين أبدأ.

اختفت ابتسامته قليلًا، لا حزنًا، بل انتباهًا.

لم يسألني عن التفاصيل مباشرة. أخرج كرسيًا ووضعه أمام المنضدة، ثم صبّ لي كوبًا من الماء.

جلست، وبدأت أحدثه عن الحسابات والتوريدات والقرارات التي لا أفهمها. لم يقاطعني، ولم يبدُ مندهشًا من جهلي، ولم يتعامل معي كما لو أنني أخيّب أمله في كل جملة.

وحين انتهيت، قال:

— ما أول شيء يمكنك فعله دون أن تتظاهري بأنك تعرفين كل شيء؟

تأملت السؤال.

— مراجعة الحسابات بندًا بندًا.

— جيد. وما الشيء الذي لا تستطيعين فعله وحدك؟

— تحديد النفقات الضرورية طبيًا لا أعرف ما الذي يمكن تأجيله وما الذي سيؤذي المرضى.

أومأ.

— إذن تحتاجين إلى طبيب تثقين بحكمه، ومحاسب لا يخشى قول الحقيقة، وربما شخص يفهم في إدارة المؤسسات. ليس عليك أن تتحولي إلى أربعة أشخاص في يوم واحد.

نظرت إليه.

كانت النصيحة بسيطة إلى درجة أزعجتني. لقد أمضيت ساعات وأنا أحاول إيجاد حل كبير، بينما لم يخطر ببالي أن البداية قد تكون مجرد الاعتراف بأنني لا أستطيع القيام بكل شيء.

قلت:

— أبي لم يكن يحتاج إلى كل هؤلاء.

— هل أنت متأكدة؟ أم أنه جعلك تظنين أنه لا يحتاج إلى أحد؟

لم يعجبني السؤال.

أخذت كوب الماء وشربت منه، متعمدة ألا أجيبه. لم يكن جوزيف يعرف أبي كما عرفته أنا، أو هكذا أردت أن أعتقد. لم يكن حاضرًا في الليالي التي كان أبي يراجع فيها الملفات حتى الفجر، ولا في الاجتماعات التي كان يخرج منها والآخرون يخفضون رؤوسهم.

ومع ذلك، بقي سؤاله عالقًا في ذهني.

قبل أن أغادر، أشار إلى الملف.

—لا تجعلي خوفك من الفشل يدفعك إلى اتخاذ قرار متسرع. المرضى ليسوا أرقامًا، لكن الأرقام قد تخبرك أين سيبدأ الألم.

حملت الملف مجددًا.

— أنت تتحدث كأنك أدرت مستشفى من قبل.

—لا. لكنني رأيت أشخاصًا يفسدون أشياء جيدة لأنهم كانوا يخجلون من طلب المساعدة.

ثم عاد إلى صندوقه الخشبي، تاركًا لي حرية المغادرة دون أن يجعلني أشعر أنني مدينة له بشيء.

وكان ذلك، على نحو غريب، أكثر ما جعلني أرغب في العودة.

مرّت أسابيع بدأت خلالها أذهب إلى المستشفى في الصباح، وإلى دكان جوزيف في بعض الأمسيات.

لم تتحسن الأمور بسرعة. اضطررنا إلى تأجيل مشروع التوسعة، وإعادة التفاوض مع اثنين من الموردين، وإغلاق غرفة لم تعد تجهيزاتها تُستخدم. غضب بعض الموظفين، واعترض آخرون، ووجدت نفسي في أكثر من مرة أستمع إلى رجال أكبر مني سنًا يتحدثون إليّ كما لو أنني فتاة ضلّت طريقها إلى غرفة الكبار.

لكنني تعلمت أن أطرح الأسئلة بدلًا من ادعاء المعرفة.

وتعلمت أيضًا أن الناس لا يقولون الحقيقة دائمًا بالطريقة التي نتوقعها. كان بعضهم يخفي أخطاءه خوفًا من العقاب، وبعضهم يخفيها حفاظًا على مكانته، وبعضهم لا يدرك أصلًا أنه يكذب على نفسه.

بدأ ذلك يثير فضولي.

ليس فضولًا نبيلًا بالضرورة، بل رغبة متنامية في معرفة ما يدور خلف الوجوه المرتبة والكلمات المنتقاة. كنت أريد أن أفهم كيف يمكن للإنسان أن يبدو صالحًا أمام الآخرين، بينما يخفي داخله شيئًا لا يشبه صورته أبدًا.

في إحدى الأمسيات، كنت أساعد جوزيف على ترتيب زجاجات صغيرة على الرفوف. وضع أمامي زجاجة بنية، وأشار إلى ملصقها.

— ما الذي تعرفينه عن هذه؟

قرأت الاسم المكتوب بخط يده.

— نبات يُستخدم لتخفيف بعض الأعراض، إذا عولج بطريقة صحيحة.

— وما الذي لا تعرفينه؟

قلبت الزجاجة بين يديّ.

— الكمية المناسبة لكل حالة. والتداخلات المحتملة مع أدوية أخرى. وما إذا كان استعماله خطرًا على بعض المرضى.

ابتسم ابتسامة خفيفة.

— تتقدمين.

أعدت الزجاجة إلى مكانها، ثم قلت، من دون أن أخطط للسؤال:

— هل يمكن أن نتعلم شيئًا عن المرض من جسد شخص مات بسببه؟

توقفت يد جوزيف فوق الرف.

لم يلتفت إليّ فورًا، ولم يوبخني كما توقعت. وضع الزجاجة التي يحملها على الخشب، ثم استدار نحوي ببطء.

— ما الذي دفعك إلى التفكير في هذا؟

— في المستشفى، نقرأ تقارير المرضى، ونحاول أن نفهم لماذا لم ينجح العلاج. لكن بعض التقارير ناقصة، وبعض الأطباء يكتبون ما يعتقدون أنه حدث، لا ما حدث فعلًا. فكرت أن الجسد قد يحتفظ بإجابات لم يتمكن صاحبه من قولها.

ظل ينظر إليّ طويلًا.

لم أشعر بالخجل من السؤال. على العكس، كان في داخلي جزء ينتظر أن يراه أحد، أن يعترف بأنني لم أعد أكتفي بما يُقال لي.

قال أخيرًا:

— نعم، يمكن لفحص الجسد بعد الموت أن يساعد على فهم بعض الأمراض، وقد يكشف أحيانًا أسبابًا لم تكن واضحة في حياة المريض. لكن هذا عمل طبي له قواعده، ويحتاج إلى إذن قانوني وأخلاقي، وإلى مختصين يعرفون ما يفعلون.

— إذن الأمر ليس ممنوعًا في ذاته.

لم أقل إنه ممنوع في ذاته.

اقترب من المنضدة، ووضع كفيه عليها.

— لكنني أريدك أن تفهمي الفرق بين أن تبحثي عن إجابة لإنقاذ حياة، وبين أن يصبح الجسد نفسه هو ما يجذبك. الأول قد يقودك إلى المعرفة. أما الثاني، إذا لم تنتبهي إلى نفسك، فقد يجعلك تنسين الإنسان الذي كان داخل ذلك الجسد.

سكتُّ.

كان كلامه منطقيًا، ولهذا لم يعجبني.

— ألا تعتقد أنك تبالغ في خوفي من الأشياء التي أريد معرفتها؟

— ربما. وربما أعرف أن بعض الأسئلة لا تبقى أسئلة إلى الأبد. أحيانًا تتحول إلى رغبات، ثم تصبح الرغبات عادات، وبعدها نستيقظ لنجد أننا لم نعد نتذكر متى بدأنا نفقد قدرتنا على التراجع.

لم تكن نبرته قاسية، لكنها لم تترك لي مساحة واسعة للاستهانة بما قاله.

أبعدت نظري عنه، وبدأت أرتب الأوراق الموضوعة على المنضدة، رغم أنها كانت مرتبة أصلًا.

— أنا لا أريد إيذاء أحد.

— أصدقك.

رفعت رأسي.

أضاف:

— لكن النوايا الجيدة لا تعفي الإنسان من مراقبة نفسه.

كانت تلك الجملة أكثر إزعاجًا من الاتهام. لو اتهمني، لكان بإمكاني الدفاع عن نفسي. أما أن يصدقني، ثم يطلب مني أن أراقب ما قد أصبح عليه، فقد جعلني أشعر أن الأمر مسؤولية تخصني وحدي.

غادرت دكانه في تلك الليلة، وأنا أفكر في الجسد بوصفه كتابًا لا يستطيع صاحبه إخفاء صفحاته.

ولم يخطر لي أن المشكلة قد لا تكون في ما يخفيه الجسد، بل في ما قد أبحث عنه أنا داخله.

بعد أيام، دعاني سيلفان إلى حضور فحص طبي بإشرافه، لمريض توفي في المستشفى بعد مرض طويل. كانت الإجراءات نظامية، والأسرة قد وافقت على الفحص لمعرفة السبب الذي عجز الأطباء عن تحديده بدقة.

ترددت قبل الموافقة.

لم أكن قد أخبرت جوزيف بالدعوة، ولم أكن أريد أن أسمع صوته في رأسي وهو يسألني عن سبب رغبتي في الذهاب.

قلت لنفسي إنني أحتاج إلى التعلم. وإن المعرفة لا تصبح خطأ لمجرد أنها تثير الخوف. وإنني لن أكون طبيبة جيدة إذا أغمضت عينيّ عن الأمور التي لا أستطيع فهمها.

في صباح الفحص، ارتديت ثوبًا بسيطًا وربطت شعري إلى الخلف. دخلت الغرفة مع سيلفان وطبيب آخر، بينما بقي مساعدان قرب الباب.

كان المكان باردًا، مضاءً بضوء أبيض لا يترك للظلال فرصة للاختباء. لم تكن هناك موسيقى، ولا أصوات سوى حركة الأدوات وشرح الطبيب الهادئ لما يلاحظه.

في البداية، حاولت التركيز على كلماته. كتبت الملاحظات، وسألت عن بعض العلامات التي لم أفهمها، وأجبرت نفسي على النظر إلى ما كان يشرحه بدلًا من التراجع.

ثم حدث شيء لم أستطع تفسيره.

لم أشعر بالاشمئزاز الذي توقعت أن يغمرني. ولم أُصَب بالدوار، ولم أحتج إلى الابتعاد كما فعل أحد المساعدين في أول مرة حضر فيها فحصًا مشابهًا.

كان هناك هدوء غريب يستقر داخلي، هدوء لا يشبه الراحة تمامًا، لكنه يشبه اللحظة التي تجد فيها قطعة مفقودة من لغز كنت تحاول حله منذ زمن.

حين أشار الطبيب إلى موضع معين وشرح كيف يمكن أن يرتبط بأعراض المريض، انحنيت قليلًا إلى الأمام.

لم أعد أرى الموت وحده.

كنت أرى سؤالًا.

وسؤالًا آخر خلفه.

وكمية من الأشياء التي لم أكن أعرفها، لكنها بدت أقرب إليّ من أي وقت مضى.

انتهى الفحص، وغادر الجميع الغرفة تباعًا. بقيت لحظات قرب الطاولة، أراجع ملاحظاتي، حتى قال سيلفان من عند الباب:

— روران، هل أنت بخير؟

أغلقت دفتري.

— نعم. لماذا؟

تردد قبل أن يجيب.

— لأنك كنت هادئة جدًا.

ابتسمت ابتسامة صغيرة.

— أليس هذا ما ينبغي أن يكون عليه الطبيب؟

— الهدوء مطلوب. لكن اللامبالاة ليست كذلك.

نظرت إليه، وقد أزعجني أنه استطاع أن يقرأ شيئًا لم أكن قد اعترفت به لنفسي.

— لم أكن غير مبالية.

— لم أقل إنك كنت كذلك.

انتظر لحظة، ثم تابع:

— أريدك أن تتذكري أن ما رأيناه اليوم كان إنسانًا له حياة، وعائلة، وأشياء أحبها وأشياء خاف منها. الفحص يساعدنا على فهم موته، لكنه لا يختصر حياته.

أومأت.

كنت أعرف ذلك. بالطبع كنت أعرفه.

لكن في طريق عودتي إلى القصر، لم أفكر في عائلة الرجل، ولا في الأشياء التي أحبها، ولا في السنوات التي عاشها. كنت أفكر في العلامات التي رأيناها، وفي الاحتمالات التي لم تُحسم، وفي الأسئلة التي بقيت بلا إجابة.

حاولت أن أستعيد وجهه كما كان يمكن أن يبدو حيًا، لكن ذاكرتي لم تمنحني سوى ملامح عابرة لا أستطيع تثبيتها.

أزعجني ذلك.

ليس لأنني لم أتذكره، بل لأنني لم أكن متأكدة من أنني حاولت فعلًا.

في المساء، وجدت جوزيف في حديقته الصغيرة، يزيل أوراقًا ذابلة عن إحدى الشجيرات.

لم أخبره بما فعلته في المستشفى.

جلست على المقعد الحجري القريب، وراقبته حتى انتبه إليّ.

— تبدين وكأنك تحملين خبرًا لا تعرفين إن كنت تريدين قوله.

— وهل تبدو الوجوه بهذه الوضوح دائمًا؟

— ليس دائمًا. لكن وجهك يتغير حين تحاولين إقناع نفسك بأن شيئًا ما لا يعنيك.

أشحت بنظري نحو أحواض النباتات.

— هل تعتقد أن الإنسان يستطيع أن يعرف نفسه حقًا؟

توقف عن العمل.

—لا أعرف إن كان يستطيع أن يعرفها كلها. لكن يمكنه أن يلاحظ ما يفعله، وما يكرره، وما يحاول إخفاءه حتى عن نفسه.

— وماذا لو لم يعجبه ما يراه؟

عاد إلى تقليم الأوراق.

— عندها يكون أمامه خياران: أن ينظر أكثر، أو أن يبتعد. لكن الابتعاد لا يغيّر ما رآه.

ظللت صامتة.

كنت أريد أن أسأله إن كان سيظل يحبني لو اكتشف في داخلي شيئًا لا يستطيع فهمه. أردت أن أعرف إن كان سيعاملني بالطريقة نفسها لو أخبرته أنني لم أشعر بالحزن كما ينبغي في غرفة الفحص، وأنني خرجت منها وأنا أحمل فضولًا أكبر مما دخلت به.

لكنني لم أسأله.

بدلًا من ذلك، تناولت مقص التقليم من جانبه، وبدأت أساعده في إزالة الأوراق اليابسة.

قال بعد لحظات:

— بالمناسبة، هناك شيء أريد أن أريك إياه.

رفع الصندوق الخشبي الصغير الذي رأيته قبل أسابيع، وحمله إلى الطاولة القريبة. فتحه أمامي، فكشف عن أدوات قديمة، وقوارير زجاجية، ودفاتر ذات أغلفة متآكلة.

كانت رائحة الغبار والجلد القديم تخرج منه.

تأملت محتوياته بفضول.

— أهذه الأشياء التي كنت ترتبها في الغرفة الخلفية؟

— بعضها.

رفع دفترًا، ثم أعاده إلى مكانه.

— قلتِ يومًا إنك ستكتشفين أسراري.

ابتسمت.

— ما زلت عند وعدي.

أغلق الصندوق، لكنه لم يبعده.

— ليس كل ما في هذه الحياة سرًا يستحق الكشف عنه يا رووران. بعض الأشياء مجرد آثار لأشخاص لم يعودوا هنا، وبعضها أخطاء قديمة، وبعضها أمور لا نعرف كيف نفسرها حتى لأنفسنا.

— وكيف أعرف الفرق؟

نظر إليّ نظرة هادئة.

— بأن تسألي نفسك أولًا: ماذا سأفعل بالحقيقة إن وجدتها؟

لم أجب.

لأنني، للمرة الأولى منذ بدأت أفكر في الموت، لم أكن واثقة من أنني أريد الإجابة عن هذا السؤال.

في تلك الليلة، عدت إلى غرفتي وفتحت دفتري.

كتبت في الصفحة الجديدة:

ذهبت اليوم لأتعلم كيف يترك المرض أثره في الجسد.

ثم توقفت طويلًا قبل أن أضيف:

لكنني لا أعرف إن كنت قد ذهبت من أجل المعرفة وحدها.

حدقت في الجملة، وشعرت برغبة مفاجئة في شطبها. لم أحب أن أرى شكّي مكتوبًا أمامي؛ كان من الأسهل أن يظل فكرة عابرة أستطيع إنكارها حين أشاء.

لكنني تركتها.

أغلقت الدفتر، وأطفأت المصباح.

وفي الظلام، لم أعد أفكر في الموتى بقدر ما فكرت في الفتاة التي وقفت قرب جسد غريب، واكتشفت أنها لم تكن خائفة كما توقعت.

لم أكن أعرف بعد ما الذي يعنيه ذلك.

كنت أعرف فقط أنني سأعود إلى المستشفى، وأنني سأطرح المزيد من الأسئلة.

ولم أكن مستعدة، حتى مع نفسي، للاعتراف بأن بعض الأسئلة لم تعد تمنحني المعرفة وحدها.

لقد بدأت تمنحني شيئًا آخر.

شيئًا لم أعرف له اسمًا بعد.



الفصل الخامس

الوجه الآخر للمرآة

لم أذهب إلى المستشفى في اليوم التالي.

أخبرت سيلفان أنني بحاجة إلى مراجعة السجلات التي أخذتها معي، فوافق من دون أن يسألني عن السبب. أما الحقيقة، فلم تكن لها علاقة بالسجلات؛ كنت أخشى أن أعود إلى الغرفة نفسها، وأن أجد فضولي ينتظرني هناك كما تركته.

لم أكن أخاف الجثث، وهذا ما أقلقني.

كنت أخاف أن يكون غياب الخوف في داخلي دليلًا على شيء لم أستطع تسميته.

حاولت أن أشغل نفسي بترتيب أوراق المستشفى. أمضيت الصباح أراجع الحسابات، وأقارن الأرقام، وأضع علامات على النفقات التي تحتاج إلى تفسير. وحين انتهيت، اكتشفت أنني قضيت ساعات طويلة من دون أن أفكر في الفحص إلا مرات قليلة.

كان ذلك مطمئنًا، إلى أن أدركت أنني كنت أنتظر انتهاء عملي لأعود إلى التفكير فيه.

بعد الظهيرة، وصلتني دعوة من ماريان لحضور عشاء صغير في القصر، يجتمع فيه عدد من الأشخاص الذين اعتاد أبي استقبالهم. لم تكن الدعوة قابلة للرفض بسهولة؛ فبعضهم كان من أصحاب النفوذ الذين قد نحتاج إلى مساعدتهم لإنقاذ المستشفى.

ارتديت ثوبًا أسود بسيطًا، وتركت شعري منسدلًا على كتفيّ. وقبل أن أغادر غرفتي، توقفت أمام المرآة.

بدوت كما ينبغي لابنة كاسيان أن تبدو: هادئة، أنيقة، متماسكة.

لكنني لم أستطع أن أتذكر آخر مرة نظرت فيها إلى انعكاسي من دون أن أتساءل عمّا أخفيه خلفه.

كان العشاء أقل ازدحامًا مما توقعت، لكنه لم يكن أقل إزعاجًا.

جلس الرجال حول المائدة يتحدثون عن التجارة والضرائب وأحوال المملكة، فيما راحت النساء يتبادلن أخبار العائلات والنبلاء. وحين دخلت، خفتت الأصوات للحظة، ثم عادت كما كانت، باستثناء بعض الهمسات التي لم يحاول أصحابها إخفاءها جيدًا.

كنت أعرف تلك النظرات.

لم يكن أحد منهم ينظر إليّ بوصفـي رووران فحسب. كنت ابنة رجل مات وترك خلفه ثروة مضطربة، ومستشفى يترنح، واسمًا لا يزال يثير الحذر في المجالس.

اقترب مني رجل عريض الكتفين، تجاوز الخمسين، وعرفته من إحدى صور أبي القديمة. كان اللورد فيكتور، أحد معارفه الذين لم ألتقِ بهم إلا مرات قليلة.

انحنى لي باقتضاب.

«أصبحتِ تشبهين والدك كثيرًا.»

ابتسمت مجاملة.

«يقول الناس ذلك.»

«وهل تنوين متابعة أعماله؟»

نظرت إلى المائدة قبل أن أجيبه.

«أحاول أن أفهم ما تركه لي أولًا.»

ضحك ضحكة قصيرة، كأنه وجد في إجابتي شيئًا مسليًا.

«هذا تصرف حكيم. لكن بعض الأمور لا تنتظر طويلًا، يا آنسة. المستشفى يحتاج إلى يد قوية، وليس إلى شخص يقضي وقته في مراجعة الدفاتر.»

شعرت بحرارة تصعد إلى وجهي، لكنني حافظت على ابتسامتي.

«ومن أين تقترح أن أبدأ؟»

رفع حاجبيه، وكأنه لم يتوقع أن أسأله.

«تبحثين عن شريك يملك المال والخبرة. شخص يستطيع أن يتحمل جزءًا من المسؤولية.»

«وهل تعرف شخصًا كهذا؟»

نظر إليّ لحظة، ثم ابتسم.

«أعرف رجالًا كثيرين. لكن السؤال هو: هل أنت مستعدة للتخلي عن بعض سلطتك؟»

لم أجب فورًا.

كان أبي قد علّمني أن السلطة لا تُمنح بسهولة، وأن من يسمح للآخرين بالاقتراب أكثر مما ينبغي قد يجد نفسه يومًا بلا شيء. ومع ذلك، لم يكن لديّ ما يكفي من المال أو الخبرة لأرفض كل يد تمتد إليّ.

أدركت أنني لا أستطيع إدارة المستشفى بالطريقة التي تخيلتها يومًا، وأن التمسك بصورة أبي لن يعيد إليه سلطته، ولن يعيد إليّ الشعور بالأمان الذي كنت أستمده من وجوده.

قلت أخيرًا:

«لن أتنازل عن شيء قبل أن أفهم ما الذي أتنازل عنه.»

تبدلت ملامحه قليلًا، ثم أومأ وكأنه يحترم الإجابة، وإن لم تعجبه.

حين ابتعد، شعرت بنظرات ماريان تستقر عليّ من الطرف الآخر للمائدة. لم تقترب، لكنها بدت أقل قلقًا مما كانت عليه في الأسابيع الماضية.

ربما رأت في إجابتي شيئًا من أبي.

أما أنا، فلم أكن متأكدة إن كنت قد دافعت عن نفسي، أم كررت إحدى عاداته من دون أن أشعر.

بعد العشاء، خرجت إلى الشرفة المطلة على الحديقة.

كان الهواء باردًا، والسماء ملبدة بغيوم تحجب ضوء القمر. سمعت وقع خطوات خلفي، فالتفتُّ لأجد ماريان تحمل شالًا داكنًا.

«ستصابين بالبرد.»

أخذت الشال منها ووضعته حول كتفيّ.

«أحتاج إلى بعض الهواء.»

وقفت بجانبي، وأسندت يديها إلى الحاجز الحجري.

«كنتِ جيدة الليلة.»

ابتسمت بسخرية خفيفة.

«هل كنتِ تتوقعين أن أفسد العشاء؟»

«كنت أتوقع أن تغضبي من أول شخص يشكك في قدرتك.»

نظرت إليها.

«وهل هذا ما كنتِ تريدينه؟ أن أصبح مثل أبي؟»

لم تجب بسرعة. ظلت تحدق في الحديقة، حيث تحركت أغصان الأشجار تحت الريح.

«كنت أريدك أن تكوني قادرة على حماية نفسك.»

«حتى لو كان ذلك يعني أن أعيش الحياة التي اختارها لي؟»

تنهدت.

«لم يكن والدك رجلًا سهلًا، روران. لكنه كان يؤمن بأنه يمنحك ما تحتاجين إليه.»

«كان يمنحني ما يعتقد أنني أحتاج إليه.»

«أحيانًا يكون الفرق بين الأمرين أصغر مما نظن.»

ضحكت دون مرح.

«وأحيانًا يكون الفرق هو العمر كله.»

التفتت إليّ، وفي عينيها شيء لم أعتد رؤيته. لم يكن غضبًا، ولا شفقة، بل تعبًا قديمًا.

«لا أعرف إن كان والدك قد فهمك كما ينبغي. لكنني أعرف أنه خاف عليك أكثر مما أظهر.»

أردت أن أسألها ممَّ كان يخاف، ولماذا لم يقل لي شيئًا، ولماذا كان يصر على إحاطتي بالقرارات من دون أن يشرح لي ما وراءها.

لكنني لم أفعل.

كنت قد بدأت أكتشف أن الأسئلة التي أطرحها على الآخرين لا تمنحني دائمًا الإجابات التي أريدها. وأحيانًا، تكون الإجابة بداية لمشكلة أكبر.

قالت ماريان قبل أن تعود إلى الداخل:

«لا تجعلي رغبتك في إثبات أنك مختلفة عنه سببًا يجعلك تتصرفين مثله.»

بقيت وحدي على الشرفة، أفكر في كلماتها.

لم أكن أعرف بعد أي جزء من أبي يسكنني. لم أكن أعرف إن كان إصراري على اكتشاف ما وراء الأشياء فضولًا اكتسبته بنفسي، أم عادة تعلمتها منه حين كان يرفض ترك أي أمر بلا تفسير.

لكنني بدأت أكره فكرة أن يكون هو حاضرًا في كل قرار أتخذه، حتى حين أحاول الابتعاد عنه.

في صباح اليوم التالي، عدت إلى دكان جوزيف.

وجدته جالسًا إلى طاولة صغيرة، يكتب شيئًا في دفتر قديم. كان يرتدي قميصًا رماديًا بأكمام مطوية، وقد وضع نظارته على طرف أنفه. لم يرفع رأسه حين دخلت، بل أشار إلى الكرسي المقابل.

«اجلسي. انتهيت تقريبًا.»

جلست أراقبه وهو يكتب السطر الأخير، ثم أغلق الدفتر ووضعه جانبًا.

«كيف تسير أمور المستشفى؟»

«ببطء.»

«البطء ليس دائمًا أمرًا سيئًا.»

«أعرف أنك ستقول ذلك.»

ابتسم.

«إذن بدأتِ تتعلمين.»

أخرجت من حقيبتي بعض الأوراق التي كنت قد رتبتها، وشرحت له ما توصلت إليه. استمع إليّ، ثم أشار إلى بندين في الحسابات لم أنتبه إلى ارتباطهما.

لم يحاول أن يعطيني الحل، بل جعلني أعود إلى السجلات وأبحث عن السبب بنفسي. وحين اكتشفته، شعرت برضا صغير لم أشعر به منذ وفاة أبي.

لم يكن انتصارًا كبيرًا، لكنه كان أول شيء أصلحه بيدي، من دون أن أحتاج إلى أن أخبر نفسي أنني وُلدت لأفعله.

بعد أن انتهينا، ساعدته في نقل بعض الصناديق إلى الرفوف الخلفية. وبينما كنت أضع أحدها في مكانه، لاحظت أن باب الغرفة الصغيرة التي كان يرفض السماح لي بدخولها مفتوح قليلًا.

لم أتعمد النظر، لكن عينيّ وقعتا على رفوف مليئة بالكتب، وأدوات معدنية قديمة، وقوارير زجاجية متفاوتة الأحجام. كانت هناك طاولة في الوسط، وفوقها أوراق موزعة بعناية.

توقفت يدي.

لاحظ جوزيف ذلك.

«إن كنتِ تتساءلين، نعم، ما زلت أرتبها.»

«يبدو أنك ترتبها منذ أشهر.»

«بعض الفوضى تحتاج إلى وقت.»

نظرت إليه مبتسمة.

«أم أنك تخشى أن أكتشف شيئًا؟»

أغلق الصندوق الذي كان يحمله، ثم وقف أمام الباب.

«كل ما في الغرفة يمكن تفسيره، يا روران. لكن تفسير الشيء لا يعني أنك ستفهمين سبب احتفاظي به.»

«هذا لا يمنعني من الرغبة في رؤيته.»

«أعرف.»

قالها بهدوء، من دون سخرية أو توبيخ.

ثم أضاف:

«وسأسمح لك بدخولها حين أنتهي من ترتيبها. لكنني أريد منك وعدًا واحدًا.»

عقدت ذراعيّ.

«وما هو؟»

«إذا رأيتِ شيئًا لا تفهمينه، فلا تلمسيه قبل أن تسأليني.»

نظرت إليه، ثم إلى الغرفة.

كان بإمكاني أن أعده بسهولة، وأن أقول ما يريد سماعه، ثم أفعل ما أراه مناسبًا لاحقًا. لكنني تذكرت كيف كان ينظر إليّ حين أتهرب من الاعتراف بجهلي.

فقلت:

«أعدك أن أسألك.»

مد يده، كأنه يصافحني على اتفاق بين شخصين بالغين.

صافحته، ثم سألته:

«هل ستجيبني بصدق؟»

«سأجيبك بقدر ما أعرف.»

«وهل ستخبرني إن كنت لا تريد الإجابة؟»

ابتسم.

«سأحاول ألا أكذب عليك.»

لم يكن ذلك الوعد الذي توقعته، لكنه كان أقرب إلى الصدق من أي وعد كامل.

في طريق عودتي، توقفت أمام واجهة متجر قديم لبيع الكتب.

لم أكن أبحث عن شيء محدد، لكن عنوانًا على غلاف داكن جذب انتباهي. كان الكتاب يتناول تاريخ الطب في المملكة، وطرق التعرف إلى الأمراض التي لم يستطع الأطباء تفسيرها في حياة المرضى.

دخلت واشتريته.

حين وصلت إلى غرفتي، وضعته على المكتب إلى جانب دفاتر المستشفى. بقيت أنظر إلى الكتاب طويلًا، ثم فتحته وبدأت القراءة.

لم يكن الأمر كما تخيلت. معظم الصفحات تحدثت عن الملاحظات الطبية القديمة، وعن أخطاء الأطباء الذين استنتجوا أسبابًا غير صحيحة للأمراض، وعن محاولات متكررة لتصحيح ما اعتقد الناس أنهم يعرفونه.

لكن بعض الفقرات جعلتني أتوقف وأعيد قراءتها.

كان أكثر ما أثار اهتمامي أن الإنسان قد يموت، بينما يظل سبب موته مجهولًا، وأن الحقيقة لا تظهر دائمًا لمن يبحث عنها بجدية، بل لمن يعرف كيف يميز بين الدليل والتخمين.

أغلقت الكتاب، وفتحت دفتري.

كتبت:

ليس كل ما أجهله سرًا، وليس كل سر يستحق أن أفتحه.

ثم أضفت بعد تردد:

لكن كيف أميز بين الرغبة في المعرفة والرغبة في امتلاك ما أعرفه؟

لم أجد جوابًا.

في الخارج، بدأ المطر يهطل على زجاج النافذة، فجلست أراقب قطراته وهي تتسابق نحو الحافة. تذكرت أبي، وجوزيف، والغرفة المغلقة، والرجل الذي لم أستطع أن أتذكر ملامحه كما ينبغي.

كان لكل واحد منهم مكان مختلف في حياتي.

أبي أراد أن يرسم لي الطريق.

وجوزيف ترك لي حرية اختيار الطريق، لكنه طلب مني أن أنتبه إلى نفسي وأنا أسير فيه.

أما أنا، فلم أكن أعرف بعد إن كنت أبحث عن طريقي فعلًا، أم أبحث عن شيء آخر أستطيع أن أضع عليه اسمًا وأقنع نفسي بأنني فهمته.

في تلك الليلة، لم أكتب سؤالًا جديدًا.

أغلقت الدفتر، وأطفأت المصباح، وتركت النافذة مواربة قليلًا كي يدخل الهواء البارد.

لم أكن أعرف أنني سأعود قريبًا إلى المستشفى، وأن بعض ما سأراه هناك سيبقى في ذاكرتي أطول مما ينبغي.

كنت أظن أنني أتعلم كيف أفهم العالم.

ولم أكن قد أدركت بعد أن فهم العالم شيء، وأن تعرف ما الذي يوقظه في داخلك شيء آخر تمامًا.....



أحيانًا، لا يكون الخوف فيما نراه... بل فيما نكتشفه داخلنا.

الفصل السادس

الرجل الذي عاد من الموت

لم يكن الصباح مختلفًا عن سابقيه، لكنني شعرت منذ استيقاظي أن شيئًا ما ينتظرني خارج القصر.

لم يكن حدسًا أستطيع تفسيره، بل ضيقًا خفيفًا رافقني منذ فتحت عينيّ، وجعلني أتعامل مع الأشياء الصغيرة بنفاد صبر. انسكب الشاي على طرف المائدة، فتركت الخادمة تنظفه دون أن أعتذر عن نبرتي الحادة. وحين أخطأت في ترتيب أوراق المستشفى، ألقيت القلم بعيدًا، ثم جلست أحدق فيه كأن القلم هو المسؤول عن عجز يزداد وضوحًا في داخلي.

كنت أكره الأيام التي لا أعرف سبب انزعاجي فيها.

فحين أعرف السبب، أستطيع أن أكرهه، أو أقاومه، أو أبحث عن طريقة للتخلص منه. أما ذلك الشعور الغامض، فلا يمنحني شيئًا أواجهه سوى نفسي.

وصلت إلى المستشفى قبل الظهر بقليل.

استقبلني سيلفان في الممر المؤدي إلى غرف العلاج، وكانت ملامحه أكثر جدية من المعتاد.

«أحتاج إلى مساعدتك في أمر.»

توقفت.

«هل حدث شيء؟»

«وصلنا مريض في حالة سيئة الليلة الماضية. حاولنا إنقاذه، لكنه توفي قبل الفجر.»

خفضت عينيّ للحظة.

لم تكن أخبار الموت نادرة في المستشفى، ومع ذلك بقيت هناك مسافة غريبة بين سماع الخبر ووجوده أمامي. كنت أعرف أن المرضى يموتون، وأن الأطباء يفشلون أحيانًا مهما حاولوا، لكنني لم أعتد أن أكون

قريبة من اللحظة التي يتحول فيها شخص كان يتنفس إلى اسم في سجل.

تابع سيلفان:

لا نعرف السبب الدقيق لتدهور حالته. كانت الأعراض متداخلة، وهناك تناقض بين ما أخبرنا به مرافقوه وما وجدناه عند وصوله.»

«هل أُجري له فحص؟»

«ليس بعد. نحتاج أولًا إلى استكمال الإجراءات، والتواصل مع أسرته.»

هززت رأسي، ثم سألته:

«وهل تريد مني أن أحضر؟»

تأملني قليلًا قبل أن يجيب.

«أريدك أن تتعلمي، لكنني لن أطلب منك الحضور لمجرد أنك تستطيعين تحمّل المشهد. إن قررتِ الحضور، فعليك أن تعرفي لماذا أنت هناك.»

كانت كلماته تشبه كلمات جوزيف، وهذا ما جعلني أنزعج منها أكثر مما ينبغي.

لم أحب أن أشعر بأن الجميع بدأوا يراقبون شيئًا في داخلي لا أستطيع رؤيته.

قلت ببرود:

«أنا هنا لأتعلم الطب، أليس كذلك؟»

لم يجادلني.

«إذن تعالي عندما تكونين مستعدة للتعلم، لا عندما تشعرين بأن عليك إثبات شيء لأحد.»

تركني في الممر ومضى.

بقيت أنظر إلى المكان الذي اختفى فيه، ثم تابعت طريقي إلى مكتبي.

لم أذهب إلى غرفة الفحص ذلك اليوم.

لكنني لم أنسَ الرجل الذي مات.

بعد يومين، ذهبت إلى دكان جوزيف في وقت أبكر من المعتاد.

وجدته يفرز حزم الأعشاب فوق طاولة طويلة، وإلى جانبه سلة مليئة بأزهار صغيرة جفّت أطراف بعضها. كان الضوء يدخل من النافذة الأمامية، فيكشف الغبار العالق في الهواء.

خلعت معطفي ووضعته على الكرسي، ثم بدأت أساعده دون أن أطلب الإذن.

راقبني للحظات قبل أن يقول:

«يبدو أنك جئتِ لتعملي اليوم، لا لتشتكي.»

«هل تفضّل أن أشتكي؟»

«أفضل أن أعرف ما الذي يزعجك، حتى لو كان ذلك يعني أن أسمع شكواك.»

توقفت عن فرز الأوراق.

«هل تظن أنني لا أعرف ما الذي أفعله؟»

وضع الحزمة التي يحملها جانبًا.

«لم أقل ذلك.»

«لكنك تتصرف أحيانًا كأنك تنتظر مني أن أخطئ.»

نظر إليّ طويلًا، ثم سحب كرسيًا وجلس.

«رووان، أنا لا أنتظر منك أن تخطئي. لكنني لن أقول لك إن كل ما تفعلينه صحيح لمجرد أنك تريدين سماع ذلك.»

أشحت بوجهي.

كنت أعرف أنني أظلمه، لكنني لم أستطع التوقف. كان هناك شيء في هدوئه يجعل غضبي يبدو سخيفًا، وكأنني أرفع صوتي أمام باب مغلق لا ينوي الدخول في شجار معي.

قال:

«ماذا حدث في المستشفى؟»

أخبرته عن الرجل الذي مات، وعن حديثي مع سيلفان، وعن الطريقة التي شعرت بها حين طلب مني أن أفكر في سبب حضوري قبل أن أذهب إلى غرفة الفحص.

استمع دون مقاطعة.

وحين انتهيت، سألني:

«هل أردتِ الذهاب لأنك أردتِ مساعدة الطبيب على فهم ما حدث، أم لأنك لم تحبي أن يخبرك أحد بأن عليك الانتظار؟»

رفعت رأسي بسرعة.

«هذا ما أسألك عنه.»

لم أجد جوابًا.

عدت إلى الأعشاب، وبدأت أفرزها بعناية مبالغ فيها.

بعد قليل، جلس جوزيف إلى جانبي ومدّ لي غصنًا صغيرًا.

«هل تعرفين ما هذا؟»

تفحصته.

«إكليل الجبل.»

«صحيح. وكيف تعرفين أنه ليس غصنًا من نبات آخر يشبهه؟»

أشرت إلى شكل الأوراق ورائحتها.

ابتسم.

«جيد. أنت لا تكتفين بالاسم، بل تبحثين عن العلامات التي تثبته.»

ثم أخذ الغصن من يدي ووضعه في السلة.

«افعلي الشيء نفسه مع نفسك لا تحكمي على ما تشعرين به من خلال الاسم الذي تعطينه له. انظري إلى ما تفعلينه، وإلى الأسباب التي تدفعك، وإلى ما يتكرر منك.»

أزعجتني المقارنة، لكنني لم أستطع إنكار أنها أصابت موضعًا حساسًا.

سألته بعد صمت:

«وهل يمكن للإنسان أن يكتشف شيئًا في نفسه، ثم يقرر ألّا يصبحه؟»

«بالطبع.»

«حتى لو كان ذلك الشيء جزءًا منه؟»

أجاب بهدوء:

أجاب بهدوء:

«ليس كل ما نجده في أنفسنا قدرًا علينا أن نطيعه.»

احتفظت بالجملة في ذهني، رغم أنني لم أخبره بذلك.

في الأسبوع التالي، تغيرت وتيرة حياتي قليلًا.

بدأت أزور المستشفى بانتظام أكبر، وأرافق سيلفان في بعض جولاته، وأقرأ الكتب التي نصحني بها. لم أكن أتعلم الطب بسرعة، لكنني صرت أميز بين ما أفهمه وما أتظاهر بفهمه، وصرت ألاحظ كم من القرارات التي كنت أظنها بديهية تحتاج إلى معرفة لم أكن أملكها.

أما جوزيف، فقد بدأ يسمح لي بمساعدته في تحضير بعض المستحضرات البسيطة، ويشرح لي كيف يختار النباتات، وكيف يفرق بين ما يصلح للاستعمال وما ينبغي تجنبه. لم يكن يعلمني وصفات فحسب؛ كان يجعلني ألاحظ أن الطبيعة لا تقدم شيئًا بمجرد النظر إليه، وأن التشابه قد يخدع من يظن أن عينيه تكفيانه.

وفي إحدى الأمسيات، بينما كنا نغلق الدكان، دخل رجل لم أره من قبل.

كان في أواخر الثلاثينيات، نحيلًا، يرتدي معطفًا بنيًا متسخ الأطراف، وعلى وجهه ندبة صغيرة قرب الحاجب الأيسر. نظر حوله بحذر، ثم اقترب من المنضدة.

«أحتاج إلى شيء يساعدني على النوم.»

سأله جوزيف عن الأعراض التي يعانيها، ومنذ متى بدأت، وما إذا كان يتناول أدوية أخرى. أجاب الرجل باقتضاب، وكان واضحًا أنه يريد إنهاء الحديث بأسرع وقت.

راقبته بصمت.

لم يكن في مظهره ما يستدعي الشك، لكن عينيه كانتا تتحركان باستمرار نحو الباب، كأنه ينتظر شخصًا أو يخشى أن يدخل أحد.

بعد أن انتهى جوزيف من الحديث معه، دفع الرجل ثمن ما اشتراه، ثم غادر بسرعة.

«إنه متوتر.»

أعاد جوزيف النقود إلى الصندوق.

«ربما.»

«ألا تريد أن تعرف السبب؟»

نظر إليّ.

«ليس كل توتر دليلًا على جريمة، وليس كل شخص متردد مدينًا لنا بتفسير.»

لم يعجبني جوابه، لكنني سكتُّ.

كنت قد بدأت ألاحظ أنني لا أتحمل الغموض بسهولة. إذا رأيت شخصًا يخفي شيئًا، أردت أن أعرفه. وإذا سمعت قصة ناقصة، بحثت عن الجزء المفقود. لم يعد الأمر مقتصرًا على الكتب أو المستشفى؛ صار يمتد إلى الناس، إلى صمتهم، وإلى الطريقة التي يتجنبون بها بعض الأسئلة.

وكانت هذه الرغبة تمنحني شعورًا بالقوة.

فأنا، التي قضيت سنوات أعيش وفق قرارات أبي، بدأت أجد متعة في أن أكون الشخص الذي يطرح الأسئلة بدلًا من أن يتلقى الأوامر.

لم أفكر كثيرًا في الفرق بين أن أبحث عن الحقيقة، وأن أعتقد أن من حقي معرفة كل شيء.

بعد عدة أيام، عدت إلى القصر متأخرة، فوجدت رسالة تنتظرني على مكتبي.

كان الختم يعود إلى المستشفى، والخط في أسفلها خط سيلفان.

فتحتها بسرعة.

كتب أن أسرة الرجل الذي توفي قبل أيام وافقت على استكمال الفحص، وأن النتائج الأولية لم تحسم سبب الوفاة، لكنها أظهرت أن بعض المعلومات التي قدمها مرافقوه لم تكن دقيقة. لم يذكر تفاصيل كثيرة، بل طلب مني الحضور في اليوم التالي إن كنت أرغب في مراجعة الملف الطبي معه.

قرأت الرسالة مرتين.

ثم وضعتها على المكتب، وجلست.

كان بإمكاني أن أعتذر. لم يكن حضوري ضروريًا، ولم أكن أملك الخبرة التي تسمح لي بالمساهمة في استنتاج طبي. لكن فكرة أن هناك ملفًا ناقصًا، وحقيقة لم تتضح بعد، جعلتني أشعر بأنني لن أرتاح حتى أعرف ما حدث.

نهضت، وأخذت الرسالة، ثم فتحت الدرج الذي أحتفظ فيه بدفتري.

كتبت على الصفحة الأولى:

«ما الذي أبحث عنه؟»

تأملت السؤال طويلًا.

ثم كتبت تحته:

«الحقيقة.»

توقفت، وأضفت:

«ولماذا أريدها؟»

هذه المرة، لم أكتب شيئًا.

في صباح اليوم التالي، ذهبت إلى المستشفى.

كان سيلفان ينتظرني في مكتبه، وأمامه ملف المريض. شرح لي ما عرفه الأطباء حتى الآن، وأوضح أن بعض المعلومات المتضاربة جعلت من الصعب الوصول إلى استنتاج موثوق.

استمعت إليه، ودوّنت ملاحظاتي، وسألته عن الأمور التي لم أفهمها. لم تكن هناك إجابة مثيرة، ولا اكتشاف مفاجئ. كان العمل بطيئًا، يعتمد على المقارنة والتحقق، وعلى قبول احتمال ألا يصل المرء إلى نتيجة نهائية.

لكنني لم أشعر بالملل.

على العكس، وجدت نفسي أركز أكثر كلما ظهرت معلومة جديدة، وأعود إلى الأوراق كلما بدا أن تفصيلًا صغيرًا قد يغير فهمنا لما حدث.

في نهاية الجلسة، أغلق سيلفان الملف.

«هذا يكفي اليوم.»

نظرت إلى الأوراق أمامي.

«لكننا لم نصل إلى نتيجة.»

«ليس علينا أن نصل إليها اليوم.»

«وماذا لو لم نصل إليها أبدًا؟»

أجاب دون تردد:

«عندها يجب أن نقبل أننا لا نعرف.»

شعرت بخيبة أمل حادة.

لم تكن خيبة الأمل بسبب الرجل الذي مات، ولا بسبب أسرته، بل لأنني لم أحب فكرة أن ينتهي البحث دون أن أحصل على جواب.

لم أكن أريد أن يلاحظ سيلفان شيئًا.

لكنه قال قبل أن أغادر:

«هناك فرق بين أن تحزنك الحقيقة، وأن يزعجك ألا تملكيها.»

تجمدت يدي فوق مقبض الباب.

لم ألتفت إليه.

خرجت من المكتب، ومشيت في الممر الطويل حتى وصلت إلى النافذة المطلة على الساحة الداخلية. كان بعض المرضى يجلسون تحت الأشجار، وكانت ممرضة تساعد رجلًا مسنًا على النهوض من مقعده.

بدوا بعيدين عن الأسئلة التي كانت تملأ رأسي.

راقبتهم طويلًا، ثم أخرجت دفتري وكتبت:

«ربما لا أريد أن أعرف الحقيقة فحسب. ربما أريد أن أكون الشخص الذي يستطيع الوصول إليها.»

قرأت الجملة، وشعرت بانقباض في صدري.

للمرة الأولى، بدا لي أن رغبتي في المعرفة قد تخفي رغبة أخرى، رغبة في ألا أكون عاجزة مرة ثانية، وألا أجد نفسي أمام شيء لا أستطيع تفسيره أو السيطرة عليه.

أغلقت الدفتر.

لم أكن مستعدة للاعتراف بذلك أمام جوزيف، ولا أمام سيلفان، ولا حتى أمام نفسي.

لكنني بدأت أفهم أن بعض الأسئلة لا تكشف العالم وحده

إنها تكشف الشخص الذي يطرحها أيضًا.

وفي تلك اللحظة، لم أكن أعرف أيهما أخطر: أن أكتشف شيئًا لا أستطيع تحمله، أم أن أكتشف أنني أحببت البحث عنه أكثر مما ينبغي

الفصل السابع

ما تركه أبي خلف الباب

في الليلة التي تلت زيارتي للمستشفى، حلمت بأبي للمرة الأولى منذ أسابيع.

لم يكن الحلم مخيفًا، ولم يظهر فيه شاحبًا أو ممددًا في تابوته كما رأيته في جنازته. كان واقفًا في مكتبه القديم، يرتدي سترته السوداء، ويقلّب صفحات كتاب سميك فوق مكتبه. بدا كما عرفته دائمًا؛ مستقيم الظهر، هادئ الملامح، وكأن العالم بأسره ينتظر منه أن ينطق بكلمة واحدة ليعرف ما ينبغي له فعله.

كنت أقف عند الباب، أنتظر أن يرفع رأسه.

لكنه لم يفعل.

قلت له إنني جئت لأتحدث معه، وإن هناك أشياء كثيرة لم أفهمها، وإنني تعبت من محاولة أن أكون الابنة التي أرادها.

ظل يقلب الصفحات.

اقتربت منه، ومددت يدي لأغلق الكتاب، لكنه رفع عينيه إليّ أخيرًا.

لم يكن غاضبًا، ولم يكن حزينًا.

قال فقط:

«ألم أقل لكِ إنك ستفهمين يومًا؟»

ثم عاد إلى القراءة.

استيقظت قبل الفجر، وقلبي يخفق بعنف.

جلست على السرير، أراقب الظلال الممدودة فوق الجدران، وأحاول أن أستعيد بقية الحلم. لم أستطع. كلما حاولت تذكر وجه أبي، وجدت نفسي أستحضر صوته بدلًا منه، ذلك الصوت الذي اعتدت أن أطيعه قبل أن أفكر في معنى ما يقوله.

كرهت الحلم لأنه أعاد إليّ شعورًا ظننت أنني تخلصت منه.

وكرهت نفسي لأن جزءًا مني كان لا يزال ينتظر موافقته.

في الصباح، طلبت من ماريان أن تفتح لي مكتب أبي.

لم أدخله منذ وفاته إلا مرات قليلة، وكلما اضطررت إلى مراجعة أحد الملفات. كان المكان يحتفظ برائحته أكثر من بقية القصر، خليطًا من الورق القديم والتبغ وخشب الأثاث المصقول. حتى الستائر الثقيلة بدت وكأنها لم تتحرك منذ آخر مرة جلس فيها خلف مكتبه.

وقفت عند العتبة طويلًا.

قالت ماريان من خلفي:

«هل تريدين أن أبقى معك؟»

هززت رأسي.

لا. أريد أن أبحث وحدي.»

ترددت قليلًا، ثم ناولتني المفتاح.

«إذا احتجتِ إلى شيء، سأكون في الطابق السفلي.»

دخلت وأغلقت الباب.

كان مكتب أبي واسعًا، تتوزع على جدرانه رفوف الكتب، وفي الجهة المقابلة نافذة تطل على الحديقة الغربية. خلف المكتب الكبير، بقي الكرسي الجلدي في مكانه، وإلى جانبه طاولة صغيرة اعتاد أن يضع فوقها الرسائل التي لا يريد أن يراها أحد.

بدأت بالأدراج.

وجدت سجلات مالية، ورسائل من موردين، ودعوات رسمية، وبعض الملاحظات المكتوبة بخطه الحاد. لم يكن بينها ما يفسر القرارات التي أضعفت المستشفى، ولا ما يساعدني على فهم الرجل الذي عاش معي سنوات طويلة من دون أن أشعر أنني أعرفه حقًا.

كلما فتحت درجًا، وجدت دليلًا على حياته العملية، لا على حياته الداخلية.

كأن أبي لم يكن إنسانًا له شكوك ومخاوف وأخطاء، بل مؤسسة ضخمة تتكون من حسابات وأوامر وتوقيعات.

كدت أستسلم حين لاحظت أن أحد الأدراج لا ينغلق تمامًا.

سحبته، فوجدت في داخله مجموعة من الرسائل مربوطة بشريط أسود. كانت معظمها قديمة، وبعضها يحمل أختامًا لم أتعرف إليها. أخرجتها واحدة تلو الأخرى، حتى وصلت إلى ظرف بلا اسم.

لم يكن مختومًا، ولم يُكتب على وجهه سوى تاريخ يعود إلى ما قبل وفاة أبي بأشهر قليلة.

فتحته.

كانت بداخله ورقتان.

الأولى تتضمن قائمة قصيرة بأسماء أشخاص ومبالغ مالية، ولم أفهم علاقتها ببعضها. أما الثانية فكانت رسالة مكتوبة بخط أبي، لكنها لم تكن موجهة إلى أحد.

قرأت السطور الأولى ببطء.

«لقد أصبح من الصعب الاحتفاظ بكل شيء تحت السيطرة. يظن بعضهم أن المال يمنح صاحبه القدرة على شراء الصمت، لكن الصمت نفسه قد يتحول إلى عبء حين يطول أكثر مما ينبغي.»

توقفت.

لم تكن الرسالة اعترافًا، ولا تفسيرًا واضحًا لأي شيء. كانت أقرب إلى ملاحظات رجل يكتب لنفسه، يحاول أن يرتب أفكاره بعيدًا عن أعين الآخرين.

تابعت القراءة.

«هناك أمور كان ينبغي أن أتعامل معها منذ وقت طويل. وربما كان أكبر أخطائي أنني ظننت أن تأجيلها سيجعلها أقل خطرًا.»

لم أجد بقية الصفحة.

كانت الرسالة تنتهي هنا، من دون توقيع أو توضيح.

قلبت الورقة، وبحثت عن كتابة أخرى، لكن ظهرها كان فارغًا.

شعرت بخيبة أمل. كنت قد توقعت أن أجد شيئًا يفتح أمامي بابًا واضحًا، فإذا بي أمام كلمات غامضة تشبه نصف إجابة، ونصف اعتراف، ونصف تحذير.

ثلاثة أنصاف لا تصنع حقيقة كاملة.

أعدت قراءة الرسالة، ثم وضعتها في الظرف.

لم أكن أعرف ما الذي قصده أبي بالأمور التي أجّلها، ولا من الأشخاص الذين كان يخشى صمتهم. لكنني لم أستطع تجاهل شعوري بأن الرسالة تحمل شيئًا لم أره بعد.

احتفظت بها في حقيبتي، وأغلقت الأدراج.

وقبل أن أغادر، التفتُّ إلى الكرسي خلف المكتب.

للحظة، تخيلت أبي جالسًا هناك، يراقبني وأنا أفتش في أوراقه، وربما يبتسم لتلك الجرأة التي لم يسمح لي بممارستها في حياته.

لكن الكرسي بقي فارغًا.

وللمرة الأولى، لم أتمنَّ أن يعود.

تمنيت فقط لو أنه ترك لي تفسيرًا واحدًا صادقًا، بدلًا من كل هذه الأشياء التي أجبرتني على تخمين معناها.

ذهبت إلى جوزيف في المساء، وكنت أحمل الرسالة معي.

وجدته في الحديقة الخلفية، يصلح سياجًا خشبيًا قصيرًا أحاط به بعض أحواض النباتات. كان قد خلع سترته، ورفع أكمامه، وعلى جبينه قطرات عرق رغم برودة الجو.

حين رآني، وضع المطرقة جانبًا.

«ما الذي حدث؟»

أخرجت الرسالة من حقيبتي.

«وجدت هذا في مكتب أبي.»

قرأها مرتين، ثم أعادها إليّ.

«هل تعرفين إلى ماذا تشير؟»

لا. لهذا أحضرتها إليك.»

جلس على حافة المقعد الحجري، وأشار إليّ أن أجلس.

لا أستطيع أن أخبرك بما لا أعرفه.»

«لكن ألا تظن أنها مهمة؟»

«أظن أن والدك كان قلقًا بشأن أمر ما. أما طبيعة ذلك الأمر، فلا يمكنني استنتاجها من هذه الكلمات وحدها.»

تضايقت من جوابه.

«أنت دائمًا تطلب مني ألّا أتسرع في الحكم، لكنك لا تساعدني على الوصول إلى شيء.»

نظر إليّ بهدوء.

«هل تريدين مني أن أخترع لك إجابة حتى تشعري بأنك اقتربتِ من الحقيقة؟»

سكتُّ.

أعاد الرسالة إليّ، ثم تابع:

«أعرف أنك تريدين أن تفهمي ما حدث لوالدك، وأن تعرفي لماذا ترك لك كل هذه الأمور المعلقة. لكن لا تجعلي حاجتك إلى الإجابة تدفعك إلى تصديق أول تفسير يعجبك.»

خفضت عينيّ إلى الورقة.

«أحيانًا أشعر أنني لم أكن أعرفه أصلًا.»

لم يجب فورًا.

كان صوت الريح يحرك الأغصان فوقنا، ومن مكان قريب وصلت رائحة التراب الرطب بعد سقاية الحديقة.

قال أخيرًا:

«ربما كنتِ تعرفين جانبًا منه، ولم تعرفي الجوانب الأخرى. هذا يحدث حتى بين الأشخاص الذين يعيشون معًا طوال العمر.»

«وهل يعني ذلك أنني كنت مخطئة حين وثقت به؟»

لا. الثقة لا تعني أن تعرفي كل شيء عن شخص آخر. لكنها لا تعني أيضًا أن تتجاهلي ما تكتشفينه عنه.»

طويت الرسالة وأعدتها إلى حقيبتي.

لم تكن لديّ رغبة في مواصلة الحديث عن أبي. كنت قد أمضيت سنوات أعيش داخل أحلامه، ثم أمضيت الأسابيع الماضية أحاول التحرر منها. ولم أكن أريد أن يتحول البحث عن حقيقة موته إلى طريقة جديدة أبقى بها أسيرة له.

قلت:

«أريد أن أعيش شيئًا يخصني، يا جوزيف. شيئًا لا يكون امتدادًا لحياته، ولا ردًّا عليها.»

نظر إليّ، وكانت في عينيه ابتسامة صغيرة.

«إذن ابدئي باختيار شيء لأنك تريدينه، لا لأنك تريدين إثبات شيء لأحد.»

«مثل ماذا؟»

أشار إلى الأحواض الممتدة على طول السياج.

«اختاري نباتًا، واعتني به حتى ينمو.»

حدقت فيه غير مصدقة.

«هذا هو اقتراحك العظيم؟»

ضحك.

«كنت أتوقع اعتراضًا أكثر إبداعًا.»

لم أتمالك نفسي من الضحك. كان ضحكي قصيرًا، لكنه حقيقي، وشعرت للحظة أنني عدت إلى الفتاة التي كنتها قبل أن يصبح كل شيء ثقيلًا.

اخترت حوضًا صغيرًا قرب الجدار، غرست فيه بعض البذور التي أعطاني إياها، ثم سقيت التراب بيدي.

لم يكن في الأمر شيء استثنائي.

لكنني، وأنا أراقب الماء يتسرب بين حبيبات التربة، شعرت للمرة الأولى منذ وفاة أبي أنني لا أحاول إصلاح شيء مكسور، ولا أبحث عن تفسير لشيء غامض، ولا أحاول أن أثبت أنني قادرة على تحمل ما لا يتحمله الآخرون.

كنت أفعل شيئًا بسيطًا، لأنني أردت فعله.

وكان ذلك كافيًا لتلك الليلة.

بعد أيام، وصل إلى المستشفى رجل يبحث عني.

كان يرتدي معطفًا رماديًا أنيقًا، ويحمل عصًا ذات مقبض فضي. أخبرني الموظف عند الاستقبال أنه لم يذكر اسمه، لكنه أصر على مقابلتي شخصيًا.

وجدته ينتظر في غرفة الضيوف.

حين دخلت، نهض وانحنى باحترام.

«الآنسة روران، أعتذر عن حضوري دون موعد.»

جلست قبالته.

«لا بأس. من أنت؟»

أخرج بطاقة صغيرة من جيبه ووضعها أمامي.

كان اسمه اللورد إدوارد هال، أحد النبلاء الذين تربطهم علاقات قديمة بالقصر الملكي. لم ألتقِ به من قبل، لكنني رأيت اسمه في بعض سجلات أبي.

قال:

«عرفت والدك لسنوات. سمعت أن المستشفى يمر بظروف صعبة، وأردت أن أقدم لك عرضًا قد يساعدك.»

انتبهت إلى كلماته.

«أي نوع من العروض؟»

«تمويل مؤقت مقابل حصة من إدارة المستشفى. لن أتدخل في شؤون العلاج، لكنني أستطيع توفير المال اللازم لتسديد الديون واستعادة ثقة الموردين.»

كان العرض مغريًا، وربما أكثر مما ينبغي.

لم أكن قد وصلتِ إلى حل نهائي، وكان كل يوم يمر يجعل مسؤولياتي أثقل. ومع ذلك، لم أُظهر حماسي.

«ولماذا تريد مساعدتي؟»

ابتسم الرجل.

«لأن المستشفى مؤسسة مهمة، ولأن والدك كان رجلًا ذا مكانة. ومن مصلحتي أن تبقى المؤسسات التي بناها قائمة.»

«هل كانت علاقتك بأبي جيدة؟»

تبدلت ابتسامته قليلًا.

«كانت علاقة عمل، في معظمها.»

«وهل كانت هناك خلافات بينكما؟»

نظر إليّ لثوانٍ قبل أن يجيب.

«الخلافات أمر طبيعي بين الرجال الذين يديرون مصالح كبيرة.»

لم يكن جوابه كافيًا، لكنه لم يكن دليلًا على شيء أيضًا.

طلبت منه أن يترك لي نسخة من العرض، ووعدته بأن أراجعه قبل الرد. لم يضغط عليّ، بل نهض واستعد للمغادرة.

وقبل أن يصل إلى الباب، التفت إليّ.

«هناك نصيحة أود أن أقدمها لك، إن سمحتِ لي.»

انتظرت.

لا تحاولي أن تفهمي كل ما يتعلق بوالدك دفعة واحدة. بعض الملفات القديمة قد تفتح أبوابًا لا تحتاجين إليها الآن.»

تجمدت أصابعي فوق الورقة التي كنت أمسكها.

لم أكن قد أخبره أنني فتشت مكتب أبي، ولا أنني وجدت رسالة غامضة.

ربما كانت نصيحته عامة، وربما عرف شيئًا عن طبيعة خلافات أبي القديمة.

لكنني لم أستطع منع نفسي من سؤاله:

«هل تقصد أمرًا محددًا؟»

أجاب بسرعة لم تعجبني:

لا. مجرد نصيحة.»

ثم غادر.

بقيت واقفة في مكاني، أنظر إلى الباب الذي أغلقه خلفه.

لم أكن أملك سببًا لاتهامه بالكذب، ولم يكن لديّ ما يثبت أن زيارته مرتبطة برسالة أبي. ومع ذلك، شعرت بأنني عدت إلى النقطة نفسها: رجل يقول أقل مما يعرف، ويترك لي ما يكفي من الكلمات لأقضي ساعات في محاولة فهم ما لم يقله.

جلست إلى المكتب، وأخرجت الرسالة من حقيبتي.

قرأت السطر الأخير مرة أخرى.

وربما كان أكبر أخطائي أنني ظننت أن تأجيلها سيجعلها أقل خطرًا.

لم أعد أراها مجرد كلمات كتبها رجل قلق.

صرت أراها بداية سؤال لا أعرف إن كنت أريد طرحه.

من الذي كان أبي يخشاه؟

ولماذا بدا أن بعض الأشخاص، حتى بعد موته، يفضلون أن تبقى الأمور التي تركها مدفونة؟

أعدت الرسالة إلى الظرف، ثم وضعتها في الدرج وأغلقته.

لم أكن مستعدة لاتخاذ قرار بشأن عرض اللورد هال، ولم أكن مستعدة لفتح كل الملفات التي تركها أبي.

لكنني عرفت شيئًا واحدًا.

لقد انتهت الأيام التي كنت أستطيع فيها تجاهل ماضيه بحجة أنني أريد بناء مستقبلي.

فالماضي، مهما حاولت الابتعاد عنه، كان قد بدأ يجد طريقه إليّ.

الفصل الثامن

ما لا تقوله الرسائل

لم أنم جيدًا في تلك الليلة.

كان عرض اللورد هال موضوعًا منطقيًا، وربما كان الحل الذي احتجت إليه منذ أسابيع، لكن نصيحته الأخيرة ظلت تثير في داخلي انزعاجًا لا أستطيع تجاهله. لم يكن في كلامه ما يكفي لاتهامه بشيء، ومع ذلك لم أستطع أن أتعامل معه كما تعاملت مع بقية الرجال الذين جاؤوا يعرضون المساعدة.

كان يعرف أبي، ويعرف أن المستشفى يمر بأزمة، ويبدو أنه يعرف أيضًا أن وراء وفاة كاسيان أمورًا لم تُحسم بعد.

لكن ماذا كان يعرف تحديدًا؟

أخرجت الرسالة من الدرج ووضعتها أمامي، ثم أحضرت ورقة فارغة وبدأت أكتب أسماء الأشخاص الذين وردوا في سجلات أبي، إلى جانب أسماء الرجال الذين زاروني منذ وفاته. لم أكن أملك دليلًا يربط بينهم، ولم تكن لديّ رغبة في اختراع صلات لا وجود لها، لكنني أردت أن أرى ما إذا كانت هناك تفاصيل تتكرر دون أن أنتبه إليها.

بعد ساعة كاملة، لم أتوصل إلى شيء.

مزقت الورقة، ثم ندمت على ذلك، كأنني أضعت احتمالًا مهمًا لمجرد أنني لم أجد فيه ما أبحث عنه.

كنت أتصرف كما لو أن الحقيقة تنتظرني في أحد الأدراج، وأن عليّ فقط أن أجد المفتاح الصحيح.

لكنني كنت أعرف أن الحياة لا تعمل بهذه البساطة.

في صباح اليوم التالي، ذهبت إلى المستشفى قبل وصول سيلفان.

أردت مراجعة بعض السجلات القديمة التي تعود إلى الأشهر الأخيرة من حياة أبي. لم أكن أبحث عن شيء محدد، بل عن أي اختلاف قد يساعدني على فهم ما الذي كان يشغله في الفترة التي سبقت موته.

كان أرشيف المستشفى في غرفة ضيقة خلف مكتب الحسابات، تفوح منها رائحة الورق والرطوبة. وجدت الخزائن مرتبة بحسب السنوات، لكن بعض الملفات كانت قد نُقلت من أماكنها أثناء أعمال التوسعة، ولم تعد فهارسها مطابقة لما تحتويه.

بدأت أبحث عن سجلات المراسلات الإدارية.

بعد وقت طويل، عثرت على دفتر يحمل توقيع أبي في معظم صفحاته. كانت الملاحظات قصيرة، تتعلق بمواعيد الاجتماعات، وتكاليف شراء المعدات، وأسماء أشخاص طلبوا مقابلته.

لم يكن هناك شيء استثنائي حتى وصلت إلى مجموعة من الصفحات التي لم تُكتب عليها تواريخ كاملة.

تكررت فيها أسماء بعض المسؤولين، إلى جانب إشارات مقتضبة إلى اجتماعات أُلغيت أو نُقلت إلى أماكن أخرى. وفي إحدى الصفحات، وجدت اسم اللورد هال.

لم يكن اسمه وحده ما لفت انتباهي، بل الملاحظة المكتوبة إلى جانبه:

«يُرجأ اللقاء إلى حين اتضاح الموقف.»

قرأت العبارة عدة مرات.

أي موقف؟

قلبت الصفحات التالية، لكنني لم أجد تفسيرًا. كانت هناك أسماء أخرى وملاحظات مشابهة، إلا أن الدفتر لم يقدم ما يكفي لفهم طبيعة تلك الاجتماعات.

سمعت صوتًا عند الباب، فأغلقت الدفتر بسرعة.

كان سيلفان يقف هناك، يحمل ملفًا تحت ذراعه.

«لم أتوقع أن أجدك هنا في هذا الوقت.»

أعدت الدفتر إلى مكانه.

«أردت مراجعة بعض السجلات القديمة.»

دخل الغرفة ونظر إلى الخزانة المفتوحة.

«هل تبحثين عن شيء معين؟»

ترددت قليلًا قبل أن أجيبه.

«أحاول فهم بعض القرارات التي اتخذها أبي قبل وفاته.»

لم يبدُ عليه الاستغراب.

«إذا كنت تبحثين عن تفسير لكل ما فعله، فقد يستغرق الأمر وقتًا طويلًا.»

«هل تعرف شيئًا عن اجتماعاته الأخيرة؟»

تغيرت ملامحه تغيرًا طفيفًا.

«أي اجتماعات؟»

أخبرته أنني وجدت أسماء عدد من المسؤولين في الدفتر، وأن بعض المواعيد أُلغيت دون توضيح.

فكر للحظة، ثم قال:

«كان والدك يتلقى زيارات كثيرة في الأشهر الأخيرة. بعضهم جاء لمناقشة أمور تخص المستشفى، وبعضهم لم تكن علاقتهم بالطب واضحة. لكنه لم يكن يخبرني بتفاصيل كل ما يحدث في مكتبه.»

«هل لاحظت أنه كان قلقًا؟»

لم يجب مباشرة.

«كان تحت ضغط كبير. المستشفى كان يتوسع، والمصروفات ارتفعت، وكانت هناك خلافات حول بعض قراراته. لكنني لا أستطيع أن أقول إن ذلك يفسر كل شيء.»

انتظرت أن يضيف شيئًا، لكنه لم يفعل.

أدركت أنني لن أحصل منه على أكثر مما يعرف، أو أكثر مما يرغب في قوله.

أغلقت الخزانة.

«شكرًا لك.»

وقبل أن أغادر، قال سيلفان:

«رووران، هناك أمر أريدك أن تتذكريه لا تجعلي بحثك عن أسباب وفاة والدك يسرق منك كل ما بقي لك من حياتك.»

نظرت إليه.

«وماذا لو كان هناك شيء ينبغي أن أعرفه؟»

أجاب بهدوء:

«عندها ابحثي عنه، لكن لا تعيشي وكأنك مطالبة بإيجاد جواب لكل سؤال قبل أن تسمحي لنفسك بالمضي قدمًا.»

لم أرد.

كنت قد بدأت ألاحظ أن الأشخاص من حولي يتفقون على نصيحتي بالتوقف، بينما كنت أشعر بأنني لم أبدأ البحث الحقيقي بعد.

في المساء، حملت معي بعض الكتب إلى دكان جوزيف.

وجدته في الحديقة الخلفية، يثبت دعامة خشبية بجانب نبتة صغيرة بدأت أغصانها تميل نحو الأرض. وضع المطرقة جانبًا حين رآني، ثم مسح يديه بقطعة قماش.

«يبدو أنك لم تأتي من أجل الأعشاب اليوم.»

وضعت الكتب على المقعد.

«هل أصبحت واضحة إلى هذا الحد؟»

«حين تأتين ومعك ثلاثة كتب ووجه عابس، يصعب أن أصدق أنك جئت للتنزه.»

جلست قربه، وأخبرته بما وجدته في سجلات أبي، وعن اسم اللورد هال والملاحظة التي لم أفهم معناها.

استمع إليّ دون أن يقاطعني، ثم سألني:

«هل تعتقدين أن هذا الرجل له علاقة بوفاة والدك؟»

لا أعرف.»

«وهل لديك ما يجعلك تشكين فيه؟»

لا شيء سوى أنه حذرني من البحث في الملفات القديمة، مع أنه لم يكن يعرف أنني بدأت البحث أصلًا.»

فكر جوزيف قليلًا.

«ربما كان يعرف أكثر مما قال، وربما كان يحاول حمايتك من أمر لا يريدك أن تتورطي فيه، وربما كان يتحدث من باب الحذر العام لا يمكننا اختيار أحد هذه الاحتمالات لمجرد أنه الأكثر إثارة.»

تنهدت.

«أنت تجعل كل شيء يبدو بسيطًا.»

لا يا روران. أنا أحاول ألّا أجعله أكثر تعقيدًا مما هو عليه.»

نظرت إلى الحديقة.

«أحيانًا أشعر أنني لو توقفت عن البحث، فسأكون قد سمحت لهم جميعًا بأن يقرروا ما الذي يحق لي معرفته.»

جلس جوزيف إلى جانبي.

«ومن قال إن عليك التوقف؟»

التفت إليه.

«أنت تطلب مني الحذر دائمًا.»

«لأن الحذر لا يعني التوقف. يعني أن تعرفي ما الذي تحملينه معك وأنت تمضين إلى الأمام.»

ظللت صامتة.

ثم قلت بصوت أخفض:

«أخشى أن أكتشف أن أبي لم يكن الشخص الذي ظننته.»

لم يواسني بكلمات جاهزة، ولم يحاول الدفاع عن أبي أو اتهامه.

قال فقط:

«قد تكتشفين أنه كان أكثر تعقيدًا مما عرفتِ. وهذا لا يمحو كل ما كان بينكما، ولا يجبرك على تبرير أخطائه.»

شعرت بشيء ينقبض في صدري.

كنت أريد أن أكره أبي بوضوح، أو أن أشتاق إليه دون تحفظ. أما أن أحتفظ بحبي له وغضبي منه في الوقت نفسه، فكان أمرًا لم أعرف كيف أتعامل معه.

قلت:

«أحيانًا أتمنى لو أنه ترك لي شيئًا واحدًا لا يثير الأسئلة.»

ابتسم جوزيف بحزن خفيف.

«ربما ترك لك أكثر مما تظنين، لكنك تبحثين الآن عن شيء آخر.»

لم أسأله عمّا يقصده.

كنت متعبة من الأسئلة، ومتعبة أكثر من الإجابات التي تفتح أبوابًا جديدة بدلًا من أن تغلق الأبواب القديمة.

في الأيام التالية، حاولت أن أعيد بعض النظام إلى حياتي.

خصصت الصباح للمستشفى، وبعد الظهر لمراجعة الحسابات، وتركت الأمسيات لزيارة جوزيف أو القراءة. وافقت على لقاء ثانٍ مع اللورد هال، لكنني لم أوقّع على عرضه. طلبت منه تفاصيل إضافية عن التمويل، وأصررت على أن تبقى القرارات الطبية في يد إدارة المستشفى.

بدا غير راضٍ عن بعض شروطي، لكنه لم يرفضها.

ومع مرور الأيام، بدأت أرى أن إنقاذ المستشفى لن يكون عملًا بطوليًا أقوم به وحدي، بل سلسلة من القرارات الصغيرة، بعضها ممل وبعضها مؤلم، تتطلب مني الاعتراف بما لا أعرفه.

كان ذلك درسًا لم أكن أتوقع أن أتعلمه من أبي.

فهو الذي ترك لي مؤسسة ضخمة، لكنه لم يترك لي طريقة واضحة لإدارتها.

وفي إحدى الأمسيات، بينما كنت أرتب أوراقي، وجدت بين صفحات أحد الكتب ورقة صغيرة لم أرها من قبل.

كانت مطوية مرتين، وقد كُتب عليها اسم أبي بخط مختلف عن خطه.

فتحتها بحذر.

لم تكن رسالة طويلة، بل سطرين فقط:

«لم يعد من الممكن تأجيل الأمر أكثر. يجب أن نلتقي قبل أن تصل الأخبار إلى القصر.»

لم يكن هناك اسم في أسفل الورقة، ولا تاريخ واضح، سوى رقم باهت في الزاوية.

قرأت السطرين مرة، ثم مرة أخرى.

هذه المرة لم أشعر بالفضول وحده.

شعرت بالخوف.

لم تكن الكلمات دليلًا على جريمة، ولم تخبرني ما الأمر الذي كان ينبغي ألّا يتأخر. لكنها أشارت إلى أن هناك شخصًا آخر كان يتواصل مع أبي بشأن مسألة عاجلة، وأن القصر كان طرفًا في الأمر بطريقة ما.

طويت الورقة وأخفيتها داخل دفتري.

كان بإمكاني أن أذهب إلى سيلفان، أو أعود إلى مكتب أبي، أو أحاول معرفة من كتبها. لكنني بقيت جالسة في مكاني، أستمع إلى صوت الساعة على الجدار.

لأول مرة، تمنيت أن يكون ما أبحث عنه مجرد سوء فهم.

لم أكن أعرف ما الذي حدث لأبي، ولم أكن أعرف إن كانت الرسائل التي عثرت عليها مرتبطة بموته أصلًا.

لكنني عرفت أنني لم أعد أبحث عن إجابة تخص الماضي وحده.

كان هناك شيء ما قد امتد من حياة أبي إلى حياتي، شيء لم أفهمه بعد، وربما لم يكن يريد أحد لي أن أفهمه.

وضعت يدي فوق الدفتر، وأغمضت عينيّ.

لم أكن مستعدة للذهاب أبعد من ذلك في تلك الليلة.

لكنني كنت أعرف أنني سأعود إلى البحث في الصباح.

ولم أكن أعلم أن الرسالة الصغيرة التي أخفيتها بين صفحات دفتري ستجعلني أنظر إلى القصر الملكي، للمرة الأولى، لا بوصفه مكانًا بعيدًا عن حياتي، بل جزءًا من سؤال لم أعد أستطيع تجاهله.

الفصل التاسع

دعوة إلى الحديقة الملكية

لم أنم جيدًا تلك الليلة.

ظلّت الورقة الصغيرة التي وجدتها داخل كتاب أبي حاضرة في ذهني، حتى بعد أن أغلقت دفتري وأطفأت المصباح. كانت الكلمات قليلة، لكنها فتحت أمامي احتمالات أكثر مما أستطيع احتماله. لقاء قبل وصول الأخبار إلى القصر... أي أخبار؟ ومن الذي كان يخشى وصولها؟ ولماذا ترك أبي هذه العبارة في كتاب، بعيدًا عن ملفاته ورسائله المعتادة؟

في النهاية، أقنعت نفسي بأنني سأعود إلى البحث في الصباح. لم يكن ثمة ما يمكنني فعله في منتصف الليل سوى اختراع إجابات لا دليل عليها.

لكن الصباح جاء بشيء لم أكن أتوقعه.

كنت في الطابق السفلي، أتناول فطوري بصمت، حين دخلت ماريان تحمل صينية صغيرة فوقها ظرف عاجي اللون، مختوم بالشمع الملكي.

توقفت يدي فوق فنجان الشاي.

— ما هذا؟

وضعت ماريان الصينية أمامي، ثم أجابت بنبرة حاولت أن تجعلها عادية:

— وصل قبل قليل. أحضره رجل من القصر بنفسه، وأصرّ على تسليمه إليك مباشرة.

لم أمد يدي إليه فورًا. اكتفيت بتأمل الختم، ذلك الشعار الذي رأيته مرات عديدة على الوثائق الرسمية التي كان أبي يحتفظ بها في مكتبه.

— هل تعرفين من أرسله؟

— لم يقل الرجل سوى إنه يحمل دعوة رسمية.

كسرت الختم وفتحت الظرف.

كانت الرسالة قصيرة، مكتوبة بخط أنيق لا يحمل شيئًا من التكلف.

إلى الآنسة روران كاسيان،

تقديرًا للصداقة القديمة التي جمعت والدي بوالدك الراحل، يسرّني دعوتك إلى تناول الشاي في الحديقة الملكية، رغبةً في الاطمئنان إلى أحوالك بعد المصاب الذي ألمّ بعائلتك، ومناقشة بعض الأمور المتعلقة بمستشفى والدك.

الأمير داميان.

قرأت الاسم مرتين.

لم يكن غريبًا عني لا يمكن لابنة رجل عاش قريبًا من دوائر النفوذ أن تجهل اسم ولي العهد. رأيته في الصحف، وعلى العملات، وفي الصور الرسمية التي كانت تُعلّق في أروقة المؤسسات الكبرى. كنت أعرف عنه ما يعرفه الجميع: أنه الابن الوحيد للملك، وأنه سيجلس يومًا على العرش، وأن رجال البلاط يتحدثون عنه بحذر حتى حين يمدحونه.

أما ما وراء تلك الصورة، فلم أكن أعرف شيئًا.

رفعت عيني إلى ماريان.

— هل كان أبي يعرف الأمير شخصيًا؟

ترددت لحظة قبل أن تجيب.

— كان والد الأمير يعرف أباك منذ سنوات. التقيا في مناسبات كثيرة، وتبادلا الزيارات في الماضي. أما علاقتك أنتِ بالأمير، فلا أذكر أنك التقيته من قبل.

— لم أفعل.

أعدت الرسالة إلى الظرف، لكن أصابعي بقيت ممسكة بحافته.

كان الأمر غريبًا. قبل ساعات فقط، كنت أقرأ رسالة مجهولة تتحدث عن ضرورة لقاء يسبق وصول أخبار إلى القصر، والآن يصلني استدعاء من القصر نفسه.

ربما لم يكن بين الأمرين أي ارتباط.

وربما كنت أبدأ في رؤية الخيوط حيث لا توجد خيوط أصلًا.

قالت ماريان وهي تراقبني:

—لا أنصحك بالذهاب وحدك.

— إنها دعوة رسمية، وليست فخًا في غابة.

— لم أقل إنها فخ.

— لكنك فكرتِ بذلك.

تنهدت، ثم سحبت الكرسي المقابل وجلست.

— يا رووان، لا أعرف ما الذي يدور في رأسك منذ وفاة والدك، لكنني أعرف أنك صرتِ تبحثين عن أشياء لا تستطيعين احتمال نتائجها دائمًا. القصر ليس مكانًا بسيطًا، حتى بالنسبة إلى الأشخاص الذين يظنون أنهم يعرفون كيف يتعاملون مع السلطة.

أزعجني كلامها، ربما لأنه أصاب شيئًا لم أكن مستعدة للاعتراف به.

— وهل تريدين مني أن أرفض دعوة ولي العهد؟ قد تكون هذه فرصتي الوحيدة لمعرفة ما إذا كان أحد في القصر يعرف شيئًا عن أعمال أبي.

تغير وجهها عند ذكر أعماله.

— ليس كل من عرف أباك صديقًا له، وليس كل من عرض المساعدة يريد مصلحتك.

— أعرف ذلك.

لكن الحقيقة أنني لم أكن أعرفه حقًا. كنت أكرر العبارة لأنني أردت أن أبدو أكثر خبرة مما أنا عليه.

طويت الرسالة بعناية ووضعتها داخل جيب فستاني.

— سأذهب.

لم تجادلني ماريان هذه المرة. اكتفت بالنظر إليّ طويلًا، ثم قالت:

— إذن، اذهبي وأنتِ تتذكرين أنك لستِ مضطرة إلى الموافقة على كل ما يُعرض عليك.

في الموعد المحدد، وصلت العربة إلى البوابة الخارجية للقصر الملكي.

كان الطريق المؤدي إليه تحفّه أشجار طويلة، وقد امتدت ظلالها على الحصى الأبيض كأصابع متشابكة. خلف البوابة الحديدية ارتفعت الواجهة الحجرية للقصر، باردة ومهيبة، كأنها لم تُبنَ لإيواء البشر بقدر ما بُنيت لتذكيرهم بصغرهم.

لم أستطع منع نفسي من الشعور بشيء يشبه الرهبة.

لطالما تخيلت أنني سأدخل هذا المكان يومًا ما.

في الماضي، كانت تخيلاتي مختلفة. كنت أرى نفسي أسير في أروقته بثقة، يعرفني الخدم بالاسم، ويُفسح لي الحراس الطريق، وأجلس في قاعات تلمع فيها الثريات بينما ينصت أصحاب النفوذ إلى رأيي. لم أكن أعرف إن كنت أريد تلك الحياة فعلًا، أم أنني أحببت صورتها لأنها كانت تشبه الحياة التي أرادها أبي لي.

اليوم، وأنا أعبر البوابة، لم أشعر بأنني أقترب من حلم.

شعرت بأنني أدخل مكانًا قد يبتلعني إن لم أنتبه إلى خطواتي.

استقبلني أحد موظفي القصر وقادني عبر ممرات واسعة، تزيّن جدرانها لوحات لملوك سابقين. كانت وجوههم جميعًا متشابهة في شيء واحد: تلك النظرة التي توحي بأن العالم وُجد ليطيعهم.

تساءلت إن كان داميان يشبههم.

ثم توقفت عن التفكير عندما فتح الموظف بابًا زجاجيًا يطل على الحديقة الملكية.

كانت الحديقة أوسع مما تخيلت، تتوزع فيها أحواض الورود البيضاء والحمراء، وتتخللها ممرات حجرية تنتهي عند نافورة تتوسطها منحوتة رخامية. أما الأشجار، فكانت مقصوصة بعناية صارمة، حتى بدت أغصانها كأنها تعرف الحدود المسموح لها بتجاوزها.

كرهت الفكرة قليلًا.

حتى النباتات هنا لم يُترك لها أن تنمو بطريقتها.

كان الأمير يقف قرب النافورة، يتحدث إلى رجل يرتدي زيًّا رسميًا. وحين لمحني، أنهى الحديث بإشارة مقتضبة، ثم التفت نحوي.

رأيته في الصور من قبل، لكن الصور لم تكن أمينة بما يكفي.

كان شعره أسود، مرتبًا دون أن يبدو متكلفًا، وعيناه داكنتين على نحو جعل النظر إليهما أشبه بمحاولة قراءة باب مغلق. كانت ملامحه حادة، وخط فكه واضحًا، أما قامته وهدوء حركته فحملا ذلك النوع من الهيبة الذي لا يحتاج إلى صوت مرتفع كي يفرض نفسه.

لم يبتسم ابتسامة واسعة حين اقترب.

اكتفى بانحناءة خفيفة.

— الآنسة روران كاسيان. يسعدني أنك قبلتِ دعوتي.

— أشكرك على دعوتك، سمو الأمير.

أشار إلى مقعدين تحت مظلة بيضاء، حيث كانت طاولة صغيرة معدّة للشاي.

— آمل ألا يكون الطريق قد أتعبك.

— لم يكن طويلًا.

جلست بعد أن أشار إليّ، ثم جلست قبالتي. وبينما كان أحد الخدم يصب الشاي، شعرت أنني مراقبة، لا بطريقة فظة، بل بذلك الانتباه الهادئ الذي يجعل المرء يراجع كل حركة يقوم بها.

لم يكن داميان ينظر إليّ باستمرار، ومع ذلك كنت أشعر بأنه يلاحظ التفاصيل.

قال وهو يرفع فنجانه:

— سمعت أن مستشفى والدك يمر بمرحلة صعبة.

لم أكن أتوقع أن يبدأ من هناك بهذه السرعة.

— نعم. هناك التزامات مالية لم أكن أعرف حجمها من قبل.

— هذا أمر مؤسف. كان والدك رجلًا ذا طموح كبير، وربما أكبر مما تسمح به الظروف أحيانًا.

لم أعرف إن كانت عبارته تعاطفًا أم حكمًا على رجل لم يعد قادرًا على الدفاع عن نفسه.

— هل كنت تعرف أبي جيدًا؟

وضع فنجانه على الصحن.

— أعرفه منذ سنوات، وإن لم تكن علاقتنا وثيقة كما كانت علاقته بوالدي. كان من الرجال الذين يصعب تجاهلهم، سواء اتفق المرء معهم أم اختلف.

كانت تلك إجابة مهذبة، لكنها لم تمنحني شيئًا حقيقيًا.

قلت:

— يبدو أن كثيرين يعرفون أبي، لكنني أكتشف كل يوم أنني لا أعرف عنه ما يكفي.

ثبت نظره عليّ للحظة.

— أحيانًا لا يعرف الأبناء كل شيء عن آبائهم.

— وأحيانًا يتعمد الآباء ألا يخبروهم.

لم تتغير ملامحه، غير أن صمته امتد لحظة أطول مما توقعت.

ثم قال:

— هل تعتقدين أن والدك أخفى عنك أمورًا مهمة؟

كان السؤال مباشرًا على نحو أربكني. لم أكن أعرف إن كان من الحكمة أن أجيبه بصدق، ولا إن كان الصمت سيبدو اعترافًا بشيء لا أملكه.

— أعتقد أنني كنت أعرف الصورة التي أرادني أن أراها. أما ما بقي خارجها، فلا أعرف عنه الكثير.

راقبني داميان، ثم مال قليلًا إلى الخلف.

— إجابة صادقة. وهذا أمر نادر في الأماكن التي اعتاد الناس فيها أن يقولوا ما يُنتظر منهم.

لم أعرف هل كان يمدحني أم يسخر من العالم الذي ينتمي إليه.

أخذت رشفة صغيرة من الشاي، فوجدته أقوى مما اعتدت، بطعم مرّ خفيف بقي على لساني.

قال الأمير:

— فيما يخص المستشفى، يمكنني ترتيب لقاء مع بعض المسؤولين الذين يستطيعون دراسة وضعه المالي. وقد يكون من الممكن تأجيل بعض الالتزامات، أو إيجاد شريك يساهم في استمراره.

تحرك شيء داخلي عند سماع كلمة «شريك».

تذكرت اللورد إدوارد هول، وعرضه الذي بدا في ظاهره إنقاذًا، بينما ترك خلفه أسئلة لم أجد لها إجابات.

— وهل سيكون لهذا الشريك حق في إدارة المستشفى؟

— يعتمد ذلك على الاتفاق.

— وهل ستبقى قرارات المستشفى الطبية مستقلة؟

رفع داميان حاجبه قليلًا، وكأن سؤالي أثار اهتمامه.

— يبدو أنك لا ترغبين في خسارة ما تركه والدك.

نظرت إلى النافورة خلفه. الماء يندفع من فم المنحوتة الرخامية ثم يعود إليها في دورة لا تنتهي.

—لا أعرف إن كنت أرغب في الاحتفاظ بكل ما تركه. لكنني لا أريد أن أكتشف بعد سنوات أنني سلمت شيئًا مهمًا لأنني كنت خائفة من خسارته.

ساد صمت قصير.

ثم قال:

— إذن، لا تتخذي قرارًا اليوم. اطلبي الاطلاع على الشروط، واستشيري من تثقين به، ولا تسمحي لأحد بأن يقنعك بأن ضيق الوقت يعفيك من التفكير.

رفعت عيني إليه.

كانت النصيحة معقولة، وربما لهذا السبب أربكتني أكثر. فقد توقعت من رجل يعيش في قلب السلطة أن يتحدث عن الضرورة، وعن التنازلات التي لا بد منها، وعن الحكمة في معرفة متى ينبغي للمرء أن ينحني. لكنه كان يخبرني بألّا أتعجل.

لم أستطع تحديد ما إذا كان ذلك نابعًا من لطف حقيقي أم من خبرة رجل يعرف كيف يكسب ثقة الآخرين.

سألته:

— لماذا تهتم بمستشفى أبي؟

أجاب من دون تردد:

— لأنني لا أرى فائدة من ترك مؤسسة نافعة تنهار بسبب سوء الإدارة أو الديون، ولأن والدي كان يقدّر والدك. ثم إن وجود مستشفى قوي يخدم المملكة أفضل من تحوله إلى مبنى فارغ.

— وهل هذه كل الأسباب؟

ظهرت على فمه ابتسامة صغيرة، بالكاد بدت.

— أنتِ كثيرة الأسئلة يا آنسة كاسيان.

— وقد يكون هذا عيبًا.

— ليس دائمًا.

كانت عيناه ثابتتين عليّ، ولم أعرف لماذا شعرت فجأة بأنني أنا التي تجلس تحت الاختبار، لا الرجل الذي جئت لأتحدث معه.

أبعدت نظري عنه، وانشغلت بفنجاني.

— أعتذر إن بدوت متشككة.

—لا تعتذري عن أمر قد يحميك.

لم تكن في صوته قسوة، لكن عبارته بقيت في ذهني بطريقة لم أستطع تفسيرها.

بعد ذلك، انتقل الحديث إلى أمور أقل حساسية. سألني عن دراستي، وعن خططي للمستشفى، فأخبرته أنني درست ما يكفي لأفهم بعض جوانب العمل، لكنني لم أكن مستعدة لتولي إدارته كما كنت أتصور.

لم أكن أنوي الاعتراف بذلك. خرج الكلام مني قبل أن أتمكن من تهذيبه.

قال:

— الاعتراف بأنك غير مستعدة أفضل من التظاهر بعكس ذلك.

كدت أضحك.

كانت هذه ثاني مرة أسمع فيها المعنى نفسه خلال أيام قليلة، لكنني لم أكن معتادة على سماعه من شخص في موقعه. اعتدت أن يُطلب مني أن أكون على قدر اسم أبي، وأن أتصرف كما لو أن الثقة التي منحني إياها تكفي لتعويض ما ينقصني من خبرة.

أما داميان، فلم يطلب مني أن أثبت شيئًا.

وهذا وحده جعلني أكثر حذرًا منه.

حين انتهى اللقاء، نهض الأمير أولًا، ثم سار معي بضع خطوات على الممر الحجري المؤدي إلى الباب الزجاجي.

توقفت قرب حوض من الورود البيضاء. كانت إحدى الزهرات قد انحنت على ساقها، فبدت مختلفة عن بقية الزهور المنتصبة في انتظام مبالغ فيه.

مددت يدي دون تفكير، لكنني توقفت قبل أن ألمسها.

قال داميان:

— هل أعجبتك الحديقة؟

— إنها جميلة.

— لكنك لا تبدين مقتنعة.

نظرت إلى الأحواض الممتدة أمامنا.

— إنها جميلة أكثر مما ينبغي. كأن أحدهم قرر أن الطبيعة لا يحق لها أن ترتكب خطأ.

تبع نظري إلى الزهرة المنحنية.

— وربما لهذا السبب يفضّل بعض الناس الحدائق البرية لا شيء فيها يطيع أحدًا تمامًا.

كانت إجابته غير متوقعة، ولم أجد ما أقوله.

ثم التفت إليّ.

— آمل أن نلتقي مجددًا يا روران. لم ننتهِ بعد من الحديث عن المستشفى.

كانت تلك أول مرة ينطق فيها اسمي من دون لقبي.

بدت الكلمة عادية، ومع ذلك تركت في داخلي أثرًا غريبًا، كأن المسافة الرسمية بيننا تقلصت خطوة لم أقرر السماح بها.

انحنيت باحترام.

— أشكرك مرة أخرى، سمو الأمير.

لم يحاول إيقافي أو إطالة اللقاء. اكتفى بأن أشار إلى الموظف كي يرافقني إلى الخارج.

وحين ابتعدت عن الحديقة، التفتُّ مرة واحدة.

كان داميان لا يزال واقفًا قرب النافورة، يتحدث إلى أحد رجاله. لم يكن ينظر إليّ، ولم يكن في المشهد ما يدعو إلى التوقف.

ومع ذلك، بقيت صورته في ذهني حتى وصلت إلى العربة.

في طريق العودة، أخرجت الرسالة الملكية من جيبي وقرأت اسم الأمير مرة أخرى.

لم أحصل على إجابات بشأن أبي، ولم أعرف إن كان للقصر أي صلة بالأمور التي كان يخفيها. لكنني خرجت بوعد بمراجعة وضع المستشفى، وبانطباع عن رجل يصعب أن أقرر إن كان جديرًا بالثقة.

كان وسيمًا، نعم، بطريقة لا تحتاج إلى مبالغة كي تلفت النظر. لكن ما علق في ذهني لم يكن مظهره وحده، بل هدوؤه، وطريقته في الإصغاء، وقدرته على جعل الكلام يبدو كأنه صدر عني أنا، حتى حين كان هو من يوجه الأسئلة.

أزعجني أنني لاحظت كل ذلك.

كنت قد ذهبت إلى القصر لأعرف شيئًا عن أبي، لا لأعود وأنا أتذكر عيني رجل غريب.

عندما وصلت إلى المنزل، وجدت ماريان تنتظرني في الردهة.

— كيف كان اللقاء؟

نزعت قفازي ببطء.

— عرض مساعدته في تسوية بعض مشكلات المستشفى.

— وهل تثقين به؟

توقفت لحظة، ثم أجبت:

—لا أعرف.

بدت ماريان وكأنها كانت تنتظر إجابة مختلفة، لكنها لم تضغط عليّ.

صعدت إلى غرفتي، وأخرجت دفتري من الدرج. فتحت الصفحة التي كتبت فيها ملاحظاتي عن الرسالة المجهولة، ثم أضفت تحتها سطرًا جديدًا:

التقيت اليوم بالأمير داميان. يعرف عن أبي أكثر مما قال، أو ربما لا يعرف شيئًا على الإطلاق. لم أستطع التمييز بين الاحتمالين.

تأملت العبارة، ثم أضفت:

يجب ألّا أخلط بين الرجل الذي أراه والرجل الذي أتمنى أن يكونه.

لم أعرف لماذا كتبت الجملة الأخيرة.

ربما لأنني شعرت بأنني بدأت، منذ اللحظة التي رأيته فيها، أبني صورة عنه قبل أن أعرفه.

أغلقت الدفتر.

كان من السهل أن أظن أنني ذهبت إلى القصر بحثًا عن الحقيقة. لكنني، للمرة الأولى منذ وفاة أبي، عدت وأنا أحمل سؤالًا لا يتعلق به وحده.

سؤالًا عن نفسي.

لماذا كان من الأسهل عليّ أن أشك في رجل يملك السلطة، من أن أعترف بأنني شعرت بالفضول نحوه؟

ولماذا، وسط كل ما تركه أبي خلفه من ديون ورسائل وأبواب مغلقة، بدا لي أن لقاءً واحدًا قد فتح بابًا جديدًا؟

لم أكن أعرف.

لكنني كنت أعرف أنني سأراه مجددًا.

ولم أكن متأكدة إن كان ذلك ما ينبغي أن أخشاه، أم ما ينبغي أن أنتظره.



الفصل العاشر

الرجل الذي ترك الباب مفتوحًا

لم أذهب إلى القصر في اليوم التالي، ولم أعد إلى المستشفى أيضًا.

أخبرت ماريان أنني أحتاج إلى يوم هادئ أرتب فيه أفكاري، لكنها لم تصدقني تمامًا. كانت تعرف أنني حين أقول إنني أريد الهدوء، أكون غالبًا قد امتلأت بأسئلة لا أستطيع إسكاتها.

ومع ذلك، لم تحاول منعي حين طلبت تجهيز العربة بعد الظهيرة.

كنت أريد رؤية جوزيف.

لم يكن لدي سبب محدد. لم أحتج إلى مساعدة في تسمية الأعشاب، ولم تكن هناك مسألة طبية أريد مناقشتها معه، ولم أحمل كتابًا جديدًا لأريه إياه. أردت فقط أن أجلس في متجره الصغير، وأسمع صوته وهو يتذمر من ترتيب رفوفه، ثم يكتشف بعد دقائق أنه هو من وضع الأشياء في غير أماكنها.

كان ذلك كافيًا.

حين وصلت، وجدت باب المتجر مفتوحًا، لكن الجرس الصغير المعلق فوقه لم يرنّ عندما دخلت؛ فقد كان أحد طرفيه مرتخيًا، ويبدو أن جوزيف لم ينتبه إليه بعد.

رفعت رأسي نحوه وقلت:

— حتى جرسك قرر أن يتقاعد قبلك؟

جاءني صوته من الغرفة الخلفية:

— الجرس لا يتقاعد. إنه يحتج على كثرة الزوار.

— إذن أخبره أنني لست زائرة.

ظهر جوزيف عند الباب، يحمل صندوقًا خشبيًا صغيرًا، وعلى كُمّ قميصه بقعة تراب. نظر إليّ لحظة، ثم ابتسم.

— هذه مشكلة أكبر. الزوار يغادرون، أما الذين يقررون أنهم أصحاب المكان فلا سبيل إلى التخلص منهم.

ضحكت، ووجدتني أخلع قفازي وأضعهما على الطاولة كأنني عدت إلى غرفة أعرفها أكثر مما أعرف غرفتي في القصر.

كان جوزيف قد بدا متعبًا في الآونة الأخيرة، لكنني لم ألاحظ ذلك حقًا إلا حين رأيته يضع الصندوق على الطاولة بحذر، ثم يسند كفه إلى حافتها لثوانٍ قبل أن يستقيم.

— هل أنت بخير؟ سألت.

رفع حاجبه.

— هل صرت طبيبة الآن؟

— لم أقل إنني طبيبة. سألت إن كنت بخير.

— وأنا بخير بما يكفي لأتلقى استجوابًا قبل أن أشرب الشاي.

لم يعجبني تهرّبه، لكنني تركت الأمر يمر.

ساعدته في ترتيب الصندوق. كان يحتوي على أوعية زجاجية صغيرة، وملصقات قديمة، وبعض الأدوات التي احتاجت إلى تنظيف. وبينما كنت أضع كل شيء في مكانه، وجدت بطاقة ورقية كتب عليها اسم نبتة أعرفها من دروسه.

— هذه لا تنتمي إلى هذا الرف.

نظر إليها، ثم إلى الرف الذي أشرت إليه.

— صحيح.

— قلت لي إن الخطأ في التصنيف قد يجعل المرء يستخدم النبتة الخطأ.

— وقلت لك أيضًا إن الاعتراف بالخطأ أفضل من الإصرار عليه.

ابتسمت بانتصار صغير.

— بدأت تتعلم مني أخيرًا.

هز رأسه، ثم أطلق ضحكة خافتة.

كان صوته مختلفًا قليلًا، أقل قوة مما اعتدت، لكنني لم أسمح للفكرة أن تستقر في ذهني. قلت لنفسي إنه التعب، وإنه يعمل أكثر مما ينبغي، وإن الناس لا يبقون في صحة واحدة إلى الأبد.

لم أكن أحب تلك الحقيقة.

في تلك الأمسية، جلسنا قرب النافذة الخلفية، حيث تتسلل رائحة التراب الرطب من الحديقة. أحضر جوزيف إبريق الشاي، ووضع أمامي طبقًا صغيرًا من البسكويت الذي اعتاد أن يدّعي أنه لا يصنعه من أجلي، رغم أنه كان يعرف أنني أحبه.

قلت وأنا أتناول واحدة:

— لو كنتَ تعيش في القصر، لما اضطررت إلى صنع طعامك بنفسك.

— ولو كنت أعيش في القصر، لاضطررت إلى سماع أشخاص يتحدثون طوال النهار عن أمور لا تعنيهم.

— تستطيع أن تختار من تتحدث إليه.

— وهل تعتقدين أن الاختيار سهل لمجرد أن المرء يملك المال؟

سكتُّ.

كنت قد فكرت في الأمر من قبل، لكنني لم أكن قد واجهته بهذه البساطة. امتلكت المال والاسم، ومع ذلك شعرت منذ وفاة أبي أن حياتي تُسحب من بين يديّ قطعة بعد أخرى.

قلت:

— ربما ليس سهلًا. لكنه يمنحك خيارات أكثر.

— نعم، يمنحك خيارات أكثر. لكنه لا يضمن أن تعرف أيها لك، وأيها اختاره الآخرون نيابة عنك.

تذكرت كلامه القديم عن الأحلام التي لا نعرف إن كانت لنا حقًا.

أنزلت البسكويت إلى الطبق.

— أحيانًا أشعر أنني لا أعرف نفسي إلا حين أكون هنا.

نظر إليّ جوزيف طويلًا، ثم قال بهدوء:

— إذن لا تهملي هذا المكان.

لم تكن عبارته ثقيلة، لكن شيئًا فيها جعلني أشعر برغبة مفاجئة في البكاء. لم أبكِ. اكتفيت بالنظر إلى الحديقة خلف الزجاج، حيث كانت الأغصان تتحرك مع الريح.

ثم قلت، كأنني أريد تغيير الحديث:

— فكرت في أمر.

— هذا لا يبشر بالخير.

— أستطيع أن أرتب لك مكانًا في القصر. غرفة خاصة، وخدمًا يساعدونك، وحديقة أكبر من هذه. ولن تحتاج إلى القلق بشأن المال أو المتجر.

لم يضحك هذه المرة.

وضع فنجانه جانبًا، ثم شبك يديه فوق الطاولة.

— ولماذا تريدين أن أفعل ذلك؟

— لأنك فعلت الكثير من أجلي. ولأنني أستطيع الآن أن أقدم لك شيئًا في المقابل.

— وهل تظنين أنني بقيت إلى جانبك لأحصل على مقابل؟

— لم أقل ذلك.

— لكنك تفكرين فيه بهذه الطريقة.

شعرت بالحرج، فقلت بسرعة:

—لا أريد أن تشعر بأنك مضطر إلى البقاء هنا وحدك. يمكنني أن أجعل حياتك أسهل.

ابتسم أخيرًا، لكن ابتسامته كانت حزينة قليلًا.

— يا روران، أنا لا أريد قصرًا، ولا خدمًا، ولا مكانًا بين أصحاب النفوذ. لديّ ما يكفيني، ولديّ عملي وحديقتي، وهما أكثر مما احتجت إليه يومًا.

— لكنك تستحق أكثر.

— ربما. لكنني لا أريد أكثر.

ثم مد يده ووضعها فوق يدي.

كانت يده خشنة، دافئة، تحمل آثار سنوات من العمل مع التراب والأدوات والأوعية الزجاجية.

— إن أردتِ أن تقدمي لي شيئًا، فلا تحاولي أن تشتري لي حياة جديدة. أنت لا تدينين لي بشيء.

هززت رأسي بعناد.

—لا أريد شراءك.

— أعرف.

ضغط على يدي برفق.

— لهذا أريدك أن تفهمي ما سأقوله. لم أكن يومًا بحاجة إلى أن تصبحي طبيبة عظيمة، أو أن تديري مستشفى، أو أن يذكر الناس اسمك باحترام. ولم أكن بحاجة إلى أن تمنحيني مكانًا في قصرك كي أشعر أنني فعلت شيئًا مهمًا.

توقفت أنفاسي لحظة.

— وماذا تريد إذن؟

نظر إليّ بعينين هادئتين.

— أريد أن أبقى الشخص الذي تستطيعين العودة إليه حين تتعبين من محاولة إرضاء العالم. هذا كل شيء.

انحنيت قليلًا، وأخفيت وجهي خلف فنجاني كي لا يرى تأثري.

— أنت عنيد.

— وأنتِ لا تتقبلين الرفض بسهولة.

— سأعود إلى عرضي غدًا.

— وسأرفضه غدًا أيضًا.

ضحكت، فضحك معي.

ولم أكن أعرف أنني سأحفظ تلك الضحكة لاحقًا كما يحفظ المرء شيئًا نادرًا، يخشى أن ينساه.

قبل غروب الشمس، خرجت معه إلى الحديقة.

كانت النباتات تحتاج إلى سقاية، وأصرّ على أن أساعده، رغم أنني أخبرته بأنني أستطيع إرسال أحد الخدم في اليوم التالي ليقوم بكل شيء.

— النباتات لا تحتاج إلى خادم، قالتها لك الأيام الماضية أكثر من مرة، لكنه لم يترك لي فرصة للرد. إنها تحتاج إلى من ينتبه إليها.

أمسكت إبريق الماء وسرت بين الأحواض، أسقي كل نبتة بالقدر الذي علمني إياه. كان جوزيف يسير خلفي ببطء، يصحح لي أحيانًا، ويتركني أخطئ أحيانًا أخرى.

عند طرف الحديقة، توقفت أمام بقعة صغيرة من التراب، حيث كانت نبتة فتية قد بدأت تظهر أوراقها الأولى.

— ما هذه؟

انحنى جوزيف ليتأملها.

— نبتة زرعتها قبل أسابيع. لم أكن متأكدًا من أنها ستنمو.

— ولماذا زرعتها إذن؟

— لأن عدم التأكد ليس سببًا كافيًا لعدم المحاولة.

ابتسمت، ثم جلست على ركبتيّ لأتفحص الأوراق دون أن ألمسها.

— سأتعلم كيف أميزها عندما تكبر.

— إذا بقيتِ صبورة.

— أنا صبورة.

نظر إليّ نظرة جعلتني أضحك.

— حسنًا، سأحاول أن أكون صبورة.

وقف جوزيف، لكنه تمايل قليلًا حين استقام. نهضت بسرعة وأمسكت بذراعه.

— جوزيف!

استعاد توازنه، وأبعد يدي برفق.

—لا شيء. وقفت بسرعة.

— أنت متعب منذ وصلت.

— وأنا أقول لك إنني بخير.

لم أقتنع. كان وجهه شاحبًا، وقد ظهر حول عينيه إرهاق لم أره من قبل. أردت أن أطلب منه أن يجلس، أن أستدعي طبيبًا، أن أفعل شيئًا يمنع ذلك الشعور الغامض الذي أخذ يضغط على صدري.

لكنني لم أعرف من أين أبدأ.

قال، وكأنه قرأ أفكاري:

—لا تحولي كل ما لا تفهمينه إلى كارثة يا رووان.

— ولا تحوّل كل ما تشعر به إلى أمر تافه.

ابتسم ابتسامة صغيرة.

— يبدو أن دروسك بدأت تصبح مزعجة.

— تعلمت من أفضل معلم.

ربت على كتفي، ثم أشار إلى المتجر.

— هيا. يكفي عملًا لهذا اليوم.

قبل أن أغادر، التفتُّ إلى الحديقة مرة أخيرة. لم تكن كبيرة، ولم تكن مرتبة على نحو مثالي، ولم تكن فيها نافورة رخامية أو تماثيل. لكنها كانت المكان الوحيد الذي شعرت فيه أن الأشياء تستطيع أن تنمو من دون أن يقرر أحد شكلها النهائي.

لم يخطر لي أنني ربما كنت أودع شيئًا أكثر من يوم عادي.

في اليوم التالي، لم أتمكن من زيارة جوزيف.

وصلني من المستشفى طلب لمراجعة بعض الحسابات، واضطررت إلى البقاء ساعات طويلة مع الدكتور سيلفان، نحاول فهم الالتزامات التي تركها أبي وراءه. وحين عدت إلى المنزل، كانت السماء قد أظلمت، وكنت متعبة إلى درجة أنني لم أستطع التفكير إلا في النوم.

قلت لنفسي إنني سأذهب إليه في الصباح.

كان ذلك وعدًا بسيطًا، من النوع الذي يقطعه المرء وهو يظن أن الغد حق مضمون.

لكن في صباح اليوم التالي، لم يأتِ جوزيف إلى المتجر.

لم أقلق في البداية. ربما تأخر في فتح الباب، أو ذهب لشراء بعض الحاجيات، أو قرر أن يأخذ يومًا للراحة. حاولت أن أجد تفسيرًا عاديًا لكل احتمال، ثم وجدت نفسي أرتدي معطفي وأخرج قبل أن أنهي فطوري.

حين وصلت إلى متجره، كان الباب مغلقًا.

طرقت مرة.

ثم مرة أخرى.

لم يجب أحد.

أخرجت المفتاح الصغير الذي أعطاني إياه منذ أشهر، يوم طلب مني أن أعتني بالنباتات إن اضطر إلى السفر. كنت قد احتفظت به في جيب داخلي من حقيبتي، ولم أستخدمه من قبل.

ترددت قبل أن أديره في القفل.

كان المكان صامتًا على نحو لم أعتده. حتى رائحة الأعشاب بدت أخف، كأن المتجر فقد شيئًا لا تستطيع الأنف تحديده.

دخلت وناديته:

— جوزيف؟

لم يجب.

تقدمت إلى الغرفة الخلفية، ثم إلى الممر الصغير المؤدي إلى الحديقة. كان إبريق الماء الذي استخدمناه معًا لا يزال قرب الباب، وعلى الطاولة ترك كتاب مفتوحًا وقطعة قماش مطوية بعناية.

ناديت مرة أخرى، بصوت أعلى.

— جوزيف، أنا هنا.

لم يجب أحد.

وجدته في الغرفة الخلفية.

كان مستلقيًا على السرير الصغير الذي يستخدمه حين يطول عمله، وعيناه مغمضتان. للحظة، ظننته نائمًا. كان المشهد هادئًا إلى درجة قاسية؛ لا شيء مقلوب، ولا زجاج مكسور، ولا أثر لفوضى توحي بأن شيئًا سيئًا قد حدث.

اقتربت منه.

— جوزيف؟

لم يتحرك.

لمست كتفه، ثم هززته برفق.

— هيا، استيقظ. ليس من عادتك أن تتركني أنتظر هكذا.

كانت يده باردة.

تراجعت خطوة، ثم عدت إليه كأن عقلي يرفض ما أخبرني به جسدي. ناديت اسمه مرة أخرى، ووضعت يدي على ذراعه، ثم على كتفه، وبدأت أكرر كلمات لا أذكر أنني اخترتها.

لم يكن هناك جواب.

لا أعرف كم بقيت واقفة قربه. كل ما أتذكره أنني خرجت من الغرفة أخيرًا، وأنا أتعثر بالطاولة، وركضت إلى الشارع أطلب المساعدة.

جاء الطبيب بعد وقت بدا لي أطول من العمر كله.

دخل الغرفة، وفحص جوزيف في صمت. لم يسمح لي بالبقاء إلى جواره، فوقفْت عند الباب أراقب حركاته من خلال الفراغ الضيق، وأنتظر

أن يخرج ليقول إنني أخطأت، وإن جوزيف سيستيقظ بعد قليل، وإن كل ما حدث مجرد سوء فهم سخيف.

لكنه خرج أخيرًا، ونظر إليّ بعينين لا تحملان أي خبر جيد.

— أنا آسف يا آنسة.

لم أسمع بقية كلامه.

لم أفهم كيف يمكن لجملة قصيرة أن تفصل العالم إلى نصفين: عالم كان فيه جوزيف موجودًا، وعالم صار فيه ذكرى.

هززت رأسي.

—لا. افحصه مرة أخرى.

قال الطبيب شيئًا عن وفاته، وعن أن العلامات تشير إلى أنه رحل قبل ساعات، لكنه لم يستطع تحديد السبب بدقة من دون فحص إضافي.

أمسكت بطرف الباب حتى لا أسقط.

— لكنه كان بخير أمس.

لم يجب الطبيب فورًا.

— قد لا تظهر بعض المشكلات بوضوح، يا آنسة. أعرف أن هذا صعب، لكنني لا أريد أن أقدم لك تفسيرًا لا أستطيع تأكيده.

نظرت إليه، ثم إلى الغرفة خلفه.

كان جوزيف قد مات، بينما كنت أنا أؤجل زيارته إلى اليوم التالي.

شعرت بأن هذه الحقيقة وحدها كافية لتجعلني أكره كلمة «غدًا» إلى الأبد.

لم أبكِ أمام الطبيب.

ولم أبكِ حين جاءت ماريان وأخذتني إلى المنزل، ولا حين بدأ الناس يتوافدون لتقديم التعازي. جلست بينهم، أسمع كلمات المواساة تتكرر، وأراقب شفاههم تتحرك كأنهم يتحدثون من خلف زجاج سميك.

قال بعضهم إنه كان رجلًا طيبًا.

وقال آخرون إنه عاش حياة بسيطة ورحل بسلام.

لم أعرف لماذا أثارت العبارة الأخيرة غضبي.

كيف يمكن لأحد أن يعرف إن كان قد رحل بسلام؟ وكيف يمكن لحياة كاملة أن تُختصر في كلمتين، بينما تظل الأشياء الصغيرة التي تركها خلفه قادرة على تمزيق قلب من بقي؟

في المساء، عدت إلى متجره.

لم أحتمل فكرة أن يظل مغلقًا، كأن صاحبه سيعود بعد قليل ويعاتبني لأنني لم أسقِ النباتات. فتحت الباب، وأشعلت المصباح، ثم جلست في المكان الذي اعتدنا أن نتناول فيه الشاي.

كان فنجانه لا يزال على الرف.

مددت يدي نحوه، لكنني لم أنزله. اكتفيت بلمس حافته بأطراف أصابعي، ثم سحبت يدي بسرعة، كأنني ارتكبت خطأ.

على الطاولة وجدت الكتاب المفتوح الذي رأيته صباحًا. أغلقته بحذر، ثم لاحظت ورقة مطوية تحته. لم تكن رسالة، بل قائمة بأسماء نباتات ومواعيد سقايتها، وقد كتب في أسفلها بخطه المألوف:

لا تنسي النبتة الصغيرة قرب السور. تحتاج إلى الماء كل يومين، ولا تكثري منه.

حدقت في العبارة حتى تشوش بصري.

كان يعرف أنني سأعود إلى الحديقة. ربما ظن أنني سأهتم بالنباتات إن غاب لبعض الوقت. لم أستطع أن أعرف إن كان قد كتبها قبل أيام أو قبل أسابيع، لكنني شعرت بأنها موجهة إليّ وحدي.

جلست على الكرسي، ووضعت الورقة أمامي.

ثم بكيت.

لم يكن بكاءً هادئًا ولا جميلًا، ولم أستطع إيقافه حين حاولت. بكيت لأن الرجل الذي لم يطلب مني أن أكون شيئًا سوى نفسي لم يعد موجودًا. بكيت لأنني لم أتمكن من ردّ يده حين وضعها فوق يدي، ولم أخبره أنني كنت أعدّ متجره بيتًا ثانيًا. بكيت لأنني كنت أظن أن لدي وقتًا كافيًا لأقول كل ما لم أقله.

وبكيت، أكثر من أي شيء آخر، لأنني تذكرت عرضي عليه.

القصر، والمال، والخدم، والحياة التي ظننت أنني أستطيع منحها له.

لم أفهم يومها أنه لم يكن يريد شيئًا من ذلك.

كان يريد فقط أن يبقى.

رفعت رأسي نحو الغرفة الخلفية، حيث لم يعد هناك صوت يناديني، ولا خطوات تقترب، ولا رجل يبتسم حين أرتكب خطأ في تسمية نبتة.

للمرة الأولى منذ وفاة أبي، شعرت بأنني فقدت شخصًا لم يترك لي سؤالًا أبحث عن إجابته.

ترك لي فراغًا فقط.

وكان ذلك أقسى من كل الأسرار.

بعد أيام، انتهت مراسم الدفن، وعاد الناس إلى حياتهم.

أما أنا، فلم أستطع العودة إلى حياتي.

كنت أذهب إلى المتجر كل صباح، أفتح النوافذ، وأسقي النباتات، ثم أجلس على كرسيه حتى يحل المساء. لم أكن أفعل ذلك لأنني أعرف ما ينبغي فعله، بل لأنني لم أحتمل فكرة أن أترك المكان يموت معه.

في اليوم الرابع، وبينما كنت أرتب الأوراق في غرفته الخلفية، وجدت كتابًا صغيرًا لم أره من قبل، مخبأ بين مجلدين قديمين. كان غلافه متآكلًا، وصفحاته مليئة بملاحظات بخطه، لكن بين صفحاته الأخيرة ورقة مطوية بعناية.

عرفت خطه فورًا.

جلست قبل أن أفتحها.

لم يكن في الورقة سوى كلمات قليلة، كتبها بقلم خافت، كأنه لم يرد أن يلفت انتباه أحد إليها:

وصيتي كوالدك: إياك أن تقتربي من مقابر الجثث، ولتعيشي حياة طويلة.

قرأت العبارة مرة.

ثم ثانية.

ثم ثالثة.

لم أفهم لماذا كتبها، ولا لماذا اختار أن يصف نفسه بأنه والدي في وصية كهذه، بينما كان طوال حياته يرفض أن يجعل حبه لي دينًا في عنقي.

رفعت الورقة نحو الضوء، بحثًا عن كلمات أخرى، أو علامة، أو شيء يفسر التحذير. لم أجد شيئًا.

كانت الورقة عادية، بلا ختم أو توقيع أو تاريخ.

ومع ذلك، شعرت بأنني أمسك بآخر صوت تركه لي.

وضعتها داخل دفتري، بين الصفحات التي كتبت فيها أسئلتي عن أبي والأمير والمستشفى. ثم أغلقت الدفتر بسرعة، كأنني أخشى أن أقرأها مرة أخرى.

إياك أن تقتربي من مقابر الجثث.

لم أكن أعرف لماذا حذرني من ذلك تحديدًا. لم أخبره بكل الأفكار التي بدأت تراودني في الآونة الأخيرة، ولا بالفضول الذي صار يكبر داخلي كلما وقفت أمام موت لا أستطيع تفسيره.

هل لاحظ شيئًا لم ألاحظه أنا؟

هل كان يخشى عليّ من شيء يعرفه؟

أم أنه أراد فقط أن يحميني من الطريق الذي قد أسلكه إذا تركت حزني يقودني؟

لم أجد جوابًا.

خرجت إلى الحديقة، ووقفت أمام النبتة الصغيرة قرب السور. كانت أوراقها لا تزال طرية، تميل قليلًا نحو الضوء. أحضرت إبريق الماء، وسقيتها كما أوصاني.

ثم جلست إلى جوارها.

— سأعتني بها، يا جوزيف، همست. أعدك.

لم يجبني أحد.

وفي ذلك الصمت، فهمت للمرة الأولى أن بعض الوعود لا نقطعها لأننا نعرف كيف نفي بها، بل لأننا لا نستطيع تحمّل فكرة أن نخسر الشخص الذي طلبها منا.

لم أكن أعرف يومها أنني سأخون وصيته.

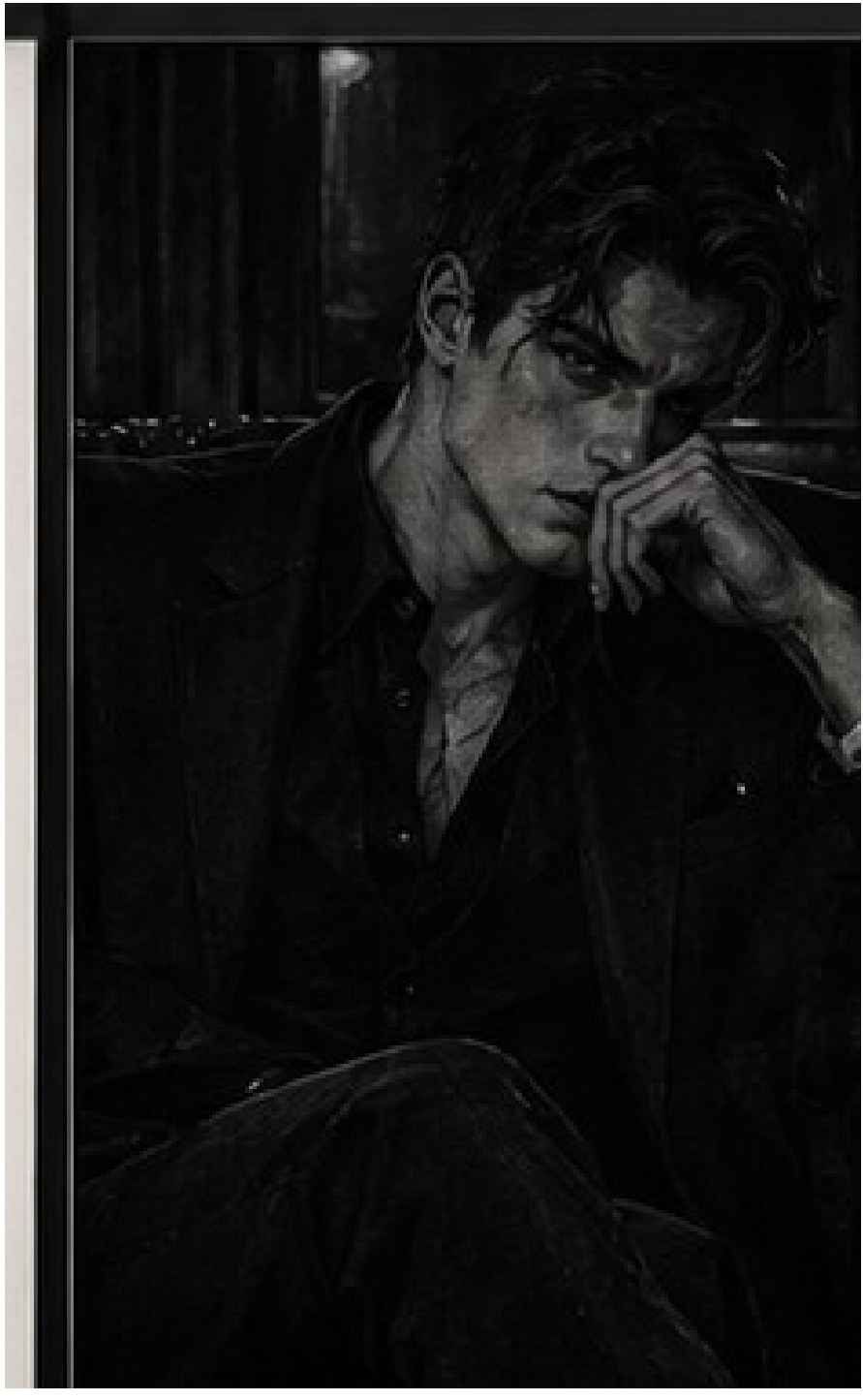
ولم أكن أعرف أنني، حين أقترب من المقابر لاحقًا، لن أكون أبحث عن الموتى وحدهم، بل عن شيء فقدته في نفسي منذ اللحظة التي وجدت فيها جوزيف مستلقيًا بلا حراك.

كنت أظن أنني أريد الحقيقة.

لكن الحقيقة، كما اكتشفت لاحقًا، لم تكن دائمًا الشيء الذي أبحث عنه.

أحيانًا، كنت أبحث عن طريقة لأجعل الموت أقل نهائية.

وذلك كان أول أخطائي التي لم أستطع التراجع عنها.



بعض الأبواب لا تُغلق خلفنا؛ بل تُفتح في داخلنا.

الفصل الحادي عشر

حين يصمت البيت

في الأيام التي تلت موت جوزيف، اكتشفت أن الحزن لا يمنع المرء من أداء الأشياء الضرورية.

كنت أستيقظ، أرتدي ملابسي، أتناول ما تضعه ماريان أمامي، وأذهب إلى المستشفى لمراجعة الحسابات. أجيب عن الأسئلة، وأوقّع الأوراق التي أفهمها، وأطلب تفسيرًا لما لا أفهمه. وحين يعود المساء، أذهب إلى متجر جوزيف، أسقي النباتات، وأجلس في مكانه حتى يحل الظلام.

كان كل شيء يسير كما ينبغي.

إلا أنا.

لم أعد أضحك بسهولة، ولم أعد أحتمل أن يسألني أحد إن كنت بخير. كنت أكره السؤال لأنني لا أملك إجابة، وأكره من ينتظر مني أن أجيب بكلمات مطمئنة، كأن حزني خطأ ينبغي تصحيحه حتى لا يزعج الآخرين.

أما ماريان، فقد توقفت عن سؤالي بعد المرة الثالثة.

كانت تترك مصباحًا مضاءً في الردهة حين أتأخر، وتطلب من الخدم ألّا يزعجوني. لم نتحدث عن جوزيف كثيرًا، لكنها كانت تعرف متى تضع كوبًا من الشاي قرب يدي، ومتى تتركني وحدي.

في إحدى الأمسيات، وجدتها ترتب معطفي عند الباب.

قالت دون أن تنظر إليّ:

—لا يمكنك الاستمرار في الذهاب إلى المتجر كل يوم حتى الليل.

— النباتات تحتاج إلى العناية.

— أعرف. لكنك تحتاجين إليها أكثر مما تحتاج إليك.

أردت أن أعترض، ثم أدركت أنني لا أملك ما أقوله.

كانت محقة، وهذا ما جعلني أكره عبارتها.

أخذت معطفي منها وارتديته.

— سأعود مبكرًا اليوم.

لم أكن أعرف إن كنت أعدها أم أحاول إقناع نفسي.

في المستشفى، كان الدكتور سيلفان ينتظرني في مكتبه.

أمامَه ملفّان وبعض الأوراق التي بدت أكثر سماكة من المرة السابقة. أشار إلى الكرسي المقابل، ثم دفع نحوي تقريرًا ماليًا.

— راجعت الحسابات التي طلبتِ مني التحقق منها. هناك بعض الالتزامات التي يمكن تأجيلها، لكننا بحاجة إلى قرار بشأن العرض الذي قدمه اللورد هول.

جلست وبدأت القراءة.

لم أعد أثق بالعروض السخية. كل شخص بدا مستعدًا لمساعدتي كان يريد شيئًا في المقابل، حتى لو لم يذكره منذ البداية.

— هل تواصل معك مجددًا؟

— أرسل رسالة أمس. يريد جوابًا خلال أسبوع.

أغلقت الملف.

— سأرفض العرض بصيغته الحالية.

رفع سيلفان رأسه.

— هل أنت متأكدة؟ قد يمنحنا ذلك بعض الوقت.

— الوقت الذي نشتريه بالتنازل عن قرارات المستشفى لن يكون وقتًا نملكه حقًا.

تأملني لحظة، ثم أومأ.

— يبدو أنك بدأتِ تفكرين كمديرة.

لم أشعر بالفخر الذي توقعت أن أشعر به يومًا حين أسمع هذه العبارة.

— بل بدأت أفهم كم كان أبي يترك لي من الأمور التي لم أكن مستعدة لها.

لم يعلّق سيلفان. أعاد ترتيب الأوراق، ثم قال:

— هناك أمر آخر. وصلت رسالة من القصر هذا الصباح. الأمير داميان يسأل إن كنتِ قد اتخذتِ قرارًا بشأن المساعدة التي عرضها عليك.

توقفت أصابعي فوق الملف.

لم يمر سوى وقت قصير منذ لقائنا في الحديقة الملكية، ومع ذلك بدا اسمه وكأنه ينتمي إلى حياة أخرى؛ حياة كنت أظن أنني أستطيع تأجيل التفكير فيها حتى أرتب ما تبقى من حياتي القديمة.

— ماذا يريد تحديدًا؟

— لم يذكر تفاصيل جديدة. عرض أن يستقبلنا مجددًا لمناقشة الخيارات المتاحة للمستشفى، وترك لك حرية تحديد الموعد.

نظرت إلى التقرير أمامي.

كنت بحاجة إلى المساعدة، مهما أزعجتني حقيقة ذلك. رفض كل شيء لمجرد أنني أخشى النوايا الخفية لن ينقذ المستشفى، ولن يعيد أبي، ولن يغير ما حدث لجوزيف.

قلت:

— أخبره أنني سأحضر، لكنني أريد الاطلاع على أي اقتراح مكتوب قبل الموافقة عليه.

ابتسم سيلفان ابتسامة خفيفة.

— هذا طلب معقول.

— أتمنى أن يراه الآخرون كذلك.

وصلت رسالة القصر بعد يومين، تحمل موعدًا جديدًا للقاء الأمير في مكتبه الخاص.

لم تكن دعوة إلى حفل، ولم يكن ثمة ما يستدعي ارتداء ثوب فاخر أو الاستعداد لساعات أمام المرآة. ومع ذلك، وقفت طويلًا أمام خزانة ملابسي، ثم اخترت فستانًا داكنًا بسيطًا.

حين نزلت إلى الردهة، كانت ماريان تنتظرني.

تأملتني قبل أن تقول:

— هل أنت ذاهبة من أجل المستشفى، أم لأنك تريدين أن تعرفي المزيد عن الأمير؟

أزعجني السؤال.

— ألا يمكن أن يكون الأمران صحيحين؟

— بالطبع. لكنني أريدك أن تعرفي الفرق بينهما.

أخذت قفازي من الطاولة.

— أنا أعرف ما أفعله.

لم تجادلني، ولم تطلب مني الحذر مجددًا. اكتفت بأن ساعدتني في ارتداء المعطف، ثم قالت:

— أتمنى ذلك يا روران.

كانت نبرتها هادئة، لكنني سمعت فيها شيئًا يشبه الخوف.

لم أسألها عمّا تخافه.

ربما لأنني لم أكن أريد أن أسمع جوابًا آخر لا أستطيع تغييره.

استقبلني داميان في مكتبه، لا في الحديقة هذه المرة.

كانت الغرفة واسعة، تتوزع على جدرانها خزائن الكتب والخرائط، وفي وسطها مكتب داكن خالٍ تقريبًا من الزينة. وقف الأمير حين دخلت، ثم أشار إلى مقعد أمامه.

— شكرًا لأنك جئتِ.

— أشكرك على إتاحة الفرصة لمناقشة الأمر.

وضع ملفًا أمامي.

— هذه مسودة أولية لاقتراح الدعم. لم أطلب من أحد أن يوقع شيئًا نيابة عنك، ولن يحدث ذلك. اقرئيها، وخذي الوقت الذي تحتاجين إليه.

فتحت الملف.

كان الاقتراح يتضمن مساعدة مالية مشروطة بخطة واضحة لإعادة تنظيم المستشفى، مع احتفاظ المؤسسة باستقلالها الطبي. أما القرارات الإدارية الكبرى، فكانت ستحتاج إلى مراجعة مشتركة من لجنة تضم ممثلين عن المستشفى والجهة الداعمة.

لم يكن العرض مثاليًا، لكنه لم يكن سيئًا كما توقعت.

رفعت عيني إليه.

— لماذا لا تقدمون المساعدة من دون التدخل في الإدارة؟

— لأن المال العام لا يُصرف بلا رقابة، ولأن المستشفى يحتاج إلى أكثر من المال كي يستمر.

— وهل تعتقد أنني أستطيع إدارته؟

لم يجب على الفور.

— أعتقد أنك قادرة على التعلم. أما إن كنتِ مستعدة لتولي المسؤولية كاملة الآن، فلا أستطيع أن أحكم بدلًا منك.

لم أعرف لماذا ذكّرني كلامه بجوزيف.

ربما لأن كليهما رفض أن يمنحني إجابة جاهزة عن نفسي.

أعدت نظري إلى الملف.

— سأحتاج إلى مراجعة الشروط مع الدكتور سيلفان.

— بالطبع.

ساد صمت قصير، ثم لاحظت أنه كان ينظر إلى يديّ.

لم أكن قد نزعت قفازيّ تمامًا؛ بقي أحدهما في يدي، بينما كنت أعصر طرف الآخر دون أن أشعر.

قال داميان:

— هل حدث شيء؟

توقفت عن الحركة.

كان بإمكاني أن أقول إنني متعبة، أو إن المستشفى يشغلني، أو إنني لم أنم جيدًا. كان بإمكاني أن أختار إحدى الإجابات التي تسمح للمحادثة بأن تستمر من دون أن يقترب أحد من المكان الذي يؤلمني.

لكنني كنت قد تعبت من إخفاء كل شيء خلف كلمات مرتبة.

— مات شخص كان مهمًا بالنسبة إليّ.

تغيرت ملامحه قليلًا.

— أعتذر عن خسارتك.

— كان أبًا لي، وإن لم يكن أبي بالدم. علّمني أشياء لم أتعلمها من الرجل الذي حمل اسمه في أوراقي.

لم أذكر اسم جوزيف. لم أكن مستعدة لأن أشرح للأمير من يكون، أو لماذا شعرت أن موته أخذ معه الجزء الوحيد من حياتي الذي لم يكن مشروطًا بشيء.

قال داميان بصوت أخفض:

— أحيانًا يكون الأشخاص الذين يمنحوننا شعورًا بالأمان هم آخر من نتوقع أن نفقدهم.

نظرت إليه.

كانت العبارة بسيطة، لكنها أصابت شيئًا عميقًا في داخلي. لم أحاول منع دموعي هذه المرة، إلا أنني لم أبكِ. اكتفيت بالنظر إلى زاوية المكتب حتى استعدت قدرتي على الكلام.

— لم أكن أظن أنني سأندم على أشياء صغيرة إلى هذا الحد.

— مثل ماذا؟

ترددت.

— كان بإمكاني أن أزوره في يوم وفاته، لكنني أجّلت الزيارة إلى الصباح التالي.

لم يقل إنني لم أكن أعرف، أو إنني لم أكن أستطيع منع ما حدث. لم يحاول أن يخفف عني بكلمات يعرفها الجميع.

قال فقط:

—لا تحاسبي نفسك على شيء لم تكوني تعرفين أنه سيكون الأخير.

أغمضت عيني للحظة.

كنت أتمنى لو استطعت تصديق عبارته.

حين فتحت عيني، كان ينظر إليّ بهدوء، من دون فضول جارح أو شفقة ظاهرة. لم أعرف إن كان يفهم حزني فعلًا، لكنني شعرت بأنني أستطيع إنهاء الحديث من دون أن يطالبني بتفسير إضافي.

وهذا جعلني أرتاح إليه أكثر مما ينبغي.

نهضت بعد أن أعدت الملف إلى مكانه.

— سأراجع الاقتراح، ثم أرسل جوابي.

— سأنتظر ردك.

رافقني حتى الباب، ثم توقف قبل أن يفتحه.

— رووران، لا تسمحي للحزن بأن يجعلك تتخذين قرارات لا تشبهك.

نظرت إليه طويلًا.

— أخشى أنني لا أعرف بعد ما الذي يشبهني.

لم يبتسم، ولم يحاول أن يمنحني جوابًا آخر.

— إذن امنحي نفسك وقتًا لتعرفي.

خرجت من مكتبه وأنا أفكر في كلامه، وفي الرجل الذي ترك لي وصية لا أفهمها، وفي الأسئلة التي لم أعد أعرف إن كانت تقودني إلى الحقيقة أم تبعدني عنها.

في تلك الليلة، عدت إلى متجر جوزيف قبل أن أذهب إلى القصر.

كان المطر قد بدأ يهطل، فدخلت وأغلقت الباب خلفي. أشعلت المصباح، ثم وضعت حقيبتي على الطاولة وأخرجت الورقة التي تركها لي.

إياك أن تقتربي من مقابر الجثث، ولتعيشي حياة طويلة.

قرأتها مرة أخرى.

لماذا المقابر تحديدًا؟

كان بإمكاني أن أترك السؤال بلا إجابة، كما نصحني جوزيف طوال الوقت. كان بإمكاني أن أكتفي بأن أحزن عليه، وأن أحافظ على متجره وحديقته، وأن أحاول بناء حياة لا تعتمد على الأسرار.

لكنني لم أعد أستطيع تجاهل الأسئلة.

لم يكن موت جوزيف مفهومًا بالنسبة إليّ. لم أكن أملك دليلًا على أن أحدًا آذاه، ولم أسمع ما يثبت وجود شبهة جنائية. الطبيب لم يجزم بسبب الوفاة، والناس اكتفوا بقبول الأمر بوصفه نهاية رجل أنهكه العمل والعمر.

ومع ذلك، كان في داخلي شيء يرفض أن يهدأ.

ليس لأنني كنت متأكدة من وجود سر، بل لأنني لم أحتمل فكرة أن يموت شخص بهذه الأهمية بالنسبة إليّ، ثم أُطلب مني أن أتابع حياتي كأن الأمر لا يتجاوز خبرًا محزنًا.

وضعت الورقة في دفتري، ثم فتحت الصفحة الأخيرة وكتبت:

لن أسمح للحزن بأن يقرر عني. لكنني لن أتوقف عن السؤال لمجرد أن الإجابة قد تؤلمني.

توقفت، ثم أضفت:

سأعرف ما حدث لك يا جوزيف.

أغلقت الدفتر.

لم تكن تلك الكلمات وعدًا بالانتقام، ولم أكن أعرف حتى إن كان هناك من أنتقم منه. كانت وعدًا بالبحث، لا أكثر.

لكنني لم أدرك أنني كنت أقف عند بداية طريق حذّرني جوزيف منه، وأن كل خطوة فيه ستجعل العودة أصعب.

في الخارج، استمر المطر في الهطول.

وفي الحديقة الصغيرة، قرب السور، انحنت النبتة الفتية تحت قطراته، لكنها بقيت متشبثة بالتراب.

راقبتها من خلف النافذة، ثم أطفأت المصباح.

للمرة الأولى منذ موته، لم أعد إلى المنزل لأنني تعبت من البقاء.

عدت لأنني قررت أن أبدأ من جديد.

ولم أكن أعرف أن بعض البدايات لا تعيد إلينا الحياة التي فقدناها، بل تأخذنا إلى أماكن لم نكن نتصور أننا سنصل إليها.

الفصل الثاني عشر

ما لا يقوله الموت

مرّت سبعة أيام منذ أن كتبت اسمي إلى جانب وعدي لجوزيف.

سبعة أيام لم أكتشف خلالها شيئًا، ولم أقترب من إجابة واحدة. كنت أذهب إلى المستشفى، أراجع الحسابات مع سيلفان، وأحاول أن أبدو كأنني أستعيد حياتي تدريجيًا. لكنني كلما وجدت نفسي أمام ورقة تحمل توقيع أبي، أو سمعت أحدهم يتحدث عن رجل مات فجأة، عادت إليّ الغرفة الخلفية في متجر جوزيف، ببرودتها وصمتها الذي لم أستطع نسيانه.

بدأت أكره كلمة «طبيعي».

كانوا يقولون إن وفاة جوزيف طبيعية، وإن الرجل لم يكن شابًا، وإن جسده ربما أنهكه العمل. وكلما تكررت العبارة، شعرت بأنهم يحاولون إغلاق باب قبل أن أتأكد مما يوجد خلفه.

لم أكن أملك دليلًا على خطئهم.

وهذه كانت مشكلتي.

في صباح اليوم الثامن، كنت في مكتب الدكتور سيلفان حين دخل أحد الممرضين يحمل ملفًا أزرق.

قال وهو يضعه على المكتب:

— هذه تقارير المريض الذي توفي ليلة أمس. طلبتَ مراجعتها قبل إغلاق الملف.

أشار سيلفان إليه بالجلوس، ثم فتح الأوراق وبدأ يقرأ. أما أنا، فتابعت ترتيب الحسابات أمامي، محاوِلةً ألا ألتفت إلى الملف كلما قلب صفحة.

لكنني لم أستطع منع نفسي من السؤال:

— هل كانت وفاته متوقعة؟

رفع سيلفان عينيه.

— ليست تمامًا. كانت حالته معقدة، لكننا لم نتوقع أن يتدهور بهذه السرعة.

— وهل عرفتم السبب؟

— لدينا تفسير مرجح، لكننا نحتاج إلى مراجعة بعض النتائج قبل تأكيده.

أغلقت الدفتر الذي كنت أعمل عليه.

— هل ستجرون فحصًا بعد الوفاة؟

نظر إليّ سيلفان لحظة، ثم أعاد الملف إلى مكانه.

— سيُجرى الفحص إذا استدعت الحالة ذلك، وبعد استكمال الإجراءات وموافقة الأسرة. لماذا تسألين؟

لم أحب الطريقة التي جعلت السؤال يبدو كأنه اعتراف.

— لأنني أريد أن أفهم كيف يمكن لجسد أن يبدو مستقرًا، ثم يموت بهذه السرعة.

— هذا سؤال طبي مشروع. لكن عليكِ أن تتذكري أن كل حالة تختلف عن الأخرى، وأننا لا نستطيع استخلاص نتيجة من واقعة واحدة.

أومأت، إلا أنني كنت أفكر في شيء آخر.

ماذا لو كان هناك ما لم ينتبه إليه الطبيب الذي فحص جوزيف؟ ماذا لو لم تكن وفاته كما اعتقد الجميع؟

لم أقل ذلك بصوت مرتفع. لم أكن أريد أن أبدو كمن تبحث عن جريمة لمجرد أنها عاجزة عن تقبل الموت.

نهض سيلفان واتجه إلى الخزانة، ثم أخرج كتابًا طبيًا قديمًا ووضعه أمامي.

— إن كنتِ تريدين فهم الأمر، فابدئي من هنا. هناك فصول عن أسباب الوفاة، وحدود ما يمكن استنتاجه من الفحص، والفرق بين الملاحظة والافتراض.

فتحت الكتاب.

— هل تظن أنني أستطيع تعلّم ذلك؟

— تستطيعين تعلّم الأساسيات. أما الحكم على الحالات، فيحتاج إلى تدريب وخبرة ومسؤولية لا يمكن اختصارها في القراءة.

أغلقت الكتاب ببطء.

— أفهم.

نظر إليّ كأنه يريد أن يقول شيئًا آخر، لكنه اكتفى بإضافة:

— المعرفة لا تعني أننا نستطيع تغيير ما حدث، يا رووران. أحيانًا تساعدنا فقط على فهمه.

لم أجب.

كنت قد سمعت كلامًا مشابهًا من جوزيف، لكنني لم أعد أستطيع تقبّل فكرة أن الفهم قد يكون كل ما أحصل عليه.

في ذلك المساء، ذهبت إلى متجر جوزيف ومعي الكتاب.

جلست قرب النافذة وبدأت القراءة. لم أكن أبحث عن طريقة لأصبح طبيبة بين ليلة وضحاها، بل عن تفسير يجعل موت جوزيف أقل غموضًا. قرأت عن العلامات التي قد يتركها المرض، وعن الحالات التي يصعب تحديد سبب الوفاة فيها، وعن أهمية معرفة التاريخ الصحي للمتوفى.

كلما انتهيت من فقرة، وجدت أمامي ثلاثة أسئلة جديدة.

لم أكن أعرف ما الذي حدث لجوزيف قبل أن أجده. لم أكن أعرف متى شعر بالتعب، ولا إن كان قد أخبر أحدًا عن ألم تجاهله، ولا لماذا بدا شاحبًا في اليوم الأخير الذي رأيته فيه.

كنت قد لاحظت ذلك، ومع ذلك تركته يطمئنني بكلمتين.

أغلقت الكتاب، وضغطت كفيّ على عينيّ.

لم أكن أريد أن أحوّل ذكرياتي معه إلى قائمة من العلامات التي كان ينبغي أن أنتبه إليها. لم يكن جوزيف حالة طبية بالنسبة إليّ. كان الرجل الذي ترك لي مقعده قرب النافذة، والذي صنع لي الشاي حين أعجز عن الكلام، والذي لم يطلب مني يومًا أن أكون شخصًا آخر.

لكنني كنت أخشى أن يكون في تلك الذكريات شيء فاتني.

نهضت واتجهت إلى الغرفة الخلفية. رتبت الأدوات القديمة التي تركها، ثم توقفت أمام الباب الصغير الذي كان يؤجل السماح لي بدخوله طوال أسابيع.

كان الباب مفتوحًا الآن.

لم أدخله منذ وفاته.

وقفت عند العتبة، ونظرت إلى الداخل. لم تكن الغرفة مختلفة عما أتذكره؛ رفوف تحمل كتبًا وأوعية، وطاولة عليها أدوات قديمة، وصندوق خشبي في الزاوية. لم يكن فيها شيء يوحي بالخطر، ومع ذلك شعرت بأنني أتجاوز حدًا كان جوزيف قد رسمه بوضوح.

تذكرت وعدي له بألا ألمس شيئًا من دون إذنه.

كان قد رحل، لكن الوعد لم يرحل معه.

دخلت ببطء، واكتفيت بالنظر إلى الرفوف. وجدت دفترًا صغيرًا بين كتابين، لكنني لم أفتحه. وحين هممت بالخروج، لاحظت ورقة مثبتة إلى الجدار، كُتبت عليها أسماء نباتات وملاحظات قصيرة بخطه.

في أسفل الورقة، كانت هناك عبارة:

ليس كل ما يمكن معرفته يستحق أن نطارده.

وقفت أمامها طويلًا.

ثم أطفأت المصباح وخرجت.

للمرة الأولى، شعرت بأن جوزيف لم يكن يحذرني من الموت وحده، بل من شيء قد أفعله أنا حين أعجز عن تقبّل ما لا أستطيع تغييره.

بعد يومين، استدعاني سيلفان إلى المستشفى.

كان ينتظرني في الممر المؤدي إلى غرفة الفحص، وإلى جانبه طبيب أكبر سنًا لم أره من قبل.

قال سيلفان:

— أريد أن أعرّفك إلى الدكتور ألبير. جاء لمراجعة بعض الحالات التي أثارت أسئلة طبية، وقد وافق على أن تستمعي إلى مناقشة إحداها، ما دمتِ ملتزمة بحدود دورك.

صافحت الطبيب، ثم تبعتهما إلى غرفة صغيرة تحوي طاولة وملفات مرتبة بعناية.

لم يكن هناك جسد أمامنا، ولم أطلب ذلك. كان الملف وحده كافيًا ليجعلني أشعر بثقل الموضوع.

بدأ الدكتور ألبير بشرح الحالة، وراجع مع سيلفان الأعراض التي ظهرت قبل الوفاة، والنتائج التي توفرت، والاحتمالات التي لا يمكن الجزم بها. كنت أستمع وأسجل الملاحظات، ثم أطرح سؤالًا حين لا أفهم مصطلحًا أو علاقة بين علامتين.

لم يمدحني الطبيب، ولم يعاملني كأن فضولي يمنحني خبرة لا أملكها. كان يصحح أخطائي بهدوء، ويطلب مني التمييز بين ما ورد في الملف وما أستنتجه أنا.

في نهاية المناقشة، أشار إلى ملاحظاتي.

— لديكِ عين جيدة للتفاصيل، لكنك تنتقلين أحيانًا من الملاحظة إلى الاستنتاج بسرعة.

نظرت إلى الصفحة.

كان محقًا. لقد كتبت في الهامش أن أحد الأعراض قد يشير إلى سبب معين، مع أن المعلومات لم تكن كافية لتأكيده.

شطبت العبارة.

— كيف أتجنب ذلك؟

— بأن تتعلمي احتمال بقاء السؤال بلا إجابة. الطبيب الجيد لا يخجل من قول إنه لا يعرف، ولا يملأ الفراغ بتفسير يعجبه.

تذكرت جوزيف على الفور.

كان يقول لي شيئًا قريبًا من هذا كلما حاولت التظاهر بأنني فهمت نبتة لم أعرف اسمها.

بعد أن غادر الطبيب، بقيت مع سيلفان في الغرفة.

قال:

— هل ساعدك هذا؟

— نعم.

— هل تبحثين عن تفسير لموت جوزيف؟

لم أجب مباشرة.

نظرت إلى الملف المغلق أمامي، ثم قلت:

—لا أعرف إن كنت أبحث عن تفسير، أم عن شيء يجعلني أشعر بأنني لم أقف عاجزة أمام موته.

لم يحاول سيلفان إقناعي بأن الأمرين مختلفان.

قال فقط:

— يمكنك أن تتعلمي، وأن تسألي عن المعلومات المتاحة. لكن لا تسمحي لحزنك بأن يجعلك تتهمين أحدًا من دون دليل، ولا تسمحي له بأن يدفعك إلى تجاوز ما تعرفين أنه صحيح.

أومأت.

كنت أريد أن أعده بذلك، لكنني لم أستطع. لم أكن أنوي ارتكاب خطأ، ومع ذلك لم أعد أثق بقدرتي على معرفة اللحظة التي يبدأ فيها الخطأ.

في طريق عودتي، طلبت من السائق أن يتوقف قرب متجر جوزيف.

لم أخبره بالسبب. نزلت وحدي، وسرت حتى وصلت إلى الحديقة الخلفية. كان المطر قد توقف، وبقيت قطرات الماء معلقة على أطراف الأوراق.

جلست قرب النبتة الصغيرة التي أوصاني بها.

لقد نمت قليلًا، وصارت لها ورقتان جديدتان. لم يكن نموها ملحوظًا لمن يمر بها مصادفة، لكنني كنت أعرف شكلها قبل أيام، ولذلك رأيت الفرق.

مددت إصبعي نحو إحدى الورقتين، ثم سحبته قبل أن ألمسها.

— أنتِ محظوظة، همست لا أحد يطلب منك أن تفسري لماذا بقيتِ على قيد الحياة.

ضحكت ضحكة قصيرة، ثم أدركت كم بدت العبارة قاسية.

اعتذرت للنبتة بصوت خافت، كأن جوزيف قد يسمعني من مكان ما، ثم نهضت لأحضر الماء.

عندما عدت إلى الطاولة، وجدت أنني نسيت كتاب الطب فوقها. فتحته على الصفحة التي توقفت عندها في الصباح، وقرأت الجملة الأخيرة مرة أخرى.

ليس كل سؤال يمكن الإجابة عنه، لكن السؤال الجيد يبدأ بما نعرفه، لا بما نخافه.

لم أتذكر إن كانت العبارة من الكتاب أم من ملاحظاتي، لكنني كتبتها في دفتري على أي حال.

ثم أضفت تحتها سؤالًا واحدًا:

ما الذي أعرفه حقًا عن موت جوزيف؟

كتبت الحقائق التي أملكها، واحدة تلو الأخرى. كان متعبًا في آخر يوم رأيته فيه. وجدته ميتًا في صباح اليوم التالي. لم يكن الطبيب قادرًا على تحديد السبب بدقة. لم أسمع بوجود عداوة بينه وبين أحد، ولم أملك دليلًا على أن وفاته لم تكن طبيعية.

توقفت عند السطر الأخير.

لم تكن لديّ إجابة.

لكنني، للمرة الأولى، امتلكت قائمة واضحة بما ينقصني بدلًا من أن أملأ رأسي باحتمالات لا نهاية لها.

أغلقت الدفتر ووضعته في حقيبتي.

في اليوم التالي، سأطلب من الطبيب الاطلاع على ما يمكن الاطلاع عليه من المعلومات المتعلقة بوفاة جوزيف، وفق الإجراءات المتاحة. لن أقتحم أبوابًا مغلقة، ولن أعبث بما لا أفهمه. سأبدأ من الحقائق، كما علّمني الاثنان اللذان فقدتهما بطرق مختلفة.

كان ذلك قرارًا معقولًا.

وربما كان أكثر ما أخافني فيه أنني شعرت بالراحة بعد اتخاذه.

لم أكن أعرف أنني سأكتشف قريبًا أن الحقائق لا تأتي دائمًا في هيئة إجابات واضحة، وأن بعض الأشخاص يتركون وراءهم فراغًا أكبر مما يستطيع تقرير طبي أن يملأه.

عدت إلى المنزل مع حلول المساء.

وقبل أن أنام، فتحت دفتري مرة أخيرة، وقرأت وصية جوزيف.

إياك أن تقتربي من مقابر الجثث، ولتعيشي حياة طويلة.

هذه المرة، لم أعد الورقة إلى مكانها فورًا.

وضعتها أمامي، ثم كتبت في الصفحة المقابلة:

سأحاول أن أفهم لماذا طلبت مني ألّا أذهب إلى هناك.

وبعد لحظة، أضفت:

لكنني لن أنسى أنك طلبت مني أن أعيش.

أغلقت الدفتر، وأطفأت المصباح.

لم أكن قد تجاوزت حزني، ولم أكن قريبة من ذلك.

لكن الحياة، على قسوتها، لم تتوقف لتمنحني الوقت الكافي كي أتعلم كيف أعيش من دونه.

وكان عليّ أن أتابع السير، حتى لو لم أكن أعرف إلى أين يقودني الطريق.

الفصل الثالث عشر

أثرٌ لم يمحُه المطر

في صباح اليوم التالي، ذهبت إلى المستشفى قبل موعدي المعتاد.

لم أخبر ماريان إلى أين سأذهب، ولم أشرح لها لماذا حملت معي دفترًا صغيرًا بدلًا من الملفات التي اعتدت أخذها. كنت أخشى أن تتحول أسئلتي، بمجرد أن أنطق بها، إلى شيء أكبر مني؛ أن يسمعها أحد فيحاول إقناعي بالتوقف، أو أن أسمعها أنا فأكتشف أنني لم أعد أبحث عن إجابة بقدر ما أبحث عن سبب أعلّق عليه ألمي.

وجدت الدكتور سيلفان في مكتبه، يراجع أوراقًا قرب النافذة.

رفع رأسه حين دخلت.

— تبدين وكأنك لم تنامي.

— نمت قليلًا.

— وهذا ليس جوابًا.

جلست قبالته، ووضعت دفتري على الطاولة.

— أريد أن أعرف ما الذي سُجّل رسميًا بشأن وفاة جوزيف.

توقفت يده فوق الورقة التي كان يقرأها.

— هل حدث شيء جديد؟

—لا. وهذا ما يزعجني.

لم يجب فورًا. أغلق الملف أمامه، ثم شبك أصابعه.

— رووران، أنا أفهم أنك تريدين تفسيرًا. لكنني لست الطبيب الذي فحصه، ولا أملك صلاحية الوصول إلى كل سجل يتعلق بوفاته.

—لا أطلب منك أن تخبرني بشيء لا تعرفه. أريد فقط أن أعرف من يمكنه مساعدتي بطريقة قانونية.

بقي ينظر إليّ للحظات، ثم أومأ.

— يمكننا أن نبدأ بطلب نسخة من التقرير المتاح، إن كانت الإجراءات تسمح بذلك. وإذا بقي سبب الوفاة غير واضح، فهناك جهة مختصة يمكنها توضيح ما إذا كانت هناك معلومات إضافية أو مراجعة ممكنة.

شعرت بشيء من الارتياح، لكنه لم يكن راحة كاملة. كنت أريد أن يفتح لي بابًا، وقد فعل، غير أنني أدركت أن خلفه ممرًا طويلًا من الانتظار والأسئلة.

قلت:

— شكرًا.

— لكن أريد منك شيئًا في المقابل.

رفعت عيني إليه.

— ماذا؟

—لا تدعي الشك يسبق الدليل لا نعرف حتى الآن إن كان في وفاة جوزيف ما يستدعي الشبهة.

نظرت إلى الدفتر أمامي.

— أعرف.

— هل تعرفين فعلًا؟

أزعجني السؤال، لأنني لم أستطع أن أجيبه بالثقة نفسها التي أجبت بها أول مرة.

أخذت دفتري ونهضت.

— سأحاول.

لم يكن ذلك وعدًا مثاليًا، لكنه كان أصدق ما استطعت قوله.

بعد يومين، وصلتني رسالة من الجهة المختصة.

لم تحمل إجابة حاسمة، ولم تتضمن ما يشير إلى وجود شبهة جنائية. أكدت أن المعلومات المتاحة لا تسمح بالجزم بسبب الوفاة على نحو أدق، وأن أي مراجعة إضافية تتطلب سببًا واضحًا وإجراءات رسمية.

قرأت الرسالة ثلاث مرات.

لم تكن هناك جملة أستطيع التمسك بها، ولا خطأ واضح أستطيع الإشارة إليه. كان كل شيء منظمًا، هادئًا، ومحبطًا إلى درجة جعلتني أشعر بأنني أصطدم بجدار لا أستطيع حتى أن ألومه.

وضعت الرسالة في الدرج، ثم أخرجتها بعد دقائق.

لماذا كنت أتوقع أن أجد فيها شيئًا مختلفًا؟

هل كنت أريد دليلًا على أن جوزيف لم يمت مصادفة، لأن فكرة موته من دون معنى بدت لي أقسى من احتمال أن يكون أحدهم قد تسبب فيه؟

أغلقت الدرج بعنف، ثم وقفت عند النافذة.

في الشارع، كان الناس يمضون في أعمالهم. عربة تمر، وبائع ينادي، وطفل يركض خلف كرة صغيرة. لم يتغير العالم لأن جوزيف مات. لم يتوقف أحد ليسأل كيف يمكن لرجل أن يختفي من حياة شخص آخر، تاركًا خلفه متجرًا مليئًا بالأشياء التي لا تعرف كيف تواصل وجودها من دونه.

كرهت العالم قليلًا في تلك اللحظة.

ثم كرهت نفسي لأنني توقعت منه أن يتصرف على نحو مختلف.

في المساء، ذهبت إلى المتجر.

كان عليّ أن أعتني بالنباتات، وأن أرتب بعض الأوراق، وأن أفعل شيئًا لا يجعلني أشعر بأنني مجرد شخص ينتظر خبرًا لن يأتي.

فتحت النوافذ، وأدخلت الهواء البارد، ثم بدأت أراجع الدفاتر الموجودة على الرفوف. لم أكن أفتش عن سر، بل أحاول معرفة ما الذي يحتاج إلى ترتيب، وما الذي ينبغي الاحتفاظ به، وما الذي يمكن نقله إلى مكان أكثر أمانًا.

وجدت بين أوراق قديمة إيصالًا صغيرًا يعود إلى أيام قليلة قبل وفاة جوزيف.

كان يحمل اسم بلدة تقع عند الطرف الشرقي من المملكة، قرب الأراضي التي تبدأ بعدها الغابات الكثيفة. لم تكن البلدة مجهولة بالنسبة إليّ؛ سمعت عنها من قبل، لأنها تضم حدائق واسعة تُزرع فيها أنواع من النباتات التي لا تنمو بسهولة في المدينة.

قلبت الإيصال.

كان ثمة اسم متجر، وتاريخ، ومبلغ بسيط مقابل أدوات ومواد لم أستطع تحديدها من الوصف المختصر.

لم يكن في الورقة ما يدعو إلى القلق.

ومع ذلك، تذكرت آخر مرة رأيت فيها جوزيف واقفًا في الحديقة. تذكرت شحوب وجهه، والطريقة التي تمايل بها قبل أن يستعيد توازنه، ثم تذكرت أنه لم يخبرني يومها بكل ما كان يفعله.

هل ذهب إلى تلك البلدة قبل وفاته؟

لم أستطع الجزم. كان الإيصال قديمًا بما يكفي لأن يكون متعلقًا بزيارة سابقة، ولم يكن التاريخ واضحًا تمامًا بسبب بقعة ماء طمست جزءًا منه.

أعدته إلى الطاولة، ثم بحثت في الدفتر المجاور عن أي إشارة إلى المكان. وجدت ملاحظات عن نباتات مختلفة، وأسماء أشخاص اشترى منهم جوزيف البذور والأدوات، لكنني لم أعثر على شيء يربط الإيصال بوفاته.

كدت أترك الأمر عند ذلك الحد.

ثم لاحظت ورقة أخرى مطوية داخل الغلاف الخلفي للدفتر. لم تكن رسالة، بل قائمة قصيرة بأسماء نباتات، وإلى جانب بعضها إشارات تدل على أماكن جمعها.

كان اسم البلدة موجودًا مرة أخرى.

هذه المرة، لم أستطع تجاهله بسهولة.

أغلقت الدفتر واحتفظت بالورقتين معًا، ثم جلست أفكر.

ربما كان جوزيف يذهب إلى هناك بانتظام. ربما اشترى النباتات من متجر محلي. وربما لم يكن للأمر كله أي علاقة بما حدث له.

لكنني كنت أعرف شيئًا واحدًا: إن أردت فهم الأيام الأخيرة من حياته، فعليّ أن أعرف كيف كان يقضيها.

لم أكن أملك اتهامًا، ولا دليلًا على جريمة.

كنت أملك أثرًا صغيرًا فقط.

وأحيانًا، يكون الأثر الصغير بداية الطريق الوحيد المتاح.

في اليوم التالي، وجدت رسالة جديدة على مكتبي في القصر.

كان ختمها ملكيًا، لكن الخط هذه المرة لم يكن خط الرسالة الأولى. فتحتها، فوجدت دعوة إلى حضور اجتماع قصير في القصر لمناقشة الاقتراح المالي الخاص بالمستشفى.

لم يكن من الغريب أن يتابع داميان الأمر؛ فالمؤسسة التي عرض دعمها تحتاج إلى قرارات واضحة، وأنا التي طلبت مراجعة الشروط قبل الموافقة.

ومع ذلك، وجدت نفسي أتأمل الرسالة أكثر مما تستحق.

لم أكن أريد أن أخلط بين حاجتي إلى المساعدة وبين فضولي تجاه الأمير. كنت قد كتبت ذلك في دفتري، وحاولت أن أتعامل معه كقاعدة لا ينبغي تجاوزها.

لكن القواعد تصبح أصعب حين تتعلق بشيء لا نرغب في الاعتراف به.

ارتديت ثوبًا داكنًا، وأخذت معي نسخة من الاقتراح، ثم توجهت إلى القصر.

استقبلني داميان في غرفة أصغر من مكتبه السابق. كانت النوافذ تطل على ساحة داخلية، وتنتشر على الطاولة خرائط وأوراق تتعلق بالمستشفى.

نهض حين دخلت.

— آنسة كاسيان.

— سمو الأمير.

أشار إلى المقعد المقابل.

— هل راجعتِ الشروط؟

— نعم. لديّ بعض الملاحظات.

بدأنا مناقشة البنود واحدًا تلو الآخر. طلبت توضيحًا بشأن حدود تدخل الجهة الداعمة في القرارات الإدارية، واقترحت أن تُراجع النتائج المالية كل ثلاثة أشهر بدلًا من ترك المراجعة مفتوحة المواعيد. استمع داميان من دون مقاطعة، ثم طلب من مستشاره تدوين التعديلات المقترحة.

لم أكن أتوقع أن يؤخذ كلامي بهذه الجدية.

حين انتهينا، جمع الأوراق وقال:

— أعتقد أننا نستطيع التوصل إلى صيغة مناسبة.

— إذا اتفقنا على استقلال القرارات الطبية، فسيكون ذلك ممكنًا.

— لن أطلب منك التخلي عن أمر لم نتفق عليه أصلًا.

نظرت إليه، محاوِلةً أن أميز إن كان يتحدث بصدق أم أنه يجيد اختيار العبارات التي تجعل الآخرين يطمئنون إليه.

ثم سألني:

— هل عدتِ إلى المستشفى اليوم؟

— نعم.

— وكيف تسير الأمور؟

— ببطء.

— أحيانًا يكون البطء أفضل من إصلاح سريع يترك المشكلة في مكانها.

كدت أبتسم، لكنني تذكرت أن جوزيف كان يقول شيئًا مشابهًا حين أحاول إجبار نبتة على النمو.

لاحظ داميان تغير ملامحي.

— هل ذكّرك كلامي بشيء؟

لم أكن أنوي الحديث عن جوزيف مجددًا، لكنني وجدت نفسي أقول:

— كان هناك رجل علّمني ألّا أستعجل النتائج. مات قبل أن أتمكن من شكره كما ينبغي.

لم يبدُ عليه الضجر من عودتي إلى الموضوع.

— يبدو أنه كان شخصًا مهمًا بالنسبة إليك.

— كان الشخص الوحيد الذي لم يطلب مني أن أكون شيئًا مختلفًا عما أنا عليه.

سكتُّ لحظة، ثم أضفت:

— لم يكن يهتم باسمي أو بمالي. كان يكفيه أن أزوره، وأن أتعلم شيئًا جديدًا، وألا أكذب حين لا أعرف الإجابة.

نظر داميان إلى الأوراق أمامه، ثم قال:

— ربما لهذا السبب يصعب علينا فقدان بعض الأشخاص. لأننا لا نفقد وجودهم فقط، بل نفقد الطريقة التي كنا نرى بها أنفسنا حين نكون معهم.

رفعت عيني إليه.

لم تكن جملة متكلفة، ولم يقلها بنبرة رجل يريد أن يبدو حكيمًا. ومع ذلك، شعرت بأنها وصلت إلى مكان لم أسمح لأحد بالاقتراب منه منذ وفاة جوزيف.

للمرة الأولى، لم أرَ في داميان ولي العهد وحده، بل رجلًا يستطيع أن يستمع دون أن يحاول السيطرة على الحديث.

كان ذلك انطباعًا، لا حقيقة مؤكدة.

ومع ذلك، وجدتني أتمسك به.

حين انتهى اللقاء، عرض داميان أن يرافقني إلى الممر المؤدي إلى البوابة.

سرنا بصمت في البداية، ثم توقف قرب نافذة تطل على الحديقة.

— هل تزورين الحدائق كثيرًا؟ سأل.

— كنت أزور حديقة صغيرة باستمرار.

— هل كانت لك؟

— ليست ملكي. كانت لرجل أحب النباتات أكثر مما أحب أي شيء آخر.

ابتسم ابتسامة خفيفة.

— يبدو أنني سأحتاج إلى الحذر إن أردت أن أريك الحديقة الملكية مرة أخرى. قد تقارنينها بها وتجدينها أقل شأنًا.

—لا أعتقد أن الأمر يتعلق بحجم الحديقة.

— بماذا يتعلق إذن؟

ترددت قبل أن أجيب.

— بمن يسمح لك أن تكون على طبيعتك داخلها.

ظل ينظر إليّ للحظات، ثم قال:

— هذا معيار صعب.

— لكنه عادل.

لم يرد، واكتفى بفتح الباب المؤدي إلى الخارج.

حين وصلت إلى العربة، التفتُّ إليه. كان واقفًا عند المدخل، يبادلني نظرة هادئة لا أعرف إن كانت تحمل اهتمامًا حقيقيًا أم مجرد لباقة ملكية.

أومأت له، ثم صعدت.

طوال الطريق، حاولت أن أقنع نفسي بأنني كنت أفكر في المستشفى فقط، وفي الأوراق التي ينبغي تعديلها، وفي الإيصال الذي وجدته في متجر جوزيف.

لكنني كنت أتذكر أيضًا الطريقة التي أصغى بها داميان إليّ.

لم أكن مستعدة للاعتراف بأن حضوره بدأ يؤثر فيّ. لم أكن أعرفه بما يكفي، ولم تكن الثقة شيئًا يمنح لرجل لمجرد أنه قال الكلمات المناسبة في الوقت المناسب.

ومع ذلك، لم أستطع إنكار فضولي نحوه.

عندما وصلت إلى المنزل، وجدت ماريان في الردهة.

— كيف كان الاجتماع؟

نزعت قفازي ووضعت الملف على الطاولة.

— أفضل مما توقعت. وافقوا على مراجعة الشروط.

— وهل ستقبلين المساعدة؟

— إذا بقي الاتفاق كما ناقشناه.

أومأت ماريان، ثم لاحظت الورقتين اللتين أخرجتهما من حقيبتي.

— ما هاتان؟

ترددت، ثم ناولتها الإيصال والقائمة.

— وجدتهما في متجر جوزيف. يبدو أنه زار بلدة عند أطراف المملكة قبل وفاته، أو اشترى منها بعض الأشياء.

قرأت ماريان الورقتين، ثم أعادتهما إليّ.

— كان يذهب أحيانًا إلى أماكن بعيدة لجمع النباتات. أخبرني بذلك مرة، لكنه لم يذكر أسماء الأماكن.

رفعت رأسي بسرعة.

— هل تعرفين إن كان قد ذهب إلى هناك مؤخرًا؟

—لا أعرف. لكن إن كنتِ تريدين التأكد، فابحثي في دفاتره. كان يسجل مواعيده حين يخشى أن ينساها.

تأملت الورقة في يدي.

لم يكن هذا دليلًا على شيء. لكنه منحني خطوة عملية، بدلًا من الوقوف أمام الأسئلة نفسها كل ليلة.

قلت:

— سأراجع دفاتره غدًا.

نظرت إليّ ماريان بقلق.

—لا تنسي ما قاله لك الطبيب. ابحثي عن الحقيقة، لكن لا تسمحي للشك بأن يصنعها لك.

أعدت الورقتين إلى حقيبتي.

— لن أفعل.

لم أكن متأكدة تمامًا من قدرتي على الوفاء بهذا الوعد، لكنني كنت أريد أن أصدق أنني ما زلت أستطيع التمييز بين ما أعرفه وما أخشاه.

في تلك الليلة، فتحت دفتري وكتبت ثلاثة أسئلة:

متى ذهب جوزيف إلى البلدة؟

لماذا ذهب؟

هل كان هناك ما يقلقه قبل وفاته؟

لم أكتب اسم داميان، ولم أكتب اسم أبي، ولم أكتب كلمة جريمة.

لم يكن لديّ ما يبرر ذلك.

أغلقت الدفتر، ووضعت الأوراق في درج منفصل عن وصية جوزيف.

ثم بقيت جالسة في الظلام قليلًا، أفكر في الطريق إلى أطراف المملكة، وفي الحديقة التي تركها رجل علّمني كيف أصبر، وفي ولي عهد جعلني أشعر بأن الحديث معه أسهل مما ينبغي.

لم أكن أعرف أي هذه الطرق سيقودني إلى الإجابة.

لكنني كنت أعرف أنني لن أستطيع البقاء في مكاني طويلًا.

وفي صباح اليوم التالي، بدأت أبحث عن وسيلة للسفر إلى البلدة.

الفصل الرابع عشر

البلدة التي لا تنام فيها القبور

لم أخبر أحدًا أنني سأغادر القصر.

قلت لماريان إنني أريد بضعة أيام بعيدًا عن ضجيج المستشفى، وإنني سأعود قبل أن تتراكم الأوراق على مكتبي. لم تسألني عن الوجهة، لكنها نظرت إلى الحقيبة الصغيرة التي وضعتها قرب الباب، ثم إلى الدفتر الجلدي الذي لم يفارق يدي منذ اكتشفت الإيصال في متجر جوزيف.

— هل أنت متأكدة أنك بخير يا آنسة؟

كدت أضحك.

لم أكن بخير، لكنني لم أعد أعرف إن كان ذلك يعني أنني حزينة، أم غاضبة، أم أنني بدأت أعتاد الفراغ الذي تركه جوزيف حتى صار جزءًا من يومي.

قلت وأنا أُغلق الحقيبة:

— سأكون بخير حين أفهم ما الذي كان يخشاه.

لم تبدُ ماريان مقتنعة. ومع ذلك، لم تمنعني.

غادرت قبل شروق الشمس، حين كان القصر غارقًا في سكون رمادي، والطرقات لا تزال تحتفظ ببرودة الليل. جلست في العربة قرب النافذة، وفتحت دفتر جوزيف للمرة التي لم أعد أستطيع عدّها.

كانت كتابته صغيرة، دقيقة، ومنظمة على نحو يثير الغيظ. أسماء نباتات، ملاحظات عن التربة، تواريخ لرحلات قديمة، ورسومات لأوراق لم أرَ بعضها من قبل. بين الصفحات، ظهرت كلمات هامشية بدت كأنها كُتبت على عجل.

«التربة الشرقية تحتفظ بالرطوبة أكثر مما ينبغي.»

وفي صفحة تالية:

لا تُجمع هذه النبتة بعد الغروب. الرائحة تتغير، والأثر ليس كما يبدو.»

توقفت عند العبارة الأخيرة.

لم يكن جوزيف يكتب بهذه الطريقة عادة. كان يشرح الأشياء، حتى تلك التي لا يفهمها تمامًا. أما هنا، فقد كتب ملاحظة مقتضبة، كأنه لا يريد أن يترك لنفسه مجالًا لنسيانها.

قلبت الصفحة.

وجدت رسمًا لنبتة ذات أوراق ضيقة وحواف مسننة، وإلى جانبها اسم البلدة التي كنت أقصدها: إيفيرن.

تحت الاسم، خطّ جوزيف جملة قصيرة:

«الحديقة القديمة ليست مكانًا مناسبًا للأسئلة.»

أعدت قراءة الكلمات.

مرة.

ثم مرة أخرى.

لماذا ذهب إلى هناك؟ ولماذا احتاج إلى تحذير نفسه من طرح الأسئلة في مكان يجمع النباتات؟

أغلقت الدفتر، لكن العبارة بقيت في رأسي، تتكرر بإلحاح حتى بدأت أشعر بأنني لا أبحث عن إجابة فحسب، بل أطارد شيئًا يفرّ مني كلما اقتربت منه.

وصلت إلى إيفيرن بعد الظهيرة.

كانت البلدة قائمة عند الطرف الشرقي من المملكة، حيث تنخفض التلال نحو غابات كثيفة، وتنتشر خلف الأسوار القديمة حدائق واسعة كانت تُزرع فيها النباتات الطبية منذ أجيال. بدت البيوت حجرية، متقاربة، والنوافذ صغيرة، كأن أهلها تعلّموا منذ زمن طويل ألّا يمنحوا الغرباء أكثر مما يلزم من الضوء.

لم تكن البلدة موحشة تمامًا، لكنها امتلكت سكوتًا غريبًا. حتى السوق بدا أقل صخبًا من أسواق المدن الأخرى، وكان الناس يخفضون أصواتهم حين يمرّ أحد الحراس بثياب المملكة الرسمية.

استأجرت غرفة في نُزل صغير قرب الساحة، ثم أخرجت الإيصال من جيبي وسألت صاحب النُزل عن اسم المتجر المكتوب عليه.

تغير وجهه قليلًا.

لم يكن تغيرًا كبيرًا؛ مجرد تردد في عينيه قبل أن يعود إلى ترتيب الأكواب خلف المنضدة.

— المتجر القديم أُغلق منذ أشهر.

— هل تعرف صاحبه؟

— أعرف أن الناس كانوا يشترون منه مستلزمات الحدائق. أما صاحبه، فلم يكن رجلًا يحب الكلام.

وضعت الإيصال أمامه.

— هل تتذكر هذا الختم؟

تأمله دون أن يلمسه.

— ربما. لكن إن كنت تبحثين عن الأعشاب النادرة، فالأفضل أن تسألي في الحديقة الملكية القديمة.

— لماذا؟

رفع عينيه إليّ، ثم أزاح الإيصال نحوي.

— لأن الذين كانوا يذهبون إلى هناك لم يكونوا جميعًا يبحثون عن الأعشاب.

انتظرت أن يكمل، لكنه انشغل فجأة بمسح المنضدة.

لم أضغط عليه. تعلّمت أن الناس حين يخافون لا يصبحون أكثر صدقًا إذا حاصرتهم بالأسئلة؛ بل يصيرون أكثر حرصًا على الكذب.

خرجت من النُزل وأنا أفكر في جوزيف.

تخيّلته يسير في هذه الشوارع بحقيبته الجلدية القديمة، يتوقف أمام واجهات المتاجر، ويسأل عن النباتات كما كان يفعل في بلدته. بدا المشهد مألوفًا إلى حد مؤلم. للحظة، شعرت أنني أستطيع اللحاق به لو أسرعت بما يكفي.

لكن الشارع كان خاليًا إلا من الغرباء.

وكان جوزيف ميتًا.

وجدت الحديقة القديمة خلف سور حجري تعلوه نباتات متسلقة. عند البوابة وقف رجل مسنّ يحمل مفاتيح كثيرة تتدلى من حزامه. أخبرته أنني ابنة جوزيف، جامع الأعشاب، وأنني جئت لأعرف إن كان قد زار المكان.

لم يبدُ الاسم غريبًا عليه.

حدّق في وجهي طويلًا، ثم قال:

— كان هنا فعلًا.

تسارعت دقات قلبي.

— متى؟

— قبل أسابيع من إغلاق الحديقة أمام الزوار.

— ولماذا جاء؟

نظر الرجل إلى البوابة خلفه.

— قال إنه يبحث عن نبات ذُكر في كتاب قديم. لم يكن يبدو كتاجر، ولا كمن جاء ليسرق شيئًا. كان يسأل كثيرًا، ويكتب كل ما يراه.

— هل عاد مرة أخرى؟

تردد.

—لا أعرف.

لم أصدّقه تمامًا، لكنني لم أملك ما يكفي لأتهمه بإخفاء شيء.

أخرجت دفتر جوزيف وفتحت الصفحة التي تحمل رسم النبتة.

ما إن وقعت عين الرجل عليها حتى انطفأ شيء في وجهه.

— من أين حصلتِ على هذا؟

— كان في دفتر أبي.

اقترب خطوة، ثم أمسك معصمي للحظة، لا بقوة، بل بخوف بدا أكبر من أن يخفيه.

— اسمعيني جيدًا. إن كنت تريدين الاحتفاظ بما تبقى لك من عائلتك، فلا تفتحي هذا الموضوع أمام موظفي الحديقة.

نزعت يدي بهدوء.

— لماذا؟

أفلت معصمي كأنه انتبه متأخرًا إلى ما فعله.

— لأن بعض الأسئلة لا تنتهي عند الشخص الذي تجيبين عنها.

ثم فتح البوابة، وأشار إلى الطريق المؤدي إلى الداخل.

لم يمنعني من الدخول، لكنه لم يرافقني أيضًا.

كانت الحديقة أوسع مما توقعت. ممرات ضيقة تتفرع بين أحواض النباتات، بيوت زجاجية قديمة، وأقفاص حديدية صغيرة تحيط بأنواع نادرة لا تُترك في العراء. حمل الهواء رائحة التراب الرطب والأوراق المطحونة، رائحة أعادتني إلى متجر جوزيف حتى شعرت بوخزة مفاجئة في صدري.

هناك، عند حافة أحد الأحواض، رأيت النبتة نفسها.

الأوراق المسننة.

الساق الداكنة.

والزهيرات الصغيرة التي رسمها جوزيف بعناية.

انحنيت قربها، لكنني لم ألمسها. اكتفيت بمقارنتها بالرسم، ثم لاحظت لوحة معدنية مثبتة إلى جانب الحوض. لم يكن عليها اسم النبات، بل رقم وتصنيف رسمي وختم باهت.

نسخت الرقم في دفتري.

وفي أسفل اللوحة، ظهرت عبارة محفورة:

«للاستخدام الملكي حصراً.»

شعرت بأن الهواء صار أثقل.

لم تكن هذه مجرد حديقة يجمع منها جوزيف نباتاته. كانت هناك نباتات تخضع لرقابة المملكة، وأبواب لا تُفتح للزوار، ورجل مات بعد أن زار هذا المكان وترك خلفه تحذيرًا لم أفهمه.

لم يكن ذلك دليلًا على أن أحدًا قتله بسبب ما رآه.

لكنه كان أول شيء يجعلني أعتقد أن موته ربما لم يكن حادثًا عابرًا.

وقبل أن أتمكن من تدوين ملاحظة أخرى، سمعت وقع خطوات خلفي.

استدرت.

كان رجل يرتدي معطفًا رماديًا، يحمل ملفًا تحت ذراعه. لم يكن من الحراس الذين رأيتهم عند المدخل، ولم يحمل شارة تدل على عمله. نظر إلى الدفتر المفتوح بين يدي، ثم إلى الحوض.

— هل أنتِ ابنة جوزيف؟

لم أجب فورًا.

ابتسم ابتسامة صغيرة لا تحمل أي دفء.

—لا داعي إلى القلق. اسمك معروف لدى بعض الأشخاص.

— أي أشخاص؟

فتح الملف، وأخرج ورقة مطوية.

— أبحث عن شخص يستطيع تأكيد بعض المعلومات القديمة. والدك زار هذه الحديقة، أليس كذلك؟

نظرت إلى الورقة، لكنني لم أمد يدي إليها.

— يبدو أنك تعرف ذلك بالفعل.

— أعرف أنه جاء إلى هنا. ما لا أعرفه هو ما الذي أخذه معه حين غادر.

شعرت ببرودة تسري على طول ظهري.

— لم يكن سارقًا.

لم أكن أعرف لماذا قلتها بهذه السرعة. ربما لأنني سمعت في سؤاله اتهامًا لم ينطقه بعد، أو لأنني خفت أن يكون هذا المكان قد احتفظ عن جوزيف بصورة لا تشبه الرجل الذي عرفته.

لم تتغير ابتسامته.

— لم أقل إنه كان سارقًا.

أعاد الورقة إلى الملف، ثم نظر إليّ كما لو أنه يحاول تحديد مقدار ما أعرفه.

— إن كنتِ تنوين البقاء في إيفيرن، فأنصحك بألّا تخلطي بين حب النباتات ومعرفة ما يمكن أن تفعله.

ثم استدار وغادر الممر.

بقيت واقفة في مكاني، أراقب ابتعاده حتى اختفى خلف البيت الزجاجي.

لم يهددني صراحةً. لم يتهم جوزيف. ولم يخبرني من يكون.

ومع ذلك، خرجت من الحديقة وأنا أشعر بأنني لم أعد أبحث وحدي.

عدت إلى النُزل قبيل الغروب.

أغلقت باب غرفتي، وأسندت ظهري إليه لحظة، ثم وضعت الدفتر على الطاولة. كان ينبغي أن أشعر بالخوف. وكان جزء مني خائفًا فعلًا؛

ذلك الجزء الذي ما زال يتذكر يد جوزيف وهي تربت على رأسي، وصوته وهو يطلب مني ألّا أفتح كل باب لمجرد أنني أستطيع.

لكن جزءًا آخر مني كان مستيقظًا على نحو لم أعهده.

أخرجت ورقة جديدة وبدأت أكتب ما حدث بالترتيب: الحديقة، النبتة، اللوحة الملكية، الرجل صاحب الملف.

كتبت الحقائق وحدها، كما علّمني الدكتور ألبير.

ثم وصلت إلى السطر الأخير، وتوقفت.

«ما الذي أخذه جوزيف معه حين غادر؟»

كتبت السؤال، ثم أحطته بدائرة.

وللمرة الأولى منذ موته، لم أشعر بأنني أكتب كي أهدئ نفسي.

كنت أكتب لأنني أردت أن أعرف.

أردت أن أعرف بشدة جعلت أصابعي تضغط على القلم حتى آلمتني. راودتني رغبة غريبة في العودة إلى الحديقة، لا غدًا، بل في تلك اللحظة؛ أن أفتح الأبواب المغلقة، وأتبع الممرات التي لم يسمحوا لي برؤيتها، وأن أضع يدي على كل شيء أخفوه عني.

كان الخوف موجودًا، نعم.

لكن تحته كان هناك شيء آخر، شيء لم أجد له اسمًا.

شيء يشبه الجوع.

أفلتُّ القلم، ونهضت لأغسل وجهي. حدقت في المرآة طويلًا، باحثة عن الفتاة التي كانت تظن أن المعرفة تمنح الإنسان القدرة على إصلاح ما انكسر.

لم أجدها كما تركتها.

وجدت فتاة بعينين متعبتين، وفم مشدود، وابتسامة صغيرة ظهرت على وجهي حين تذكرت نظرة الرجل إلى رسم النبتة.

لم تكن ابتسامة فرح.

وهذا ما أخافني.

لماذا ابتسمت؟

لماذا شعرت، وسط كل ذلك القلق، بمتعة حادة حين أدركت أن هناك سرًا حقيقيًا، وأن أحدهم يحاول منعي من الوصول إليه؟

تراجعت عن المرآة.

— كفى يا روران.

خرج صوتي واهنًا، كأنني أخاطب شخصًا آخر.

لكنني لم أستطع التوقف عن التفكير في الحديقة، وفي الملف الرمادي، وفي الكلمات التي تركها جوزيف على هامش دفتره.

«الحديقة القديمة ليست مكانًا مناسبًا للأسئلة.»

ربما لم يكن يحذر نفسه.

ربما كان يحذرني أنا، حتى قبل أن أعرف أنني سأحتاج إلى هذا التحذير.

لم أنم تلك الليلة.

بعد منتصف الليل بقليل، فتحت الدفتر مجددًا، وبدأت أقارن تواريخ رحلات جوزيف بالملاحظات المكتوبة عن النباتات. لم أجد ما يفسر موته، لكنني وجدت شيئًا آخر: في ثلاث صفحات متباعدة، شطب جوزيف اسم النبتة نفسها، ثم أعاد كتابته في صفحة لاحقة، إلى جواره علامة صغيرة لم أفهمها.

وفي الصفحة الأخيرة، كان هناك تاريخ.

تاريخ يسبق وفاته بأيام قليلة.

وتحته سطر لم ألحظه من قبل، لأن أثر الحبر كان خفيفًا، كأن كاتبه تردد قبل أن يضغط بالقلم:

«إن سألوا عنها، لم أرَ شيئًا.»

توقفت أنفاسي للحظة.

أعدت قراءة الجملة، ثم قلبت الصفحة لأتأكد من أنها ليست جزءًا من ملاحظة أخرى. لم يكن هناك شيء بعدها؛ لا تفسير، ولا اسم، ولا حتى إشارة إلى المقصود بكلمة «عنها».

وضعت الدفتر على الطاولة ببطء.

لم يعد السؤال الوحيد هو لماذا ذهب جوزيف إلى إيفيرن.

صار السؤال: من الذي كان يخشى أن يسأله عن شيء رآه؟

وفي اللحظة نفسها، سُمعت ثلاث طرقات على باب غرفتي.

متباعدة.

هادئة.

ثم جاء صوت صاحب النُزل من الخارج:

— آنسة روران؟ هناك رجل يسأل عنكِ. يقول إنه يعرف والدكِ، وإن لديه شيئًا يجب أن يصلكِ قبل أن تغادري البلدة.

نظرت إلى الساعة.

كانت قد تجاوزت منتصف الليل.

أخفيت الدفتر داخل حقيبتي، وأطفأت المصباح، ثم اقتربت من الباب دون أن أفتحه.

— ما اسمه؟

ساد الصمت لحظات.

ثم أجاب صاحب النُزل:

— لم يذكر اسمه. لكنه ترك هذه الرسالة.

انزلق ظرف من أسفل الباب، واستقر عند قدمي.

انتظرت حتى ابتعدت خطوات صاحب النُزل، ثم التقطته.

لم يكن عليه اسم المرسل.

في داخله ورقة واحدة، كُتبت عليها جملة قصيرة بحبر أسود:

«إذا كنتِ تريدين معرفة كيف مات والدكِ، فتوقفي عن البحث في الحديقة... وابحثي عمّن دُفن خارج أسوارها.»

بقيت أحدق في الكلمات.

ثم، من مكان بعيد في البلدة، دقّ جرس الكنيسة مرة واحدة.

لم أعرف إن كان ذلك إعلانًا عن مرور ساعة متأخرة، أم أن أحدًا آخر لم يكن نائمًا أيضًا.

لكنني عرفت شيئًا واحدًا.

أنني لن أغادر إيفيرن في الصباح.



الفصل الخامس عشر

ما دُفن خارج الأسوار

لم أفتح الباب.

بقيت واقفة في الظلام، والرسالة بين أصابعي، أستمع إلى وقع الخطوات وهي تبتعد عن غرفتي. لم أكن أعرف إن كان الرجل الذي تركها قد غادر النُزل فعلًا، أم أنه ينتظر في مكان ما ليرى إن كنت سأندفع خلفه كطفلة وجدت أخيرًا أثرًا يقودها إلى سرٍّ ممنوع.

وكان أسوأ ما في الأمر أنني أردت أن أفعل ذلك.

أردت أن أفتح الباب، وأن أركض إلى الدرج، وأن أسأل كل وجه أصادفه عن المقابر الواقعة خارج الأسوار. أردت أن أجرّ البلدة كلها من نومها حتى يعطيني أحدهم إجابة.

لكنني تذكرت جوزيف.

«إياك أن تقتربي من مقابر الجثث، ولتعيشي حياة طويلة».

جلست على حافة السرير، وأعدت قراءة الرسالة.

لم يقل صاحبها إن جوزيف دُفن هناك، بل قال إن عليّ البحث عمّن دُفن خارج الأسوار. كانت الكلمات محسوبة بعناية، كأن كاتبها يعرف ما يكفي ليقودني، لكنه لا يريد أن يتحمل مسؤولية ما سأجده.

وهذا جعلني أكرهه قبل أن أعرفه.

أشعلت المصباح، وفتشت الظرف. لم أجد اسمًا أو ختمًا أو أثرًا واضحًا يدل على صاحبه. غير أن الورقة كانت سميكة، من النوع الذي تستخدمه الدوائر الرسمية في المملكة، وفي زاويتها بقعة صغيرة من شمع أحمر.

لم تكن دليلًا كافيًا على شيء.

لكنها كانت أكثر مما أملكه قبل ساعة.

وضعت الرسالة داخل دفتر جوزيف، إلى جوار ملاحظته الأخيرة، ثم أغلقت الغلاف.

في الصباح، سأذهب إلى المقابر.

ولم أعد أحاول إقناع نفسي بأنني أذهب من أجل الحزن وحده.

استيقظت البلدة على ضباب كثيف.

سألت صاحب النُزل عن المقابر القديمة، فتوقف عن صب القهوة في فنجانه.

— هناك مقبرة عامة قرب الكنيسة، ومقبرة أخرى خلف السور الشرقي. لكنها مهجورة منذ سنوات.

— لماذا؟

— لأن الناس لم يعودوا يدفنون موتاهم فيها.

— هذا ليس جوابًا.

رفع عينيه إليّ. بدا منزعجًا، لكنه لم يغضب.

— بعض الأماكن تصبح ثقيلة على الأحياء يا آنسة لا يحتاج المرء إلى سبب آخر كي يبتعد عنها.

دفعت ثمن الغرفة، وأخذت الطريق الذي وصفه لي.

كلما ابتعدت عن السوق، قلّت البيوت، واتسعت المسافة بين الأشجار. انتهى الطريق المرصوف عند بوابة حديدية مائلة، خلفها سور حجري متصدع، غطته الطحالب والأغصان اليابسة.

لم تكن هناك لافتة.

فقط جرس صغير صدئ، وسلسلة مفتوحة تتدلى من إحدى حلقات البوابة.

دفعتها.

صدر عنها صرير طويل جعلني أتوقف لحظة، ثم دخلت.

لم تكن المقبرة كبيرة، لكنها بدت أكبر مما ينبغي في ذلك الصباح. شواهد حجرية متفاوتة الارتفاع، بعضها مائل، وبعضها غارق في الأرض حتى لم يبقَ منه إلا جزء من الاسم. نمت الأعشاب بين القبور، وامتدت جذور شجرة قديمة فوق شاهد مكسور.

كان المكان ساكنًا إلى درجة أنني سمعت صوت أنفاسي بوضوح.

أخرجت الرسالة، وقرأت عبارتها للمرة الأخيرة.

«ابحثي عمّن دُفن خارج أسوارها».

لم أكن أعرف من أين أبدأ، ولا إن كان المقصود قبرًا بعينه أم مجموعة من القبور. مشيت بين الشواهد، أقرأ الأسماء والتواريخ، وأدوّن ما بدا غير مألوف.

ثم لاحظت شيئًا.

في الطرف الأبعد من المقبرة، كانت هناك صفوف من الشواهد الصغيرة المتشابهة. لم تحمل معظمها أسماء، بل أرقامًا محفورة في الحجر. وعلى عدد منها ظهرت العلامة نفسها: خطان متقاطعان داخل دائرة.

تجمدت يدي فوق الدفتر.

رأيت تلك العلامة من قبل.

قلبت صفحات دفتر جوزيف بسرعة، حتى وصلت إلى ملاحظاته عن الحديقة القديمة. كانت العلامة مرسومة بجانب اسم النبتة التي وجدتها هناك، صغيرة، تكاد تضيع بين الكلمات.

حدقت فيها طويلًا.

لم أكن أعرف معناها، لكن وجودها هنا، على شواهد قبور لا تحمل أسماء أصحابها، جعل معدتي تنقبض.

اقتربت من أحد الشواهد.

كان الرقم المحفور عليه هو السابع عشر.

وتحته تاريخ قديم.

لم يكن هناك اسم، ولا إشارة إلى عائلة، ولا عبارة دينية. فقط الرقم والعلامة.

مررت أصابعي فوق الحجر البارد، ثم سحبتها بسرعة، كأنني ارتكبت فعلًا لا يحق لي ارتكابه.

في تلك اللحظة، سمعت صوتًا خلفي.

—لا تلمسيها.

استدرت بعنف.

كان رجلًا مسنًا يقف عند الممر، يحمل مجرفة صغيرة وسلة من الأعشاب. لم أسمع خطواته، ولم أعرف منذ متى كان يراقبني.

— من أنت؟

— الشخص الذي طلب منك ألّا تلمسيها.

تذكرت الرجل الذي فتح لي بوابة الحديقة.

— هل تعرف جوزيف؟

تغيرت ملامحه عند سماع الاسم.

وضع السلة على الأرض، ومسح يديه في معطفه القديم.

— كنت أعرفه بما يكفي لأقول إنه لم يكن ينبغي أن يأتي إلى هنا.

اقتربت منه خطوة.

— لماذا؟

نظر إلى الشواهد، لا إليّ.

— لأنه كان يظن أن كل شيء يمكن فهمه إذا بحث عنه طويلًا.

— وهل هذا خطأ؟

رفع عينيه نحوي.

— يصبح خطأ حين يقرر الآخرون أن بعض الحقائق يجب أن تبقى مدفونة.

شعرت بأن الكلمات خرجت من فمه قبل أن يفكر فيها. كان خائفًا، لكن خوفه لم يكن خوف رجل يؤمن بالخرافات. كان خوف شخص رأى شيئًا، ثم أمضى سنوات يحاول أن ينساه.

— ماذا حدث لأبي؟

ظل صامتًا.

— جوزيف لم يكن مجرمًا، إذا كان هذا ما يزعجك. ولم يأتِ إلى هذه البلدة ليؤذي أحدًا. أريد فقط أن أعرف لماذا كان هنا، ولماذا مات.

انخفض بصره إلى الدفتر في يدي.

— هل ترك لكِ دفتره؟

لم أجب.

ابتسم ابتسامة متعبة.

— إذًا وجدوا ما كانوا يخشون أن يجده.

شعرت بقلبي يضرب صدري بقوة.

— من هم؟

لكن الرجل حمل سلته من جديد، وكأنه ندم على كل كلمة قالها.

— اذهبي إلى البلدة، يا ابنة جوزيف. وانسي هذه المقبرة.

— لن أفعل.

توقف.

—لا تقولي ذلك بسهولة. لم تكوني هنا حين جاء والدك. لم تري كيف تغير وجهه عندما فهم أن ما يبحث عنه أكبر من نبات نادر، وأخطر من سرقة من حديقة.

— ماذا فهم؟

لم يجب.

ثم قال، بصوت خافت:

— إن أردتِ إجابة واحدة، فابحثي عن السجل القديم للدفن. ليس في الكنيسة. في دار السجلات خلف مبنى البلدية. لكن إن سألك أحد عن سبب بحثك، فلا تذكري اسمي.

غادر قبل أن أتمكن من إيقافه.

بقيت أنظر إلى الممر الذي اختفى فيه.

كان جوزيف قد جاء إلى هذه المقبرة.

أو على الأقل، كان يعرف شيئًا عنها.

وللمرة الأولى، لم أشعر أنني أقترب من ذكرى رجل فقدته. شعرت أنني أقترب من شيء حي، شيء ما زال يتحرك تحت سطح البلدة الهادئ، ويعرف أنني بدأت أبحث عنه.

لم أذهب إلى دار السجلات فورًا.

عدت إلى النُزل، وأغلقت الباب، ثم أخرجت الدفتر والرسالة ووضعتهما أمامي.

كان ينبغي أن أرتب أفكاري قبل أن أتابع. أن أميز بين ما أعرفه وما أتخيله، وألا أسمح للخوف بأن يحوّل كل تفصيل إلى اتهام.

كتبت في الصفحة الأولى:

ما أعرفه:

زار جوزيف الحديقة القديمة.

وجدت في دفتره اسم نبات يحمل علامة ظهرت أيضًا على شواهد قبور مجهولة.

كان هناك رجل يبحث عمّا أخذه جوزيف معه حين غادر الحديقة.

وصلتني رسالة ليلية توجهني إلى المقبرة خارج الأسوار.

وتحت هذه النقاط كتبت:

ما لا أعرفه:

من كتب الرسالة؟

ماذا حدث للأشخاص المدفونين في القبور المرقمة؟

ولماذا حذرني جوزيف من الاقتراب من مقابر الجثث؟

توقفت عند السؤال الأخير.

لطالما تخيلت أن تحذيره كان نابعًا من خوفه عليّ، وأنه ربما أراد إبعادي عن أماكن قاسية لا تناسب فتاة في مثل عمري. لكنني بدأت أرى احتمالًا آخر: ربما كان يعرف أن فضولي لن يتوقف عند النظر.

ربما كان يخشى ما سأفعله إذا عرفت.

أغلقت الدفتر بعنف.

لم أحب تلك الفكرة.

لم أحبها لأنها بدت معقولة.

كانت دار السجلات مبنى ضيقًا خلف البلدية، تفوح منه رائحة الورق القديم والغبار. جلس خلف مكتب الاستقبال موظف نحيل يرتدي نظارة سميكة، ولم يرفع رأسه حين طلبت الاطلاع على سجلات الدفن القديمة.

— لأي غرض؟

— بحث عائلي.

رفع عينيه.

— اسم العائلة؟

ترددت لحظة، ثم قلت:

— جوزيف.

قلب صفحات دفتر أمامه، وسألني عن تاريخ الوفاة. حين أخبرته، هز رأسه.

—لا أملك ملفًا بهذا الاسم هنا.

— لم أقل إنني أبحث عن سجل وفاته. أبحث عن السجلات القديمة للمقبرة الشرقية.

اختفت ابتسامته المهنية.

— تلك السجلات غير متاحة للزوار.

— لماذا؟

— لأنها محفوظات إدارية.

— إذًا أريد تقديم طلب رسمي للاطلاع عليها.

نظر إليّ طويلًا، ثم أخرج ورقة مطبوعة ووضعها أمامي.

— املئي هذا الطلب. ستتلقين جوابًا إذا تمت الموافقة.

لم أتحرك.

— كم يستغرق ذلك؟

—لا أستطيع تحديد المدة.

كان يجيب كما لو أنه حفظ عباراته عن ظهر قلب. وحين مددت يدي لأخذ الورقة، لمحت خلفه خزانة مفتوحة قليلًا. داخلها ملفات جلدية، وعلى أحدها ختم أحمر يشبه بقعة الشمع التي رأيتها على الرسالة.

لم أستطع قراءة العنوان من مكاني.

لكنني استطعت رؤية التاريخ المكتوب أسفله.

كان التاريخ نفسه الذي ظهر في إحدى ملاحظات جوزيف.

تراجعت عن المكتب قبل أن يلاحظ الموظف اتجاه نظري.

أخذت الطلب، وشكرته، ثم غادرت المبنى.

في الخارج، وقفت تحت ضوء النهار البارد، والورقة بين يدي.

كان بإمكاني أن أملأ الطلب وأنتظر.

كان بإمكاني العودة إلى القصر، ومتابعة إدارة المستشفى، والتظاهر بأن كل ما وجدته مجرد مصادفات لا رابط بينها.

لكنني كنت أعرف أنني لن أفعل.

لم يكن الأمر شجاعة. الشجاعة كلمة جميلة، ولم أشعر بشيء جميل في داخلي.

كان هناك إلحاح يزداد كلما أُغلق باب أمامي. وكلما قيل لي إن شيئًا ما غير متاح، بدأت أراه أوضح من كل الأشياء المسموح لي برؤيتها.

أخفت الورقة في حقيبتي.

سأعود إلى دار السجلات.

ليس اليوم، وليس بالطريقة نفسها.

لكنني سأعود.

في المساء، جلست إلى طاولة غرفتي، وأخرجت ورقة بيضاء.

رسمت عليها العلامة التي رأيتها في الحديقة والمقبرة. خطان متقاطعان داخل دائرة. ثم رسمت إلى جوارها شكل النبتة، وكتبت الأرقام والتواريخ التي جمعتها.

كان الرسم دقيقًا في البداية.

ثم بدأت أعيد رسم العلامة مرة بعد مرة.

على الورقة الأولى، بدت صغيرة.

على الثانية، جعلتها أكبر.

على الثالثة، ضغطت بالقلم حتى انشق سطح الورق.

لم أكن أحاول تحسين الرسم. كنت أحاول الوصول إلى شيء لا أعرفه، كأن تكرار الخطوط سيجعلها تنطق بما عجز الناس عن قوله.

حين انتبهت إلى ما أفعل، كانت الطاولة مغطاة بعلامات متشابهة، متفاوتة الحجم، بعضها مرسوم فوق بعض حتى صار الحبر كتلة سوداء.

ضحكت.

خرجت الضحكة قصيرة، جافة، ولم تشبهني.

وضعت يدي على فمي، لكن الضحك عاد، أقوى قليلًا، حتى اضطررت إلى الانحناء فوق الطاولة.

لم يكن في الأمر ما يضحك.

كان أبي ميتًا، وجوزيف ميتًا، وأنا في غرفة غريبة أكرر علامة على الورق كما لو أنني فقدت القدرة على فعل شيء آخر.

توقفت فجأة.

نظرت إلى يدي.

كانت ترتجف.

لم أعرف إن كنت أضحك من الخوف، أم من الغضب، أم من ذلك الشعور المظلم الذي يتسلل إليّ كلما اقتربت من سرٍّ حقيقي. شعور لا يمنحني الراحة، لكنه يجعل كل شيء آخر باهتًا إلى جانبه.

حتى الحزن.

وهذه كانت الفكرة التي لم أستطع احتمالها.

كيف يمكن لشيء أن يثير فضولي إلى هذا الحد بينما أحاول معرفة ما حدث للرجل الذي أحبني أكثر من أي شخص آخر؟

كيف أستطيع أن أكون حزينة عليه، ثم أشعر بتلك اليقظة الحادة حين أكتشف أثرًا جديدًا؟

جمعت الأوراق بعصبية، وكدت أمزقها. لكنني توقفت قبل أن ألمس الأولى.

لم أستطع إتلافها.

كنت أريد الاحتفاظ بها كلها.

كل خط، وكل رقم، وكل علامة.

أردت أن أرى كيف بدأت، وكيف تغيرت، وأي واحدة منها ستقودني إلى الإجابة.

أعدت الأوراق إلى الدفتر، وأغلقت الغلاف برفق، كما لو أنني أضع شيئًا ثمينًا في صندوق.

ثم جلست في الظلام، ولم أشعل المصباح مرة أخرى.

لأول مرة، لم أكن متأكدة إن كنت أبحث عن الحقيقة من أجل جوزيف، أم أنني بدأت أحتاج إلى البحث نفسه.

في صباح اليوم التالي، وجدت ماريان بانتظاري عند باب غرفتي.

لم أكن قد أخبرتها أنني سأغادر القصر إلى إيفيرن، ولم أتوقع أن أراها هناك. كانت تحمل رسالة مختومة، وبدت كأنها قطعت الطريق على عجل.

— كيف عرفتِ أنني هنا؟

— وصلتني رسالة إلى القصر تحمل اسم النُزل. لم يكن عليها اسم المرسل.

مدت إليّ الظرف.

عرفت الختم قبل أن أفتحه.

كان شعار المستشفى.

في الداخل، وجدت ورقة كتب عليها إدوين بخطه:

«آنسة روران،

وصل إلى المستشفى طلب رسمي للاطلاع على بعض السجلات القديمة المتعلقة بوالدكِ، كاسيان. لم يُذكر اسم صاحب الطلب، لكن الإدارة أوقفت الوصول إلى الملفات إلى حين مراجعة الأمر.

هناك أمر آخر: جاء رجل إلى المستشفى صباح اليوم وسأل عنكِ. لم يترك اسمه، لكنه قال إنكِ إذا كنتِ في إيفيرن، فعليكِ العودة قبل أن تصلي إلى ما لا يمكن التراجع عنه.

أرجو أن تتوخّي الحذر.»

قرأت الرسالة مرتين.

ثم رفعت رأسي إلى ماريان.

— هل قال إدوين أي شيء آخر؟

—لا. لكنه كان قلقًا. لم أره بهذا الشكل من قبل.

أعدت الورقة إلى الظرف.

لم تعد المسألة مقتصرة على جوزيف.

أحدهم عرف أنني أبحث في إيفيرن، وربط ذلك بملفات كاسيان. وربما كان الشخص نفسه يحاول أن يجعلني أتوقف قبل أن أكتشف ما يجمع الرجلين.

أبي الذي مات قبل أن أتمكن من فهم أسراره.

وجوزيف الذي مات تاركًا لي تحذيرًا لم أعد قادرة على تجاهله.

نظرت إلى ماريان، ثم إلى حقيبتي الموضوعة قرب السرير.

— سنعود إلى القصر.

ارتاحت ملامحها قليلًا.

لكنني أضفت:

— بعد أن نعرف من قدّم طلب الوصول إلى سجلات أبي.

اختفى الارتياح من وجهها.

— رووران، أرجوكِ لا أعرف ما الذي يحدث، لكنني أخشى أن تكوني قد اقتربتِ أكثر مما ينبغي.

نظرت إلى الرسالة مرة أخرى.

كان ينبغي أن أخاف.

وقد خفت فعلًا.

لكن تحت الخوف، كان ذلك الإحساس المظلم ينتظرني، هادئًا وصبورًا، كأنه يعرف أنني لن أتراجع.

طويت الرسالة ووضعتها داخل دفتر جوزيف، بجوار العلامة التي رسمتها طوال الليل.

ثم أغلقت الدفتر.

لم أكن أعرف بعد ما الذي دُفن خارج أسوار إيفيرن.

لكنني بدأت أفهم أن بعض الموتى لا يحتاجون إلى أن ينهضوا من قبورهم كي يطاردوا الأحياء.

يكفي أن يتركوا وراءهم سؤالًا واحدًا.

وسؤال جوزيف بدأ يغيّرني، صفحةً بعد صفحة.



ما ندفنه في الظلام لا يتوقف دائمًا عن النمو.

الفصل السادس عشر

أشياء أخرى تستحقّ الانتباه

عدتُ إلى القصر وأنا أحمل معي دفتر جوزيف، والرسالة المجهولة، وأسئلة أكثر مما غادرت به.

كنت أتوقع أن تلاحقني إيفيرن في أحلامي، وأن أستيقظ كل ليلة على صورة القبور المرقمة والعلامة المحفورة في الحجر. لكن الأيام الأولى بعد عودتي كانت مزدحمة إلى حد لم يترك لي مساحة كافية للخوف.

كان المستشفى ينتظرني.

ملفات تحتاج إلى توقيعي، وحسابات لا تتفق مع بعضها، وأطباء يطالبون بمعدات جديدة، ومرضى لا يعرفون أن مستقبل المكان الذي يعتمدون عليه صار معلقًا بقرارات رجال لا يدخلون غرف العلاج إلا لالتقاط الصور.

أصبح عليّ أن أكون ابنة كاسيان أمامهم جميعًا.

لم يكن أحد مهتمًا بأنني قضيت ليلة في نُزل غريب أضحك فيها وحدي فوق أوراق امتلأت بعلامات لا أفهمها. لم يكن أحد يعرف أنني احتفظت برسالة مجهولة بين صفحات دفتر رجل ميت، أو أنني صرت أراقب الأختام الرسمية كما لو أنها وجوه بشرية تخفي نواياها.

وهذا، على نحو غريب، منحني بعض الراحة.

ففي النهار، كان لدي ما أفعله.

أما في الليل، فكان كل شيء يعود.

في الأسبوع الأول، حاولت أن أتابع طلب إدوين المتعلق بسجلات كاسيان. أرسلت استفسارًا رسميًا إلى الإدارة، ثم انشغلت باجتماع طويل مع اللورد إدوارد هول، الذي جاء لمناقشة العرض المالي الذي سبق أن قدّمه للمستشفى.

جلس أمامي بملابسه الأنيقة، ووضع قفازيه إلى جانب فنجان القهوة.

— سمعت أنكِ كنتِ خارج القصر.

— لدي أمور خاصة.

— بالطبع. لكنني أرجو ألا تؤثر الأمور الخاصة في قراراتكِ المتعلقة بالمستشفى.

ابتسمت.

— هل جئت لتناقش الاستثمار، أم لتذكرني بأنني لا أملك رفاهية الحياة الخاصة؟

لم تتغير ملامحه، لكنه وضع الفنجان جانبًا.

— جئت لأن المستشفى يحتاج إلى المال، ولأنني أعتقد أن بإمكاني مساعدتكِ.

— مقابل حصة من الإدارة.

— مقابل ضمان أن المؤسسة ستبقى قائمة.

كانت حجته معقولة، وهذا ما جعلها مزعجة. لم أستطع رفضه لمجرد أنني لا أحب طريقته، كما لم أستطع الوثوق به لمجرد أنه يتحدث بلغة الأرقام.

انتهى الاجتماع من دون اتفاق.

وحين غادر، بقيت أتأمل الأوراق التي تركها على مكتبي. تذكرت التحذير الذي وجهه لي في وقت سابق بشأن الملفات القديمة، ثم وجدتني أفكر في شيء آخر تمامًا: لو استطعت إعادة تنظيم المستشفى، وتخفيف ديونه، وتطوير قسم التشريح، فربما أصبح قادرًا على استقبال الحالات التي لا تستطيع المستشفيات الأخرى التعامل معها.

كان ذلك هدفًا عمليًا.

مقبولًا.

ومريحًا بما يكفي كي أترك الأسئلة القديمة في مكانها لبعض الوقت.

فتحت دفتر ملاحظاتي وكتبت قائمة بالمعدات التي نحتاج إليها.

لم أكتب شيئًا عن إيفيرن.

بعد أيام، دعاني داميان إلى لقاء في القصر الملكي لمناقشة اقتراح جديد لدعم المستشفى.

وجدته في إحدى القاعات المطلة على الحديقة الشتوية. كان واقفًا قرب النافذة، يرتدي معطفًا أسود، وشعره الداكن مرتبًا بعناية. لم يحتج إلى الالتفات كي أعرف أنه سمع خطواتي.

— آنسة روران.

استدار، وظهرت تلك الابتسامة الهادئة التي تجعل المرء يشعر بأنه موضع اهتمامه الكامل، حتى حين لا يعرف إن كان ذلك الاهتمام صادقًا أم مجرد مهارة أتقنها منذ طفولته.

— سموّ الأمير.

أشار إلى المقعد المقابل.

— أتمنى أن تكون أحوال المستشفى أفضل.

— أفضل قليلًا. لكنني بدأت أشك في أن المال يختفي من المؤسسات الطبية بطريقة أسرع من قدرة الأطباء على إنفاقه.

ضحك بخفة.

— لو كان الأمر بيدي، لأغلقت نصف مكاتب الإدارة واحتفظت بالأطباء وحدهم.

— عندها سيكتشف الأطباء أنهم لا يعرفون كيف يدفعون رواتبهم.

— إذًا سأضطر إلى الاحتفاظ ببعض الموظفين.

كان الحديث بسيطًا، وربما لهذا السبب شعرت بأنني أتنفس براحة أكبر مما توقعت. لم يسألني عن إيفيرن، ولم يذكر موت جوزيف، ولم يحاول أن ينتزع مني اعترافًا عن الأيام التي غبت فيها.

ناقشنا خطة لتوسيع قسم العلاج، وإمكانية تخصيص تمويل للأبحاث الطبية، ثم سألني فجأة:

— هل ما زلتِ تريدين أن تصبحي طبيبة؟

نظرت إليه.

— لماذا تسأل؟

— لأنكِ تتحدثين عن المستشفى كما لو أنكِ تريدين إنقاذه، لكنكِ تتحدثين عن الطب كما لو أنكِ تريدين اكتشاف شيء لا يعرفه الآخرون.

لم أعرف ماذا أقول في البداية.

كان قريبًا من الحقيقة على نحو لم يعجبني.

— أليس هذا جزءًا من عمل الطبيب؟

— أحيانًا. لكن هناك فرقًا بين من يريد إنقاذ مريض، ومن يريد أن يعرف لماذا مات.

سكتُّ.

لم تكن عبارته اتهامًا، ولم يقلها بنبرة ساخرة. قالها ببساطة، ثم انتقل إلى الحديث عن التمويل، كما لو أن السؤال لم يكن أكثر من ملاحظة عابرة.

لكنني بقيت أفكر فيه.

لأنني، للمرة الأولى، أدركت أنني لم أعد أجد في الموت مجرد حقيقة ينبغي فهمها. كنت أجد فيه بابًا مغلقًا، وكلما اقتربت منه شعرت برغبة أشد في فتحه.

لم أحتج إلى انتظار الصباح طويلًا؛ وصلت إلى المستشفى قبل موعدي المعتاد، وما زالت كلمات جوزيف عالقة في ذهني.

كان الدكتور سيلفان في غرفة الفحص، يراجع سجلات المرضى حين طلبت منه أن يسمح لي بمرافقته في بعض الحالات التي تحتاج إلى متابعة دقيقة.

نظر إليّ فوق نظارته.

— هل يتعلق الأمر بدراستكِ، أم أنكِ تبحثين عن شيء آخر؟

كدت أسأله إن كان الجميع قد اتفقوا على قراءة ما في رأسي، لكنني اكتفيت بالقول:

— أريد أن أتعلم أكثر.

— التعلم ليس مشكلة. المشكلة أن تختاري الحالات التي تثير فضولكِ، وتنسي الحالات التي تحتاج إلى مساعدتكِ فعلًا.

أزعجتني عبارته، لا لأنها ظالمة، بل لأنها أصابت موضعًا كنت أتجنب النظر إليه.

وافق على أن أرافقه، لكنه شدد على أن ألتزم بتوجيهاته وألا أتدخل فيما لا أملك الخبرة الكافية له.

بدأنا بمراجعة حالة مريض مسنّ توفي بعد تدهور مفاجئ في حالته. لم يكن هناك ما يدعو إلى الشك في موته، لكن الطبيب أراد مراجعة التسلسل الطبي للتأكد من أن القرارات المتخذة كانت مناسبة.

استمعنا إلى الملاحظات، وراجعنا التوقيتات، وتحدثنا مع الطاقم الذي أشرف على علاجه.

كانت هناك تفاصيل كثيرة، وأسباب محتملة، وثغرات صغيرة لا تعني بالضرورة أن أحدًا أخطأ.

لكنني وجدت نفسي أركز على شيء مختلف.

على الفجوة بين آخر مرة تحدث فيها المريض إلى أحدهم، واللحظة التي صار فيها جسده عاجزًا عن الإجابة.

كنت أريد أن أعرف ما الذي حدث في تلك المسافة.

لماذا لم يعد قادرًا على الكلام؟

ما الذي تغير؟

وأي لحظة تحديدًا فصلت بين إنسان يستطيع أن يفتح عينيه، وجسد لن يفعل ذلك مرة أخرى؟

— رووان.

انتبهت إلى صوت سيلفان.

— نعم؟

— سألتكِ عن رأيكِ في السجل.

نظرت إلى الورقة أمامي. كنت قد غبت عن الحديث من دون أن أشعر.

أجبت بما استطعت، ثم خرجت من الغرفة معه.

في الممر، قال بهدوء:

—لا بأس بأن تثير الحالات اهتمامكِ. لكن تذكري أن المريض ليس لغزًا وُضع كي تحليه.

أومأت.

كنت أعرف ذلك.

بل كنت أعرفه جيدًا.

ومع ذلك، حين تركني وعدت إلى مكتبي، فتحت دفتري وكتبت السؤال الذي لم أجرؤ على طرحه عليه:

هل يمكن للإنسان أن يحب الحقيقة أكثر مما يحب الناس؟

حدقت في الجملة طويلًا، ثم أغلقت الدفتر.

لم تعجبني الإجابة التي بدأت تتشكل في رأسي.

في تلك الفترة، بدأت أزور المكتبة الطبية أكثر من ذي قبل.

لم أعد أكتفي بالكتب التي يوصي بها سيلفان، بل صرت أبحث عن الحالات النادرة، والتقارير التي يختلف فيها الأطباء حول سبب الوفاة، والملاحظات التي بقيت بلا تفسير. كنت أقرأ حتى تتعب عيناي، وأدوّن أسماء المصطلحات التي لا أفهمها، ثم أعود إليها في اليوم التالي.

في البداية، أقنعت نفسي بأنني أفعل ذلك كي أصبح طبيبة أفضل.

ثم بدأت أجد متعة في اكتشاف ما لا يعرفه الآخرون.

كانت لحظة صغيرة، لا تستحق أن يلاحظها أحد: أجد ملاحظة ناقصة في تقرير قديم، أبحث عنها في كتاب آخر، ثم أكتشف تفصيلًا لم ينتبه إليه الكاتب. عندها أشعر بانتصار داخلي حاد، كأنني انتزعت سرًا من يد العالم.

لم يكن ذلك الانتصار متعلقًا بمساعدة مريض.

ولم يكن متعلقًا بالمستشفى.

كان متعلقًا بي وحدي.

وذات مساء، دخلت ماريان إلى مكتبي فوجدتني أكتب ملاحظات على ورقة كبيرة، وقد امتلأت حوافها بالأسهم والكلمات المتقاطعة.

— ماذا تفعلين؟

غطيت الورقة بيدي دون تفكير.

توقفت ماريان عند الحركة، ونظرت إليّ.

— هل أخفيتِ شيئًا عني؟

— إنها ملاحظات دراسية.

— منذ متى تخفين دراستكِ عني؟

لم أجب.

كان بإمكاني أن أشرح لها أنني لم أخفِ شيئًا مهمًا، وأنني فقط لم أعد أرغب في أن يسألني أحد عما أفكر فيه. لكنني لم أكن متأكدة من أن هذا هو السبب الحقيقي.

ربما لم أرد أن أسمع أفكاري بصوت شخص آخر.

جمعت الأوراق ووضعتها في الدرج.

— أنا متعبة يا ماريان.

نظرت إليّ بحزن خفيف، ثم وضعت كوب الشاي قرب يدي.

— إذًا ارتاحي قليلًا. ليس عليكِ أن تحملي كل شيء وحدكِ.

خرجت وأغلقت الباب خلفها.

بقيت أنظر إلى كوب الشاي.

ثم إلى الدرج.

انتظرت حتى ابتعدت خطواتها، قبل أن أفتحه وأعيد الأوراق إلى الطاولة.

لم أكن أريد النوم.

كنت أريد أن أكمل.

مرّ أسبوع آخر قبل أن أتذكر الرسالة المجهولة.

لم تأتِني ذكرى مفاجئة، ولم أستيقظ مذعورة بسبب حلم عن المقبرة. كنت أرتب أوراقي استعدادًا لاجتماع المستشفى، حين سقط دفتر جوزيف من بين الملفات.

انفتح على صفحة العلامة المرسومة.

توقفت يدي.

شعرت لوهلة بأنني أنظر إلى شيء يعود إلى شخص آخر. العلامة، والقبور، والرجل الذي حذرني، والرسالة التي وصلت في منتصف الليل؛ كلها بدت بعيدة عن حياتي الحالية، كأنها أحداث قرأتها في رواية ثم نسيت نهايتها.

رفعت الدفتر، ونفضت عنه الغبار.

تذكرت جوزيف.

ليس موته وحده، بل صوته وهو يناديني من الحديقة، وطريقته في تصحيح أسماء النباتات، وكيف كان يضحك حين أخلط بين نوعين

متشابهين. تذكرت يديه الملطختين بالتربة، ورائحته التي كانت مزيجًا من الأعشاب والصابون القديم.

كان هذا هو الرجل الذي فقدته.

أما العلامة، فلم تكن جوزيف.

والرسالة لم تكن صوته.

أغلقت الدفتر، ووضعته في الدرج بدل أن أحمله معي.

قلت لنفسي إنني سأعود إلى الأمر عندما أجد وقتًا مناسبًا.

كان ذلك وعدًا صغيرًا، معقولًا، ومريحًا.

لكنني لم أكن أعرف أن بعض الوعود لا تُنسى لأننا نتخلى عنها، بل لأن شيئًا آخر ينمو في داخلنا ويأخذ مكانها.

في تلك الليلة، عدت إلى المستشفى بعد أن غادر الموظفون.

لم يكن لدي موعد مع أحد، لكنني أردت مراجعة سجل حالة قرأته قبل أيام. كنت قد نسيت اسم المريض، غير أنني تذكرت التفصيل الذي أثار اهتمامي: ملاحظة قصيرة كتبها طبيب قديم، ثم شُطبت وأُعيدت صياغتها بخط آخر.

جلست في غرفة الأرشيف، وفتحت الملفات واحدًا تلو الآخر.

لم أجد السجل في البداية.

ثم وجدته في مجلد لم أكن أتوقعه.

قرأت الملاحظات، وقارنت التواريخ، وراجعت التعديلات. كان الأمر عاديًا في ظاهره، وربما لم يكن وراءه أي سر، لكنني بقيت أبحث عن سبب الشطب، وعن اليد التي غيّرت العبارة، وعن اللحظة التي قرر فيها شخص ما أن الكلمات الأولى لا ينبغي أن تبقى.

لم أشعر بمرور الوقت.

حين رفعت رأسي، كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل.

كان ينبغي أن أعود إلى القصر.

لكنني فتحت ملفًا آخر.

ثم ثالثًا.

ثم وجدت نفسي أبحث عن الحالات التي أُعيدت كتابة تقاريرها، لا لأن هناك دليلًا على خطأ، بل لأنني أردت أن أعرف ما الذي يجعل شخصًا يغيّر روايته عن موت إنسان.

لم أعد أبحث عن حالة بعينها.

كنت أبحث عن النمط.

عن الخطأ المتكرر.

عن الكذبة التي تتنكر في هيئة تصحيح.

وعندما أدركت ذلك، شعرت بضحكة خافتة تصعد إلى حلقي.

وضعت يدي على فمي.

لم يكن الأمر مضحكًا.

لكنني كنت أشعر بنشوة غريبة، كأنني أقف على حافة باب لم يفتحه أحد منذ سنوات، وأستطيع سماع شيء يتحرك في الجهة الأخرى.

أعدت الملفات إلى أماكنها، ورتبت الأوراق بعناية، ثم أطفأت المصباح.

في الممر، انعكس وجهي على زجاج إحدى النوافذ.

توقفت أمامه.

كان وجهي شاحبًا، وعيناي متعبتين، وشعري قد انفلت من رباطه. ومع ذلك، كان هناك شيء في نظرتي لم أره من قبل.

لم تكن نظرة فتاة حزينة.

كانت نظرة شخص وجد أخيرًا ما يجعله ينسى حزنه لبعض الوقت.

وهذا، أكثر من أي شيء آخر، هو ما أخافني.

في اليوم التالي، وصلتني دعوة جديدة من داميان.

لم تكن إلى الحديقة الملكية هذه المرة، بل إلى حفل صغير يقيمه القصر لدعم المؤسسات الطبية. كان من المفترض أن أحضر بصفتي المسؤولة عن مستشفى كاسيان، وأن أقدم عرضًا مختصرًا عن خطط التطوير.

كدت أعتذر.

لكنني أدركت أن الحضور قد يساعدني في تأمين التمويل الذي أحتاج إليه، فوافقت.

حين وصلت، كان داميان واقفًا قرب مجموعة من الضيوف. التفت إليّ فور دخولي، وكأن دخولي لم يمرّ عليه دون أن يلاحظه.

اقترب ومدّ يده.

— كنت أخشى أن ترفضي الدعوة.

— فكرت في ذلك.

— وما الذي غيّر رأيكِ؟

— الحسابات المالية.

ابتسم.

— يبدو أنني سأضطر إلى منافسة الحسابات على اهتمامكِ.

—لا أنصحك بذلك. الحسابات لا تجادلني، ولا تتوقع مني أن أبتسم.

ضحك، ثم قادني نحو القاعة.

تحدثنا عن المستشفى، وعن خطط التوسع، وعن الصعوبات التي تواجه المؤسسات الطبية في المملكة. كان يستمع حين أتكلم، ويسأل أسئلة دقيقة لا تشبه أسئلة من يريد مجاملة امرأة فحسب.

لم أكن أعرف إن كان اهتمامه بالمستشفى نابعًا من علاقته القديمة بكاسيان، أم من رغبة سياسية في الظهور بمظهر الأمير الذي يدعم شعبه.

لكنني وجدت نفسي أرتاح إليه أكثر مما ينبغي.

وحين وقفنا للحظة بعيدًا عن الضيوف، سألني:

— هل ما زلتِ تحلمين بأن تصبحي طبيبة؟

نظرت إليه، وتذكرت سؤال سيلفان.

— لم أعد متأكدة من شكل الحلم.

— ربما هذه بداية جيدة. أن تعرفي أنكِ لا تعرفين.

ابتسمت رغمًا عني.

كانت جملة جوزيف، أو شيئًا قريبًا منها.

وللمرة الأولى منذ أيام، شعرت بحزن صافٍ، لا تختلط به الرغبة في البحث أو إثبات شيء. تمنيت لو كان جوزيف هنا، لو استطعت أن أخبره أنني بدأت أفهم بعض ما حاول تعليمي إياه.

لكن اللحظة لم تستمر طويلًا.

ناداه أحد المسؤولين، فاعتذر مني وابتعد.

راقبته وهو يعبر القاعة، ثم وجدت نفسي أتابع حركة الناس من حولي: من يقترب من الأمير، ومن ينتظر دوره، ومن يبتسم أكثر مما ينبغي.

لم أكن أبحث عن شيء محدد.

كنت ألاحظ فقط.

وحين أدركت أنني بدأت أحلل كل نظرة وكل حركة كما أحلل تقارير المستشفى، خفضت بصري إلى الكأس الذي أحمله.

ربما لم يكن العالم قد تغير.

ربما أنا التي بدأت أنظر إليه بطريقة مختلفة.

عدت إلى القصر بعد انتهاء الحفل، وخلعت ثيابي الرسمية، ثم جلست أمام المرآة.

كان اليوم طويلًا، ومع ذلك لم أشعر برغبة في النوم.

فتحت الدرج وأخرجت الأوراق التي رسمت عليها العلامة في إيفيرن. تأملتها لحظات، ثم وضعتها في صندوق صغير مع الرسالة المجهولة.

لم أمزقها.

لم أعد رسمها.

ولم أعد بقراءة سجلات المقبرة في اليوم التالي.

أغلقت الصندوق، ودفعته إلى آخر الدرج.

ثم فتحت دفتري الجديد، وكتبت في الصفحة الأولى:

«الحالات التي لا تنتهي إجاباتها عند التقرير».

لم أكتب اسم جوزيف.

ولم أكتب اسم كاسيان.

لم أكتب شيئًا عن المقبرة أو الحديقة أو الرسالة.

كان بإمكاني أن أقول إنني فعلت ذلك لأنني أردت التركيز على دراستي، وعلى المستشفى، وعلى مستقبلي. وكان ذلك صحيحًا، إلى حد ما.

لكن الحقيقة الأخرى كانت أبسط وأكثر ظلمة.

لقد بدأت أجد في البحث نفسه ما لم أعد أجده في أي مكان آخر.

كلما اقتربت من إجابة، أردت سؤالًا أصعب.

وكلما وجدت تفسيرًا، شعرت أن هناك شيئًا آخر ينتظرني خلفه.

لم أكن قد نسيت جوزيف.

كنت لا أزال أشتاق إليه، وأتذكر صوته، وأتجنب المرور قرب متجره لأنني لم أحتمل رؤية الباب مغلقًا.

لكنني بدأت أتعلم كيف أضع حزني جانبا واركض خلف ملذاتي .....

الفصل السابع عشر

حين لامس الموت يدي

لم أكن أكره الموتى.

كانت تلك أول حقيقة اضطررت إلى الاعتراف بها لنفسي، بعد أسابيع قضيتها في المستشفى أراقب الأطباء وهم يتعاملون مع الأجساد التي لم تعد تستجيب لأوامر الحياة.

لم أكرههم، ولم أشفق عليهم بالطريقة التي توقعتها من نفسي. كنت أشعر بشيء مختلف؛ فضول ثقيل، يكاد يكون جسديًا، يدفعني إلى الاقتراب كلما ابتعد الآخرون، وإلى السؤال كلما اكتفى أحدهم بعبارة: لقد مات.

لم تكن تلك العبارة كافية لي.

الموت ليس جوابًا. إنه النتيجة التي تترك خلفها سؤالًا لا يستطيع صاحبه الإجابة عنه.

وكنت أريد أن أعرف.

لا، لم أعد أريد أن أعرف فحسب.

كنت أريد أن أرى بنفسي.

بدأ الأمر في صباح بارد، حين طلب مني الدكتور سيلفان مرافقته إلى قسم الفحص بعد وفاة رجل نُقل إلى المستشفى في الليلة السابقة.

كان المتوفى مجهول الهوية، في منتصف العمر على الأرجح، ولم تكن هناك معلومات كافية عن تاريخه الصحي. لم يُظهر الفحص الأولي سببًا واضحًا للوفاة، وكانت هناك ضرورة لإجراء فحص تشريحي قانوني يساعد على تحديد ما حدث.

وقفت قرب الباب أرتدي ثوب العمل الأبيض، وأحاول أن أبدو هادئة.

لاحظ سيلفان شحوب وجهي.

— يمكنكِ الانتظار في الخارج إن أردتِ.

نظرت إلى الباب خلفي.

كان بإمكاني الخروج. لم يكن أحد سيعدّ ذلك جبنًا، ولم يكن عليّ إثبات أي شيء لأي شخص.

لكنني قلت:

— أريد أن أبقى.

لم يبدُ مقتنعًا تمامًا، ومع ذلك سمح لي بالمرافقة تحت إشرافه.

شرح لي الغرض من الفحص، وكيف يربط الطبيب بين التاريخ الطبي والملاحظات التي يجمعها، ولماذا لا يجوز أن تتحول فرضية واحدة إلى حقيقة لمجرد أنها تبدو مقنعة. كان صوته ثابتًا، عمليًا، خاليًا من الرهبة التي كنت أتوقعها.

أما أنا، فكنت أستمع إليه وأراقب الطاولة في وسط الغرفة.

لم أستطع منع نفسي من التفكير في الرجل الذي يرقد فوقها.

من كان؟

هل ترك أحدًا ينتظره في المنزل؟

هل قال لأحدهم إنه سيعود قبل المساء؟

وهل كان يعرف، في لحظاته الأخيرة، أن حياته تقترب من نهايتها؟

لم أجد جوابًا لأي سؤال.

لكنني أدركت أنني لم أعد أكتفي بالتفكير في هذه الأشياء من بعيد. كنت أريد أن أكون جزءًا من اللحظة التي تتحول فيها الأسئلة إلى أدلة، وأن أفهم كيف يقرأ الطبيب ما لا يستطيع المتوفى قوله.

بدأ الفحص.

حاولت التركيز على شرح سيلفان، وعلى الملاحظات التي كان يسجلها، وعلى الطريقة التي يتعامل بها مع كل نتيجة بحذر. كان يشرح لي لماذا قد يخدع المظهر الخارجي العين، وكيف يمكن للتاريخ الطبي أن يغيّر تفسير علامة تبدو واضحة، ولماذا لا تكفي الملاحظة وحدها لتحديد سبب الوفاة.

ثم طلب مني، تحت إشرافه، أن أساعد في خطوة محددة من الفحص.

ترددت يدي للحظة.

كانت تلك اللحظة التي انتظرتها طويلًا، ومع ذلك لم أكن مستعدة لها كما تخيلت.

لم يعد بيني وبين ما أدرسه صفحات كتاب أو رسم توضيحي أو تقرير قديم. كان عليّ أن أتحرك، وأن ألتزم بتوجيهاته، وأن أواجه حقيقة أنني لم أعد متفرجة.

نفذت ما طلبه مني.

ولم يحدث شيء استثنائي في البداية.

كانت يداي متوترتين، وحركاتي حذرة، بينما ظل سيلفان يوجهني ويصحح أخطائي الصغيرة. لم أشعر بالقوة التي تخيلتها، ولا بالمعرفة التي ظننت أنها ستأتيني بمجرد أن أقترب.

شعرت فقط بأنني مسؤولة عن كل حركة.

ثم انزلقت يدي في لحظة ارتباك.

لم تكن إصابة، ولم يتعرض أحد للأذى؛ لكن الدم الذي كان على القفاز تناثر على كمّي، وارتفعت منه قطرة صغيرة إلى وجهي.

توقفت.

نظر سيلفان إليّ فورًا.

—لا تتحركي.

أخذ قطعة شاش، وأزال القطرة عن وجهي، ثم طلب مني الابتعاد عن الطاولة واتباع إجراءات التنظيف اللازمة. لم يرفع صوته، لكنه أنهى مشاركتي في الفحص إلى أن أتأكد من سلامتي وأبدّل ملابسي.

كان تصرفه طبيعيًا، مسؤولًا، لا يستحق أن يبقى في ذاكرتي أكثر من بضع دقائق.

لكنني لم أستطع نسيان تلك القطرة.

لم يكن شكلها ما علق في رأسي.

بل اللحظة التي شعرت فيها بها على وجهي، حين انقطع صوت الغرفة في أذني، وصار كل شيء حولي بعيدًا، بينما انتبهت إلى أنني لا أشعر بالاشمئزاز الذي توقعت أن يغمرني.

شعرت بشيء آخر.

يقظة مفاجئة، حادة، كأن حواسي استيقظت دفعة واحدة.

تسارع قلبي، وارتفعت حرارة وجهي، واضطرب تنفسي. لم أعرف إن كان ذلك خوفًا أم صدمة أم استجابة جسديّة للحظة لم أختبرها من قبل.

لكنني كنت أعرف أنني لم أرغب في الابتعاد بالسرعة التي ينبغي لي أن أبتعد بها.

وهذه كانت المشكلة.

في غرفة الغسل، وقفت أمام المرآة.

خلعت ثوب العمل الملطخ، واتبعت التعليمات التي أعطاني إياها سيلفان. غسلت وجهي، ثم يديّ، ثم أعدت غسل يديّ، رغم أنني كنت أعرف أنني أتممت التنظيف كما ينبغي.

كان الماء يتدفق فوق أصابعي، وأنا أحدق في انعكاسي.

لم أكن أرى امرأة شجاعة.

ولا طبيبة بارعة.

كنت أرى فتاة اكتشفت أن رد فعلها مختلف عمّا توقعت، ولم تعد تعرف كيف تفسر نفسها.

رفعت يدي إلى وجهي، ثم توقفت قبل أن ألمس شفتي.

تذكرت قطرة الدم.

وتذكرت، على نحو أزعجني، أنني في لحظة ارتباكي مررت أصابعي قرب فمي، وربما لامست شفتَيّ قبل أن أنتبه إلى ما أفعل. لم أستطع تحديد إن كنت فعلت ذلك عمدًا أم أن الحركة حدثت بلا وعي. ولم يكن هناك ما يثبت أن شيئًا وصل إلى فمي أصلًا.

ومع ذلك، بدأت الفكرة تتضخم في رأسي.

هل كان ذلك مجرد تصرف عابر؟

هل كنت أحاول إزالة أثر الدم؟

أم أنني أردت، ولو للحظة، أن أختبر شيئًا لم أجرؤ على الاعتراف برغبتي فيه؟

تراجعت عن المرآة.

— ما خطبكِ؟

خرج السؤال من فمي هامسًا.

لم أجد جوابًا.

كان بإمكاني أن أصف ما شعرت به بأنه صدمة. كان بإمكاني أن أقول إنني متعبة، وإنني قضيت وقتًا طويلًا أقرأ عن الموت حتى اختلطت المعرفة بالخيال.

لكن شيئًا في داخلي رفض هذه التفسيرات المريحة.

لم تكن المشكلة في أنني لم أخف.

بل في أنني، للحظة قصيرة، شعرت بأنني أريد العودة.

وجدني الدكتور سيلفان في الممر بعد أن بدّلت ملابسي.

كان يحمل ملفًا، لكنه أغلقه حين رآني.

— هل أنتِ بخير؟

أومأت.

— نعم.

تأمل وجهي قليلًا.

— ما حدث طبيعي. العمل في هذا القسم يحتاج إلى وقت، ولا يُفترض أن تكوني مستعدة لكل شيء من المرة الأولى.

— لم أشعر بالخوف.

—لا يوجد شعور واحد صحيح في مثل هذه المواقف. بعض الناس يصابون بالغثيان، وبعضهم يتجمد، وبعضهم يركز على العمل كي لا يفكر في بقية الأمور. المهم أن تعرفي حدودكِ، وألا تخفي عن نفسكِ ما تشعرين به.

نظرت إليه.

كدت أخبره بالحقيقة.

كدت أقول له إنني لم أشعر بالخوف وحده، وإن هناك شيئًا آخر اختلط به، شيئًا جعلني أريد البقاء قرب الطاولة حتى بعد أن طلب مني الابتعاد.

لكنني خفت من أن أسمع الكلمات بصوتي.

فقلت:

— أعتقد أنني أحتاج إلى بعض الوقت.

أومأ.

— خذيه. الطب ليس سباقًا.

ثم غادر.

بقيت في الممر وحدي.

كان ينبغي أن أشعر بالارتياح لأنه لم يضغط عليّ، لكنني شعرت بخيبة غريبة. كنت أريد منه أن يسألني مرة أخرى، أن يلاحظ أنني لم أكن بخير تمامًا، أن يضع أمامي السؤال الذي كنت أهرب منه.

لكنه منحني ما طلبته: الوقت.

وكنت أعرف، حتى وأنا أشكره في داخلي، أنني قد أستخدم ذلك الوقت لأعود إلى الفكرة نفسها مرارًا.

في الأيام التالية، حاولت أن أتصرف كأن شيئًا لم يتغير.

حضرت اجتماعات المستشفى، وراجعت حساباته، والتقيت داميان لمناقشة التمويل. تحدثنا عن خطط التوسع، وعن نقص الأطباء، وعن ضرورة تحسين قسم الفحص والتشخيص.

كان داميان في مزاج هادئ، يستمع إليّ باهتمام، ويبدو أنه يستمتع بقدرتي على تحويل المشكلات إلى قوائم وخطط.

— أنتِ لا تعرفين كيف تتركين أمرًا دون أن تحاولي السيطرة عليه، أليس كذلك؟ سألني ذات مرة.

رفعت حاجبيّ.

— هل هذه ملاحظة أم اتهام؟

— لم أقرر بعد.

ضحكت.

ثم فكرت في قسم التشريح.

في الطاولة.

في تلك اللحظة التي لم أستطع تفسيرها.

اختفت ابتسامتي قبل أن ينتبه إليها.

— هل أنتِ متعبة؟ سأل.

— قليلًا.

لم يضغط عليّ، بل انتقل إلى موضوع آخر.

كان من السهل أن أتحدث معه. لم يكن يعرف عن ذلك الصباح شيئًا، ولم أكن أريد له أن يعرف. أردت أن أبقى أمامه المرأة التي تستطيع إدارة مستشفى، وتجادل اللوردات، وتخفي ارتباكها خلف ابتسامة متقنة.

لكنني بدأت أشعر بأن الوجوه التي أرتديها تتكاثر.

ابنة كاسيان.

المرأة التي تحاول إنقاذ المستشفى.

الطالبة التي تريد أن تصبح طبيبة.

والشخص الذي بقي في غرفة الغسل أطول مما ينبغي، يحدق في المرآة، ويحاول أن يفهم لماذا لم يشعر بالاشمئزاز.

لم أكن أعرف أيّ هذه الوجوه هو الحقيقي.

وربما لم أعد أريد أن أعرف.

بعد أسبوع، عدت إلى قسم الفحص.

لم يطلب مني سيلفان ذلك. كنت قد ذهبت إلى المستشفى لمراجعة بعض السجلات، لكنني وجدت باب القسم مفتوحًا، ورأيت من خلاله ضوء الغرفة التي دخلتها في المرة السابقة.

توقفت عند العتبة.

كان هناك فحص آخر مقرر، بإجراءات رسمية وإشراف طبي كامل. لم يكن لدي سبب ضروري للبقاء، ولا مهمة تتطلب وجودي.

ومع ذلك، سألت سيلفان إن كان يسمح لي بالمشاهدة.

نظر إليّ باستغراب خفيف.

— هل أنتِ متأكدة؟

— نعم.

— إن شعرتِ بأن الأمر أكثر مما تستطيعين التعامل معه، ستغادرين. لن أسمح لكِ بأن تثبتي شيئًا على حساب نفسكِ أو كرامة المتوفى.

وافقت.

دخلت الغرفة.

هذه المرة، لم تكن خطواتي مترددة كما كانت من قبل. عرفت أين أقف، وكيف أستمع إلى التعليمات، ومتى أتراجع كي أترك للطبيب مساحة للعمل. لم أطلب المشاركة، ولم أحاول إظهار مهارة لا أملكها.

راقبت فقط.

لكن داخلي لم يكن ساكنًا.

كلما شرح سيلفان سبب أهمية ملاحظة معينة، شعرت برغبة في الاقتراب. وكلما توقف لكتابة نتيجة، تمنيت لو استطعت رؤية ما يراه بعينيه، لا أن أكتفي بسماع تفسيره.

لم يعد الكتاب كافيًا.

ولم تعد الرسوم كافية.

حتى الكلمات التي كنت أدوّنها في دفتري بدت لي الآن كأنها ظلال بعيدة لشيء لا يمكنني فهمه إلا إذا وقفت أمامه.

وحين انتهى الفحص، خرجت مع سيلفان، وسألته إن كان بإمكاني التقدم في التدريب تحت إشرافه.

فكر قليلًا.

— يمكنكِ مواصلة التعلم، لكنني أريد منكِ أن تفهمي شيئًا لا أريدكِ أن تبحثي عن الحالات التي تثير فضولكِ فحسب. أريدكِ أن تتعلمي احترام المريض، حيًا كان أم متوفى، وأن تعرفي متى يكون السؤال ضروريًا ومتى يتحول إلى رغبة لا تخدم أحدًا.

أومأت.

— أفهم.

لكنني لم أكن متأكدة من أنني أفهم كل ما قاله.

كنت أريد أن أتعلم، نعم.

وأردت أن أكون طبيبة أفضل.

إلا أن هناك رغبة أخرى بدأت تنمو تحت هذين الهدفين، رغبة لا تشبههما، ولا يمكنني تقديمها في طلب رسمي أو الاعتراف بها في اجتماع.

كنت أريد أن أعود إلى تلك الغرفة.

وأن أشارك في العمل بيديّ مرة أخرى.

لا لأنني أردت إثبات أنني أستطيع تحمل المشهد، بل لأنني أردت أن أعرف إن كان ذلك الإحساس سيعود.

وهذه كانت أول مرة أخاف فيها من نفسي أكثر مما أخاف من الموت.

عدت إلى غرفتي قبل أن يطلع الفجر، وفتحت دفتري لأدوّن ما لم أستطع قوله لأحد.

قلبت الصفحات التي كتبت فيها عن المستشفى، وعن الحالات التي راجعتها، وعن الأسئلة التي لم أجد لها إجابات.

ثم وجدت صفحة قديمة، كنت قد كتبت فيها بعد وفاة جوزيف:

«أريد أن أعرف لماذا مات.»

مررت أصابعي فوق الكلمات.

تذكرت إيفيرن، والقبور، والعلامة داخل الدائرة، والرسالة التي أمرتني بالبحث عمّن دُفن خارج الأسوار.

كان كل ذلك ما يزال موجودًا في مكان ما من ذاكرتي، لكنه بدا بعيدًا، كأنني أراه من خلف زجاج سميك.

لم أعد أفكر في جوزيف كلما دخلت المستشفى.

لم أعد أتذكر رسالته كلما مررت قرب غرفة الفحص.

ولم أعد أسأل نفسي كل ليلة إن كان موته يخفي شيئًا لم أكتشفه بعد.

كنت أقول لنفسي إنني سأعود إلى تلك المسألة حين أستقر، حين تنتهي أزمة التمويل، وحين أمتلك الوقت الكافي.

لكنني كنت أعرف أنني أكذب قليلًا.

لأنني حين فتحت الصفحة التالية، لم أكتب عن جوزيف.

كتبت عن الشعور الذي انتابني في غرفة الغسل.

عن ارتباكي.

عن اللحظة التي لم أستطع تفسيرها.

ثم كتبت سؤالًا واحدًا:

ماذا لو لم تكن تلك اللحظة حادثة عابرة؟

توقفت، والقلم معلق فوق الورق.

كان السؤال مخيفًا، ليس لأنه يثبت شيئًا، بل لأنه يفتح بابًا لم أكن أريد الاعتراف بوجوده.

حاولت أن أكتب إجابة عقلانية.

«ربما كان توترًا.»

ثم أضفت:

«ربما كانت صدمة.»

ثم توقفت.

لم أستطع كتابة الجملة التي كانت تتشكل في رأسي.

أن جزءًا مني استمتع بتلك اللحظة.

وضعت القلم جانبًا، ونهضت إلى النافذة.

في الخارج، كان القصر ساكنًا، والحديقة غارقة في الظلام. تذكرت جوزيف وهو يزرع الأعشاب في رقعته الصغيرة، وكيف كان يقول إن الإنسان قد يخلط بين ما يحتاج إليه وما يشتهيه، إذا لم يتعلم الإصغاء إلى نفسه.

لطالما ظننت أنني أفهم قصده.

الآن، لم أعد متأكدة.

في صباح اليوم التالي، وصلت إلى المستشفى قبل الجميع.

كان سيلفان في مكتبه، يراجع برنامج التدريب للأسبوع المقبل. طلبت منه أن يضيف اسمي إلى جلسات الفحص التشريحي المقررة، وأن يسمح لي بالتعلم العملي كلما رأى أنني مستعدة.

لم يرفض، لكنه وضع شروطًا واضحة تتعلق بالإشراف والتدريب واحترام الإجراءات.

وافقت على كل شيء.

خرجت من مكتبه وأنا أشعر براحة لم أشعر بها منذ أسابيع.

لم تكن راحة الحزن الذي يجد طريقًا إلى السكون.

كانت راحة شخص اتخذ قرارًا.

وحين وصلت إلى نهاية الممر، سمعت صوت عربة معدنية تتحرك خلف أحد الأبواب، فتوقفت دون أن أقصد.

لم أكن أرى ما وراء الباب.

ولم يكن هناك شيء يستدعي التوقف.

لكنني شعرت بقلبي يتسارع، وبذلك الانتباه الحاد يعود إلى جسدي، كأن العالم كله انكمش في اتجاه واحد.

أغمضت عيني للحظة.

ثم فتحتها، وتابعت السير.

لم يحدث شيء في ذلك الصباح يستحق أن يروى.

لم أؤذِ أحدًا.

لم أتجاوز تعليمات الطبيب.

ولم أفعل سوى طلب المزيد من التدريب.

ومع ذلك، كنت أعرف أن شيئًا قد بدأ.

لم تكن البداية في قطرة الدم التي لامست وجهي، ولا في اللحظة التي وقفت فيها أمام المرآة.

في اليوم التالي عدت إلى المستشفى، لكنني لم أعد أرى المشرحة كما رأيتها من قبل؛ صار الطريق إليها أقصر في رأسي، حتى حين كنت أقاوم السير فيه.

لم أكن أملك اسمًا لما يتغير في داخلي، لكنني بدأت أختبر حدودي بدل أن أكتفي بالخوف منها.

لم أعد أريد تسمية ما يحدث لي كي يبدو أقل خطورة.

أردت أن أعرف إلى أين ستقودني الخطوة التالية، مع أن جزءًا مني كان يعرف أن الفضول لم يعد بريئًا.

وكان ذلك كافيًا لأمضي، لا لأنني شجاعة، بل لأنني لم أعد أحسن التراجع.

الفصل الثامن عشر

الرائحة التي لم تغادر يديّ

لم تكن تلك الرغبة صاخبة.

لم تأتِ على هيئة صوت يأمرني، ولا كفكرة واضحة أستطيع الإشارة إليها والقول: هنا بدأ كل شيء. تسللت بهدوء، مثل رطوبة سوداء تتجمع خلف جدار، لا يلاحظها أحد حتى تتشقق الدهانات ويسقط أول جزء من السقف.

في البداية، كنت أجد أعذارًا لنفسي.

أخبرت نفسي أنني أريد أن أتعلم الطب جيدًا، وأن فهم الموت جزء من فهم الحياة، وأن خوفي من بعض الأفكار لا يعني أنني أريد تنفيذها. كنت أكرر هذه الحجج حتى صارت مألوفة، وحتى كدت أصدق أنني ما زلت الفتاة نفسها التي كانت تجلس في حديقة جوزيف وتكتب أسماء النباتات في دفترها.

لكنني لم أعد تلك الفتاة تمامًا.

كنت أعرف ذلك كلما دخلت قسم الفحص، وكلما رأيت الطاولة المعدنية تحت الضوء الأبيض، وكلما وجدت نفسي أراقب أيدي الأطباء أكثر مما أستمع إلى كلماتهم.

كنت أريد أن أشارك.

أن أتعلم بيديّ.

أن أتوقف عن الوقوف على الحافة.

وكان هناك سبب آخر لم أجرؤ على كتابته: أردت أن أعرف إن كانت تلك النشوة التي شعرت بها في المرة الأولى ستعود.

جاءت اللحظة الثانية في مساء ممطر.

كان المستشفى مزدحمًا طوال النهار، وقد قضيت ساعات في متابعة الحالات وتدوين الملاحظات، حتى شعرت بأن رأسي امتلأ بأصوات لا أستطيع ترتيبها. حين انتهى عملي، مررت قرب قسم الفحص، فرأيت سيلفان يتحدث مع أحد الأطباء عن حالة وفاة تحتاج إلى مراجعة.

توقفت.

لم أكن مضطرة إلى البقاء. لم يطلب مني أحد ذلك، ولم يكن هناك شيء في جدول تدريبي يستدعي دخولي.

ومع ذلك، سألت إن كان بإمكاني الحضور.

نظر إليّ سيلفان لحظة، ثم وافق على أن أراقب من المكان المخصص، تحت إشرافه، مع التزام كامل بإجراءات القسم.

دخلت.

كانت الغرفة باردة، والضوء الأبيض قاسيًا إلى حد جعل الوجوه تبدو شاحبة، كأن الحياة نفسها قد انسحبت منها. ارتديت ثوب العمل والقفازات، ووقفت إلى جانب الطبيب، أحاول أن أركز على الشرح.

كان المتوفى رجلًا لا أعرف عنه شيئًا.

لا اسم أعرفه، ولا صوت أتذكره، ولا حكاية تربطني به.

ومع ذلك، وجدتني أتساءل عن حياته.

هل كان يكره المطر؟

هل كان يترك كوبه قرب النافذة وينساه حتى يبرد؟

هل كان هناك شخص سيكتشف غيابه بعد ساعات، ثم يقف أمام باب مغلق لا يعرف ماذا يفعل؟

لم تكن هذه الأسئلة تمنحني راحة. كانت تجعل حضوره أكثر واقعية، ثم تعيدني إلى حقيقة أنه لن يجيب.

بدأ الطبيب عمله، وشرح لسيلفان ما يلاحظه، بينما دوّنت الملاحظات التي طُلبت مني.

كنت أراقب.

أحاول أن أفهم.

أحاول أن أكون طالبة جيدة.

ثم حدث خطأ صغير أثناء العمل؛ حركة مرتبكة، وقطرة دم وصلت إلى قفازي، قبل أن ألاحظ أثرًا أحمر قرب معصمي.

توقفت عيناي عنده.

كان ينبغي أن أنصرف عن النظر إليه، وأن أتبع تعليمات التنظيف فورًا. وهذا ما فعلته في النهاية، لكن تلك الثواني القليلة بدت أطول مما ينبغي.

تذكرت المرة الأولى.

قطرة على وجهي.

المرآة.

وسؤالي الذي لم أستطع الإجابة عنه.

هل كان ذلك حادثًا عابرًا؟

أم أنني كنت أنتظر لحظة كهذه دون أن أعرف؟

طلب مني سيلفان الابتعاد عن منطقة العمل حتى أتأكد من سلامتي. استجبت، لكنني بقيت شاردة، أسمع صوته كما لو أنه يأتي من نهاية ممر طويل.

حين انتهى الفحص، وجدت نفسي وحدي للحظات في غرفة الغسل.

كان الماء يجري فوق القفازات التي خلعتها، ورائحة المطهر قوية إلى حد أنها لسعت أنفي. غسلت يديّ وفق التعليمات، ثم رفعت رأسي إلى المرآة.

كان هناك أثر أحمر صغير عند طرف معصمي، لم أكن متأكدة إن كان دمًا أم انعكاسًا من الضوء.

حدقت فيه.

ثم، في حركة سريعة لم أفهمها، مررت إصبعي على الأثر.

توقفت يدي قرب فمي.

كان كل شيء يحدث أمامي بوضوح مرعب، ومع ذلك شعرت كأنني أراقب شخصًا آخر يتحرك داخل جسدي.

لامست شفتاي طرف إصبعي.

وكان هناك طعم معدني عابر.

تراجعت فورًا.

لم أعرف إن كنت قد تذوقت الدم فعلًا، أم أن ذاكرتي صنعت الطعم من الخوف والتوقع. لكنني عرفت أنني لم أبتعد بالسرعة التي كنت سأبتعد بها لو كان الأمر مجرد خطأ عابر.

جاءتني رغبة مفاجئة في تكرار الحركة، رغبة خاطفة جعلتني أشد قبضتي حتى آلمتني أظافري.

ثم شعرت بالاشمئزاز.

لا من الدم وحده.

بل مني.

انحنيت فوق المغسلة، وغسلت فمي، ثم تمسكت بحافتها حتى توقفت يداي عن الارتجاف.

كان الماء باردًا، ورائحة المطهر تخنق المكان، لكنني ظللت أشعر بطعم معدني متخيَّل على لساني.

—لا.

قلت الكلمة بصوت مسموع.

ثم كررتها.

— لا، لا، لا.

لم يكن أحد يسمعني.

وهذا جعل الأمر أسوأ.

لأنني لم أكن أحاول إقناع شخص آخر.

كنت أحاول إقناع نفسي.

في طريقي إلى المنزل، ظللت أفرك أصابعي بمنديل ورقي، رغم أنني غسلتها أكثر من مرة.

كان المطر يضرب زجاج العربة، والمدينة تمر خلف النافذة على هيئة بقع ضوئية مشوشة. حاولت التفكير في أشياء عادية: الاجتماع المقرر في الصباح، الرسالة التي يجب أن أرسلها إلى إدارة المستشفى، الفستان الذي لم أعده إلى الخزانة.

لكن ذهني كان يعود إلى الغرفة البيضاء.

إلى الرجل الذي لم أعرف اسمه.

إلى اللحظة التي لم أستطع فيها التمييز بين الفضول والنفور.

لماذا شعرت بتلك اليقظة؟

لماذا بدا لي العالم أكثر وضوحًا لثوانٍ، ثم صار كل شيء بعد ذلك باهتًا؟

كنت خائفة من الإجابة، لكنني كنت أخاف أكثر من أن تختفي الرغبة قبل أن أفهمها.

حين وصلت إلى القصر، دخلت غرفتي وأغلقت الباب. خلعت ثيابي، ووضعتها بعيدًا، ثم وقفت أمام المرآة.

فتحت فمي قليلًا، وحدقت في انعكاسي.

لم يكن هناك ما يميزني عن نفسي في الأمس.

الوجه نفسه.

العينان نفسيهما.

الشفتان اللتان ابتسمتا لداميان قبل ساعات، واليدان اللتان وقّعتا أوراق المستشفى، وأقسمتا في صمت أنني سأحافظ على كرامة المرضى.

رفعت يدي إلى المرآة.

لامست سطحها البارد.

— من أنتِ؟

لم يجبني انعكاسي.

ضحكت مرة واحدة، ضحكة قصيرة كأنها خرجت من شخص بعيد.

ثم شعرت بالدموع تملأ عينيّ، لا لأنني فقدت السيطرة على نفسي، بل لأنني بدأت أفهم أنني لم أعد أستطيع الادعاء بأن كل ما يحدث داخلي مجرد فضول علمي.

كان هناك شيء آخر.

شيء لم أعرف كيف أسميه.

وكنت أخشى أن تسميته ستجعله حقيقيًا.

بعد ثلاثة أيام، مات رجل آخر في المستشفى.

لم تكن وفاته مرتبطة بالحالة السابقة، ولم يكن هناك ما يدعو إلى الشك في وقوع جريمة. كان مريضًا يعاني من مرض خطير، وقد تدهورت حالته رغم العلاج.

عرفت الخبر من سيلفان.

قال إن الفحص اللاحق قد يساعد في توثيق سبب الوفاة، وإن الفريق سيباشر الإجراءات الرسمية بعد الحصول على الموافقات اللازمة.

استمعت إليه، وسألته إن كان يسمح لي بالحضور.

وافق، ثم نظر إليّ طويلًا.

— أريدكِ أن تجيبي عن سؤال قبل ذلك.

شعرت بأن قلبي توقف لحظة.

— ما هو؟

— لماذا تريدين الحضور؟

كان سؤالًا بسيطًا.

لكنه وضعني أمام نفسي بطريقة لم يفعلها أي كتاب أو مرآة.

كدت أقول إنني أريد أن أتعلم. إنني أريد أن أفهم. إنني أريد أن أصبح طبيبة تستطيع التعامل مع الحالات الصعبة.

كل ذلك كان صحيحًا.

لكن الحقيقة لم تكن كاملة.

— لأنني لا أريد أن أظل عاجزة عن فهم ما يحدث أمامي، قلت أخيرًا.

لم يبدُ سيلفان راضيًا تمامًا، لكنه لم يرفض.

— إذًا تذكري أن العجز ليس عيبًا. العيب أن تقنعي نفسكِ بأنكِ تفهمين شيئًا لمجرد أنكِ تجرؤين على النظر إليه.

بقيت عبارته ترافقني حتى دخلت الغرفة.

هذه المرة، لم أبحث عن النشوة.

حاولت ألا أفكر في المرة السابقة أصلًا.

لكن الذاكرة لم تكن مطيعة.

كلما اقترب الطبيب من الطاولة، عاد إليّ ذلك الإحساس، ليس بوصفه ذكرى واضحة، بل كتوتر في أطراف أصابعي، وكأن جسدي يتذكر شيئًا لم أقرر بعد إن كنت أريده أم أخشاه.

وعندما انتهى الفحص، شعرت بخيبة أمل لم أستطع تبريرها.

لم يحدث شيء استثنائي.

لم تقع لحظة فاصلة.

لم أشعر بالشيء الذي كنت أخشى عودته، ولا بالراحة التي كنت أتمنى أن تمنحني إياها غيبته.

خرجت من الغرفة وأنا أكره نفسي لأنني انتظرت شيئًا.

ثم كرهت نفسي أكثر لأنني تمنيت لو حدث.

بدأت أبتعد عن الآخرين.

لم يكن ابتعادًا واضحًا يمكن لماريان أن تواجهني به. كنت أحضر العشاء، وأتحدث عن المستشفى، وأستمع إلى أخبار القصر. كنت أجيب عن أسئلة داميان، وأبتسم حين يمازحني، وأؤكد لسيلفان أنني ملتزمة بتعليماته.

لكنني كنت أحتفظ بأفكاري لنفسي.

لم أعد أكتب كل ما أشعر به في دفتري. كنت أخشى أن أرى الكلمات أمامي، وأن أكتشف أنني منحتها شكلًا لا يمكنني إنكاره.

ومع ذلك، كنت أعود إلى السؤال نفسه كل ليلة.

هل يمكن أن يشعر الإنسان بالنفور والرغبة في اللحظة ذاتها؟

هل يمكن أن يخاف من شيء، ثم يشتاق إليه؟

وهل يكفي أن تعرف أن فكرة ما خاطئة حتى تتوقف عن الرغبة فيها؟

لم أجد إجابات.

لكنني وجدت نفسي أبحث عن معلومات إضافية حول عمل قسم التشريح، وعن الحالات التي تتطلب فحصًا دقيقًا، وعن حدود مسؤولية الطبيب تجاه المتوفى.

كنت أقول إنني أدرس.

لكنني كنت أعرف أنني أحاول أن أجد طريقًا أعود منه إلى تلك الغرفة من دون أن أضطر إلى الاعتراف بسبب رغبتي الحقيقية.

في إحدى الليالي، وجدت نفسي في المستشفى بعد انتهاء الدوام.

لم أخطط لذلك حين غادرت القصر. كنت قد جئت لأخذ ملف نسيته في مكتبي، لكنني حين مررت قرب القسم، سمعت حركة في الداخل، ورأيت ضوءًا تحت الباب.

كان أحد العاملين يستعد لنقل متوفى إلى المكان المخصص لحفظ الجثمان، بعد اكتمال الإجراءات المطلوبة.

وقفت في نهاية الممر.

لم أقترب.

لم أسأل.

اكتفيت بالمراقبة من بعيد، بينما كان الموظف يتحدث مع زميله عن انتهاء العمل، وعن المطر الذي لم يتوقف منذ الصباح.

كان المشهد عاديًا إلى درجة موجعة.

رجلان يؤديان عملهما.

ممر بارد.

ضوء أبيض.

وجسد أصبح جزءًا من إجراءات المستشفى.

وفجأة، خطر لي أنني أستطيع أن أطلب البقاء. أن أقول إنني أريد مراجعة شيء، أو إنني أحتاج إلى متابعة ملف، أو أنني أبحث عن فرصة للتعلم.

كانت هناك عشرات الأعذار.

لكنني لم أستخدم أيًا منها.

وقفت في مكاني حتى غادر الموظفان، ثم نظرت إلى الباب المغلق.

لم أكن قد فعلت شيئًا.

ومع ذلك، شعرت بأنني وصلت إلى حافة قرار.

قرار لا أعرف إن كنت سأعود عنه إذا خطوت بعده.

عدت إلى مكتبي، وأخذت الملف الذي جئت من أجله، ثم غادرت المستشفى.

في الطريق إلى المنزل، كررت لنفسي أنني اتخذت القرار الصحيح.

لكنني لم أشعر بالفخر.

شعرت بخيبة أمل.

وهذه كانت اللحظة التي أدركت فيها أن المشكلة لم تعد في الأفكار التي تزورني.

بل في أنني بدأت أحزن حين لا أنفذها.

في الأيام التالية، ازدادت أفكاري ظلمة.

لم أعد أكتفي بتخيّل ما قد أتعلمه في غرفة الفحص. بدأت أفكر في الجثة نفسها بوصفها شيئًا يمكن أن يبقى أمامي بعيدًا عن إشراف الطبيب، بعيدًا عن صوته الذي يذكرني بالحدود، وبعيدًا عن القواعد التي تمنحني سببًا للتوقف.

كنت أعرف أن هذا التفكير تجاوز كل ما تعلمته.

المتوفى ليس ملكًا لمن يريد أن يعرف.

والجسد ليس شيئًا يُنتزع من مكانه لأن فضول شخص ما أصبح أقوى من حكمه.

كنت أعرف ذلك.

لكن المعرفة لم توقف الفكرة.

في إحدى الليالي، وجدتني أرتدي معطفي وأقف عند باب غرفتي، والمفتاح في يدي. لم أكن قد قررت إلى أين سأذهب، ولم أكن أملك خطة واضحة. كنت فقط أشعر أن البقاء في القصر سيجعلني أختنق.

ثم رأيت دفتر جوزيف على الطاولة.

تذكرت تحذيره.

«إياك أن تقتربي من مقابر الجثث، ولتعيشي حياة طويلة».

جلست.

قرأت العبارة مرات عدة، حتى بدأت الحروف تتداخل أمام عيني.

ألم يكن يعرفني؟

ألم يعرف أنني حين أُمنع من شيء، أظل أفكر فيه حتى يتحول المنع إلى باب لا أرى سواه؟

ربما كان يحاول حمايتي من الآخرين.

وربما كان يحاول حمايتي من نفسي.

وضعت الدفتر جانبًا، وغطيت وجهي بيديّ.

للحظة، اشتقت إليه اشتياقًا كاد يمزق صدري. تمنيت لو كان حيًا، لو استطعت الجلوس معه في حديقته، والاعتراف بأنني لا أفهم ما يحدث لي، وأنني أخشى أن أكون قد بدأت أتحول إلى شخص لم يكن ليرغب في معرفته.

لكنني لم أستطع الاتصال بالموتى.

ولم أستطع إعادة نفسي إلى ما كنت عليه.

لم تكن أول خطوة أتجاوز بها حدودي كبيرة كما تخيلت.

كانت أصغر من أن تبدو حاسمة، وأشد خطورة من أن تكون عابرة.

في إحدى الأمسيات، وصلت إلى المستشفى متأخرة، بعد أن عرفت أن جثمانًا سيُنقل إلى قسم الفحص في اليوم التالي. كنت قد أقنعت نفسي بأنني سأذهب فقط لأراجع ملف الحالة، وأنني سأغادر فور انتهائي.

لكن حين وجدت الممر خاليًا، وسمعت صوت المطر خلف النوافذ، بدأت أفكر في أن أحدًا لن يلاحظ وجودي لبعض الوقت.

توقفت أمام الباب.

تذكرت وجه سيلفان وهو يحذرني من الخلط بين الجرأة والفهم.

تذكرت ماريان وهي تضع كوب الشاي قرب يدي.

وتذكرت جوزيف، الذي لم يطلب مني يومًا أن أكون عظيمة، بل أن أكون صادقة مع نفسي.

ثم فتحت الباب.

لا أريد أن أصف ما فعلته بعد ذلك على أنه قرار مدروس؛ لأنه لم يكن كذلك. لم أضع خطة واضحة، ولم أكن أتصرف بعقل بارد. كنت أتحرك تحت ضغط رغبة تضخمت في رأسي، وأحاول في كل لحظة أن أقنع نفسي بأن الخطوة التالية ستكون الأخيرة.

لم تكن الأخيرة.

عندما أدركت أنني تجاوزت حدودًا لا يحق لي تجاوزها، كان الأوان قد فات على أن أتظاهر بأنني ما زلت أقف خارج الباب.

لم أستطع إقناع نفسي بأن ما فعلته كان تعلمًا.

ولم أستطع تسميته بحثًا.

لقد تصرفت كما لو أن حاجتي إلى المعرفة تمنحني حقًا لا أملكه.

وهذا كان أول كذب حقيقي قلته لنفسي.

حين عدت إلى المنزل، لم أشعر بالنشوة التي تخيلتها.

شعرت برعب بارد، ثقيل، يلتصق بجلدي مثل رائحة لا تزول.

كان المطر قد بلل معطفي، وكانت يداي ترتجفان. دخلت غرفتي وأغلقت الباب، ثم بقيت واقفة في منتصفها، غير قادرة على تذكر آخر مرة شعرت فيها بأن المكان آمن.

لم يكن ما رأيته هو الذي أرعبني وحده.

كان ما فعلته.

لقد عبرت حدًا كنت أعرف أنه موجود، ثم حاولت أن أقنع نفسي بأن فضولي أقوى من القواعد، وأن معرفتي بالطب تجعلني مختلفة عن شخص يتصرف بدافع الرغبة وحدها.

لكنني لم أكن مختلفة.

كنت إنسانة تعرف الصواب، ثم اختارت أن تتجاهله.

جلست على الأرض، ووضعت يديّ أمامي.

بدتا عاديتين.

يدين وقّعتا أوراق المستشفى، وكتبتا أسماء النباتات في دفتر قديم، ولمستا أوراق جوزيف حين كان يعلمني كيف أميز بين الأعشاب.

والآن، لم أعد أستطيع النظر إليهما بالطريقة نفسها.

غسلتهما.

ثم غسلتهما مرة أخرى.

لم يكن هناك ما يستدعي التكرار، لكنني لم أستطع التوقف حتى احمر جلدي وشعرت بالألم.

بعد ذلك، رفعت رأسي إلى المرآة.

كان وجهي شاحبًا، وعيناي واسعتين، وفمي مشدودًا في تعبير لم أستطع تفسيره.

ثم حدث شيء جعلني أتراجع.

ابتسمت.

لم تكن ابتسامة سعادة.

كانت حركة صغيرة، خاطفة، ظهرت على وجهي في اللحظة التي تذكرت فيها أنني فعلت ما كنت أتخيله.

اختفت فورًا.

لكنني رأيتها.

ورأيت نفسي أراها.

وضعت يدي على فمي، وشعرت بالغثيان.

— ماذا فعلتِ؟

لم يجبني أحد.

لم يكن هناك أحد سوى انعكاسي، والباب المغلق، والليل الذي بدأ يضغط على النوافذ.

في الصباح، ذهبت إلى المستشفى كأن شيئًا لم يحدث.

ارتديت ملابسي بعناية، وربطت شعري، وتناولت فطوري مع ماريان. سألتني إن كنت قد نمت جيدًا، فأجبتها بأنني كنت أراجع بعض الملفات.

لم تشك بي.

وهذا كان أسوأ من أن تشك.

في المستشفى، تحدثت مع سيلفان عن جدول التدريب، وراجعت بعض الملاحظات، ووقّعت أوراقًا تحتاج إلى توقيعي. لم أرتكب خطأ ظاهرًا، ولم يلاحظ أحد ارتباكي.

وحين مررت قرب قسم الفحص، لم أتوقف.

واصلت السير.

لكنني كنت أسمع في رأسي صوتًا يقول إنني أستطيع العودة.

وأن ما حدث لم يكن سوى البداية.

تسارعت خطواتي، كأنني أهرب من الصوت، لكنني كنت أعرف أنه لن يبقى خلف باب أو في ممر واحد.

لقد عاد معي إلى المنزل.

واستيقظ معي.

وجلس إلى جواري حين حاولت النوم.

بعد أيام، استدعاني داميان إلى لقاء قصير لمناقشة تطورات تمويل المستشفى.

كنت قد نسيت، طوال النهار، أنني لم أنم جيدًا منذ عدة ليالٍ. أو ربما لم أعد أميز بين التعب واليقظة المفرطة.

جلس داميان قبالتي، وقرأ التقرير الذي قدمته، ثم رفع عينيه.

— تبدين مختلفة.

تصلبت أصابعي فوق حافة الملف.

— مختلفة كيف؟

—لا أعرف. أكثر هدوءًا، ربما. أو أكثر انشغالًا بشيء لا تريدين الحديث عنه.

ابتسمت ابتسامة محسوبة.

— ربما بدأت أتعلم أن بعض الأمور لا تستحق النقاش.

راقبني لحظة، ثم أعاد التقرير إلى الطاولة.

— أتمنى فقط ألّا تكوني تحملين أكثر مما تستطيعين.

كادت العبارة تجعلني أضحك.

لو عرف ما أحمله، لما قالها بهذه البساطة.

لكنني اكتفيت بالشكر، وتحدثنا عن المستشفى حتى انتهى اللقاء.

وحين خرجت، شعرت براحة غريبة لأنني استطعت خداعه، رغم أنني لم أكن أعرف ما الذي يخيفني في أن يراني على حقيقتي.

لم يكن داميان يعرف.

لم يكن سيلفان يعرف.

لم تكن ماريان تعرف.

ولم يكن هناك شخص واحد في العالم يستطيع أن يخبرني ماذا أفعل الآن.

كنت وحدي مع ما حدث.

ومع ذلك، لم أعد أفكر في التراجع وحده.

كنت أفكر في كيفية العودة إلى القسم، وفي الفرصة التالية التي قد تمنحني إياها الأيام.

وهذا ما جعلني أفهم أخيرًا أنني لم أعد أواجه فضولًا عابرًا.

لقد بدأت أتعلم كيف أخفيه.

في تلك الليلة، فتحت دفتر جوزيف على صفحته الأخيرة.

قرأت تحذيره مرة أخرى.

«إياك أن تقتربي من مقابر الجثث، ولتعيشي حياة طويلة».

ثم أغلقت الدفتر، ووضعته في الدرج.

لم أكن قد نسيت الرجل الذي مات.

ولم أكن قد نسيت السؤال الذي قادني إلى إيفيرن.

لكنني، للمرة الأولى، شعرت بأن هناك شيئًا آخر صار ينافس ذلك السؤال على مكانه في رأسي.

شيئًا لا يرتبط بموت جوزيف، ولا بأسرار كاسيان، ولا بالقصور الملكية أو الملفات القديمة.

شيئًا يخصني أنا.

كنت قد بدأت رحلتي بحثًا عن إجابة، ثم وجدت نفسي أقترب من هاوية لا أعرف عمقها.

والمخيف لم يكن أنني سقطت فيها.

بل أن جزءًا مني، وأنا أقف على حافتها، كان يريد أن يعرف ما الذي يوجد في الأسفل.

أطفأت المصباح.

وفي الظلام، وضعت يدي على فمي، متذكرة الطعم المعدني الذي لم أعد أعرف إن كان حقيقيًا أم أن ذاكرتي أعادت اختراعه.

ثم همست:

— مرة واحدة فقط.

لكنني، حتى وأنا أقولها، كنت أعرف أنني لم أعد أصدق نفسي.

الفصل التاسع عشر

الجوع الذي استيقظ في العتمة

لم تكن الجثة في غرفتي مجرّد خطأ.

كان الخطأ أنني أدخلتها إلى حياتي، ثم وقفت أمامها عاجزة عن إقناع نفسي بأن أعيدها إلى حيث ينبغي أن تكون.

أغلقت الباب بالمفتاح، وأسندت ظهري إليه. ظللت أستمع إلى صمت المنزل، أترقّب وقع خطوات ماريان في الممر، أو صوتًا يأتي من الخارج، أو أي شيء يثبت أن العالم ما زال طبيعيًا في مكان ما، وأن الجنون الذي يملأ غرفتي لم يتجاوز عتبتها.

لكن الرائحة تجاوزتها.

كانت رائحة ثقيلة، رطبة، عالقة في الهواء كأن الغرفة نفسها بدأت تتعفّن. اختلطت برائحة الخشب القديم والقماش المغلق، وصارت كل نفس أتنفسه يعيدها إلى حلقي. فتحت النافذة، ثم ابتعدت عنها. عدت إليها. لم أعد أعرف إن كنت أحاول طرد الرائحة أم استنشاقها بعمق أكبر.

كان ذلك أول شيء أخافني حقًا.

لم أكن أريد أن أهرب.

كنت أريد أن أفهم لماذا لم أهرب.

اقتربت من الطاولة التي أخفيت تحتها ما جئت به. كانت يداي ترتجفان، لا من البرد وحده. سحبت الغطاء قليلًا، فرأيت ما يكفي لأشعر بأن معدتي تنقبض. أعدته بسرعة، ثم وقفت أحدّق في القماش، كأنني أتوقع أن يتحرك من تلقاء نفسه.

— أنتِ مريضة.

خرج صوتي خافتًا، غريبًا، كأنه صادر عن امرأة أخرى تقف خلفي.

ابتلعت ريقي.

— أنتِ تعرفين هذا، أليس كذلك؟

لم يجبني أحد.

ضحكت ضحكة قصيرة، جافة، ثم وضعت يدي على فمي. لم يكن في الأمر ما يستحق الضحك. لم يكن هناك شيء مضحك في أن أختبئ في غرفتي من جريمة ارتكبتها بيدي، ولا في أنني، بدل أن أفكر في العواقب، كنت أفكر في تلك اللحظة التي وقفت فيها أمام الباب المغلق للمشرحة، وعرفت أنني أستطيع العودة إلى منزلي فارغة اليدين.

ومع ذلك لم أفعل.

لقد أخذت الجثة لأنني أردت أن أعرف ما الذي سيحدث حين لا يكون هناك طبيب يراقبني، ولا تقرير أستند إليه، ولا صوت عاقل يطلب مني التراجع.

كنت أريد أن أعرف من سأكون حين لا يراني أحد.

والآن عرفت أنني لا أريد الإجابة.

أو لعلني أردتها أكثر مما ينبغي.

لم أعرف كم مضى من الوقت قبل أن أرفع الغطاء مجددًا.

هذه المرة لم أتراجع فورًا.

كان المشهد أشد قسوة مما احتملته مخيلتي. في المستشفى، كانت هناك قواعد تحيط بالموت؛ وجوه هادئة، وأيدٍ تعرف ما تفعل، وأصوات مهنية تجعل أكثر الأشياء فظاعة تبدو قابلة للفهم. هنا لم يكن هناك شيء من ذلك لا نظام، ولا مسافة آمنة، ولا أحد يستطيع أن ينتزع مني مسؤولية ما أراه.

كنت وحدي مع نتيجة اختياري.

ارتجفت أنفاسي، وشعرت بغثيان يصعد إلى حلقي. وضعت يدي على حافة الطاولة، وأغمضت عينيّ، لكن الظلام لم يخفف شيئًا. بقيت الصورة خلف جفنيّ واضحة، كأن عينيّ لم تعودا بحاجة إلى الضوء كي تريا.

وحين فتحتهما، وجدتني أقترب بدل أن أبتعد.

كان في داخلي صوتان.

الأول يصرخ بأن أخرج، وأن أطلب المساعدة، وأن أعيد كل شيء إلى مكانه قبل أن أتحول إلى شخص لا يمكن إنقاذه.

والثاني كان هادئًا على نحو مرعب.

لم يطلب مني شيئًا. لم يحتج إلى ذلك.

اكتفى بأن جعلني أريد النظر مرة أخرى.

وهذا ما فعلته.

لم تكن هناك لذة نظيفة أو جميلة كما حاول خيالي المريض أن يوهمني. كان هناك خوف، واشمئزاز، وارتباك، ورائحة أخذت تستقر في ثيابي وشعري، حتى خُيّل إليّ أن جلدي نفسه صار يحملها. كنت أرتجف، وأتراجع أحيانًا، ثم أعود بخطوة صغيرة، كأن فضولي يمسك بطرف ثوبي ويجرّني إلى الأمام.

وحين لاحظت أثرًا داكنًا على كمّي، توقفت.

حدقت فيه طويلًا.

كان ينبغي أن أراه وصمة. دليلًا على أنني تجاوزت حدًا لا يحق لي تجاوزه. كان ينبغي أن أخلع الثوب وألقيه بعيدًا، وأن أكره تلك العلامة حتى آخر عمري.

لكن عينيّ تعلقتا بها بطريقة جعلتني أخجل من نفسي.

لم يكن الدم جميلًا. لم يكن كما تصفه القصائد، ولا كما ترسمه اللوحات حين تمنحه لونًا أنيقًا وتترك الألم خارج الإطار. كان هنا فوضويًا، ثقيل الدلالة، مرتبطًا بجسد لم يعد قادرًا على الاعتراض، وبإنسانة بدأت تكتشف في نفسها شيئًا لا تريد تسميته.

ومع ذلك، لم أستطع أن أحوّل عينيّ عنه.

مررت إصبعي قرب البقعة، ثم توقفت قبل أن ألمسها.

—لا.

قلت الكلمة بحزم، لكن صوتي انكسر في منتصفها.

أعدت يدي إلى صدري، وأخذت أتنفس بسرعة. للحظة شعرت أنني على وشك البكاء. ثم تبدل شيء في داخلي، شيء صغير وخاطف، أشبه بوميض في غرفة مظلمة.

لم يكن فرحًا كاملًا.

كان أخطر من ذلك: رغبة في تكرار اللحظة.

ابتعدت عن الطاولة حتى اصطدم ظهري بالجدار.

— ماذا يحدث لي؟

لم أكن أسأل الجثة.

كنت أسأل الفتاة التي كنتها قبل ساعات، الفتاة التي كانت تعرف كيف تشعر بالشفقة، وكيف تنظر إلى الموتى باحترام، وكيف تعود إلى المنزل وتنام دون أن تخشى أفكارها.

لم تأتني إجابة منها.

لأنني، في مكان ما بين المستشفى وهذا المنزل، بدأت أفقد القدرة على تصديق أنها ما زالت موجودة.

عندما حاولت تنظيف الغرفة، اكتشفت أنني لا أستطيع التركيز على شيء واحد.

كنت أبدأ مهمة، ثم أتوقف لأتفقد النافذة. ألتقط قطعة قماش، ثم أنسى لماذا أمسكت بها. أستمع إلى صوت في الخارج، فأهرع إلى الباب، ثم أعود إلى الطاولة قبل أن أتأكد من أن الممر فارغ.

كل حركة كانت تذكرني بما فعلت.

وكلما حاولت محو أثره، ازددت وعيًا به.

كانت يداي باردتين، لكن العرق تجمع عند عنقي. شعرت أن الهواء لا يكفي، ففتحت النافذة أكثر، ثم أغلقتها حين تسلل صوت عربة إلى الشارع. خشيت أن يرفع أحد رأسه، أن يرى الضوء في غرفتي، أن يلاحظ شيئًا لا يستطيع تفسيره.

للمرة الأولى، لم أخف من أن يكتشف أحد سرًا يخص عائلتي.

خفت أن يكتشفني أنا.

جلست على الأرض، وأسندت رأسي إلى حافة السرير. لم أعد أحتمل الوقوف. حاولت أن أستعيد وجه جوزيف، صوته وهو يعلمني أسماء النباتات، وابتسامته حين أعود إليه بسؤال جديد.

«ليس كل ما تستطيعين معرفته ينبغي لك أن تفعليه، يا روران.»

كنت قد سمعت العبارة منه مرات كثيرة، لكنني لم أفهمها قط بهذه الطريقة.

لم يكن يحذرني من المعرفة.

كان يحذرني من اللحظة التي تصبح فيها المعرفة ذريعة، ومن اللحظة التي أكذب فيها على نفسي فأسمّي الرغبة اكتشافًا، والتجاوز شجاعة، والافتتان فهمًا.

ضغطت كفّي على عينيّ.

— أنا آسفة.

لم أعرف لمن قلتها أولًا.

للجثة؟ لجوزيف؟ لنفسي القديمة؟

ربما لهم جميعًا.

لكن الاعتذار لم يغيّر شيئًا. لم يفتح الباب، ولم يبدد الرائحة، ولم يجعل ما حدث حلمًا أستطيع نسيانه عند الصباح.

وعندما رفعت رأسي، وجدتني أنظر نحو الطاولة مرة أخرى.

كرهت نفسي بسبب ذلك.

كرهت أنني، وسط خوفي وندمي، كنت ما أزال أريد العودة إلى الشيء الذي أخافني.

طرقٌ خفيف على الباب جعل الدم يبرد في عروقي.

— رورا‌ن؟

كان صوت ماريان.

وقفت بسرعة، فاصطدمت ركبتي بحافة السرير. شهقت، ثم حبست أنفاسي. نظرت إلى الغرفة، إلى الفوضى التي تركتها، إلى النافذة، إلى الغطاء الذي لم أعد واثقة من قدرتي على تجاهله.

— نعم؟

خرج صوتي طبيعيًا على نحو أثار اشمئزازي.

— هل أنتِ بخير؟ لم تنزلي لتناول العشاء.

نظرت إلى يديّ.

كانتا ترتجفان.

ضممتهما خلف ظهري، كأنها تستطيع رؤيتهما من خلال الباب.

— أنا متعبة فقط. أريد أن أنام.

ساد صمت قصير.

— هل أُحضر لكِ شيئًا؟

كدت أقول نعم.

كدت أفتح الباب وأرتمي في حضنها، وأعترف بكل شيء، وأطلب منها أن تمنعني من العودة إلى تلك الغرفة. تخيلت للحظة أن صوتًا بشريًا قريبًا قد يعيدني إلى نفسي، وأنني إن أخبرتها بما حدث فسأصبح قادرة على كرهه كما ينبغي.

لكنني تخيلت أيضًا نظرتها حين تسمعني.

كيف ستتراجع؟ كيف ستحدق في وجهي بحثًا عن الفتاة التي تعرفها؟ وكيف ستدرك، شيئًا فشيئًا، أنها لا تعرفني كما ظنت؟

— لا، شكرًا. أحتاج إلى الراحة.

— كما تريدين. سأكون في الأسفل إن احتجتِ إليّ.

ابتعدت خطواتها.

انتظرت حتى اختفى صوتها تمامًا، ثم انزلقت إلى الأرض مرة أخرى.

لم أكن قد نجوت من انكشاف أمري.

كنت قد اخترت إخفاءه.

وكان الفرق بين الأمرين أوسع مما تخيلت.

في وقت متأخر من الليل، وقفت أمام المرآة.

غسلت وجهي مرات عدة، وبدلت ثيابي، وربطت شعري بعيدًا عن عنقي. فعلت كل ما استطعت لأبدو كما كنت في الصباح. لكن المرآة لم تمنحني الطمأنينة التي طلبتها منها.

حدقت في عينيّ.

كانتا عينَيّ نفسيهما، بلونهما وشكلهما اللذين يعرفهما الجميع. لم يظهر فيهما وحش، ولا علامة واضحة على أن شيئًا انكسر في داخلي. لم تتبدل ملامحي، ولم ينشق وجهي ليكشف عن سر مخيف.

وهذا تحديدًا ما أرعبني.

كان بوسعي أن أنزل غدًا، وأتحدث مع ماريان، وأذهب إلى المستشفى، وأقف أمام سيلفان، وربما ألتقي داميان وأجيبه عن أسئلته بابتسامة هادئة.

كان بوسعي أن أفعل كل ذلك، بينما أخفي وراء وجهي حياة أخرى بدأت دون أن يعلم بها أحد.

رفعت يدي نحو المرآة، ولمست سطحها البارد.

— أنتِ ما زلتِ رووان.

قلت ذلك كأنه حكم أريد تصديقه.

ثم أضفت، بصوت أخفض:

— أليس كذلك؟

لم أستطع الإجابة.

التفتُّ نحو الغرفة.

كان الغطاء ساكنًا، والنافذة مغلقة، والليل خارجها واسعًا بما يكفي ليبتلع أي صرخة. ومع ذلك شعرت أن المكان كله يضيق حولي، وأن الرائحة التي حاولت طردها قد انتقلت إلى مكان لا تصل إليه المياه ولا الصابون.

إلى ذاكرتي.

جلست إلى مكتبي وفتحت دفتري الجديد. بقي القلم بين أصابعي طويلًا قبل أن أكتب:

«الحالة الأولى خارج المستشفى.»

توقفت.

بدت العبارة باردة، مرتبة، كأنني أكتب ملاحظة لطبيبة شابة تحاول فهم حالة غامضة. مزقت الصفحة بعنف، ثم فتحت صفحة أخرى.

كتبت:

«لقد أخذت ميتًا إلى منزلي.»

تأملت الجملة.

كانت صادقة، لكنها لم تكن كاملة.

أضفت تحتها:

«والأسوأ أنني لم أعد أعرف إن كنت أخاف مما فعلت، أم مما اكتشفته عن نفسي.»

أغلقت الدفتر.

للمرة الأولى، لم أستطع أن أقنع نفسي بأن ما حدث لن يتكرر.

لم أعد أقول: مرة واحدة فقط.

لم أعد أملك الشجاعة الكافية لأكذب بهذه البساطة.

وفي تلك الليلة، بينما كنت أجلس على طرف سريري وأراقب الظلام، أدركت أن الجثة لم تكن الشيء الوحيد الذي أحضرته إلى المنزل.

لقد أحضرت معي حدًّا جديدًا.

حدًّا لم أكن أعرف بوجوده من قبل، وما إن عبرته حتى صار الرجوع أصعب من العبور.

وكان هناك شيء آخر، أكثر رعبًا من الرائحة، وأكثر إلحاحًا من الخوف من انكشاف أمري:

كنت أعرف أنني سأفكر في تلك الليلة غدًا.

وربما بعد غد.

وربما حين أقف مجددًا في المشرحة، وأرى بقعة حمراء على قفاز طبيب، سأشعر بذلك الانشداد نفسه، وسأضطر إلى مقاومة نفسي كي لا أتقدم خطوة أخرى.

أغمضت عينيّ، محاوِلةً النوم.

لكنني لم أستطع التخلص من الفكرة التي استقرت في رأسي كشوكة:

**لم تكن تلك الليلة نهاية فضولي.

كانت اللحظة التي تعلّم فيها فضولي كيف يجوع.**

الفصل العشرون

امرأتان تحت جلدٍ واحد

في الصباح، كنت ابنة كاسيان كما يعرفني العاملون في المستشفى.

أما في الليل، فكنت أخفي امرأة بدأت تتخذ قرارات لا تستطيع تبريرها.

لم يحدث التحوّل دفعةً واحدة. لم أستيقظ وحشًا، ولم يأمرني صوت غريب بما فعلت. كنت أتنازل كل مرة عن حدّ صغير، وأجد لنفسي تفسيرًا مقنعًا، حتى صار ما كان يخيفني بالأمس جزءًا من يومي، وصرت أفتقده حين يغيب.

بدأتُ أتعلم كيف أعيش بين عالمين.

في المستشفى، كنت أصل قبل الأطباء أحيانًا. أمرّ بين الأسرّة بخطوات ثابتة، أراجع الحسابات، أستمع إلى شكاوى المرضى، وأتحدث إلى العاملين بلهجة لا تسمح لأحد بأن ينسى مَن أكون. ابنة كاسيان. الوريثة التي حملت اسمًا أثقل من عمرها، وصارت مسؤولة عن مستشفى يكاد ينهار تحت ديونه.

كنت أوقّع الأوراق بيدي نفسها التي ترتجف ليلًا.

أبتسم للممرضة التي تخبرني بتحسّن مريض، وأربّت على كتف طفل يخاف من الدواء، ثم أعود إلى مكتبي فأجد انعكاس وجهي في زجاج النافذة. أتأمله طويلًا، باحثةً عن علامة واحدة تدلّ على أن أحدًا يستطيع رؤية ما أخفيه.

لم يكن هناك شيء.

وهذا ما أرعبني أكثر.

كنت أبدو طبيعية إلى حدّ الإتقان.

حتى الدكتور سيلفان لاحظ تحسّن أدائي. قال لي ذات صباح، وهو يقلب بعض التقارير:

— أصبحتِ أكثر دقة يا روران. لم تعودي تكتفين بما يقوله التقرير؛ صرتِ تبحثين عمّا أغفله.

كدت أضحك.

لو عرف كم صارت كلمة «أغفله» تعني لي، لما قالها بهذه الطمأنينة.

— ربما لأنني بدأت أفهم أن الحقيقة لا تظهر دائمًا من النظرة الأولى.

رفع عينيه إليّ، ثم ابتسم ابتسامة صغيرة.

— هذه أول علامة على طبيبة جيدة.

شكرته، وعدت إلى عملي.

لكنني لم أعد أعرف إن كنت أريد أن أفهم الموت كي أقاومه، أم لأنني اكتشفت أن الاقتراب منه يمنحني شعورًا لا أجد له اسمًا في أي كتاب.

كانت الليالي تتغيّر.

في البداية، كنت أقاوم الفكرة ساعات طويلة. أجلس أمام مكتبي، أفتح كتابًا، أقرأ الصفحة نفسها مرارًا، ثم أكتشف أن عينيّ تتحركان فوق الكلمات بينما ذهني في مكان آخر.

كنت أسمع أصوات المدينة تخفت، وأراقب الظلال تزحف على الجدران. وكلما اقترب الليل من منتصفه، شعرت بأن شيئًا في داخلي يستيقظ.

لم يكن جوعًا عاديًا.

الجوع العادي أعرفه؛ يهدأ بالطعام، ويتراجع حين يمتلئ الجسد. أمّا هذا، فكان يتغذّى على المقاومة نفسها. كلما وعدت نفسي بأن الليلة ستكون مختلفة، ازداد إلحاحه، كأن وعدي بالامتناع ليس إلا طريقة أخرى لاستحضاره.

وفي كل مرة كنت أستسلم، كنت أعود إلى الصباح التالي وأنا أحمل داخلي سرًّا جديدًا.

جثة بعد أخرى، بدأت المسافة بين الخوف والرغبة تتقلّص.

لم أعد أستطيع إقناع نفسي بأن ما أفعله حادثة عابرة، أو نزوة ستنتهي حين أفهمها. كنت أعرف أنني تجاوزت حدودًا لا ينبغي تجاوزها،

وأن وراء كل جسد غائب أسرةً قد تنتظر، واسمًا قد يُسأل عنه، ووجوهًا ستبحث عن إجابة لا أستطيع منحها.

ومع ذلك، كنت أعود.

كان أكثر ما يخيفني أنني لم أعد أحتاج إلى تبرير طويل. في الليالي الأولى، اختلقت لنفسي عشرات الأعذار: أريد أن أفهم، أريد أن أتعلم، أريد أن أعرف ما الذي يجعل الموت مختلفًا عن صورته في الكتب.

ثم بدأت الأعذار تقصر.

وبعدها لم أعد أقول شيئًا.

كنت أعرف السبب، وأخجل من الاعتراف به حتى لنفسي.

في إحدى الليالي، وقفت أمام المرآة بعد عودتي، عاجزةً عن التعرّف إلى المرأة التي تنظر إليّ.

كان ثوبي يحمل آثار ما حدث، ووجهي شاحبًا كأنني خرجت للتو من حلم مريض. لم يكن المشهد بحاجة إلى شيء آخر كي يرعبني؛ كانت المشكلة أنني لم أكن أنظر إليه بالنفور الذي توقّعته من نفسي.

كان هناك خوف، نعم. وارتجاف في أصابعي، وغثيان يصعد إلى حلقي كلما حاولت استعادة تفاصيل الليلة.

لكن تحت ذلك كله، كان شيء آخر ينبض.

رضا غامض، مشوّه، لا يشبه السعادة التي عرفتها يومًا. شيء جعلني أشيح بنظري عن المرآة، ثم أعود إليها بعد لحظات، كأنني أريد التأكد من أنني ما زلت الشخص نفسه.

— توقفي عن النظر إليّ، همست.

لم يتحرّك انعكاسي.

اقتربت من المغسلة، وفتحت الماء. ظللت أغسل يديّ حتى احمرّ جلدي، لكنني لم أشعر أنني أزيل شيئًا حقيقيًا. كانت الرائحة عالقة في ذاكرتي أكثر مما كانت عالقة في أصابعي؛ كلما ظننت أنها اختفت، أعادها إليّ صوت، أو صورة، أو لحظة صمت.

ثم حدث ما لم أكن مستعدة له.

ضحكت.

كانت ضحكة قصيرة، خرجت من صدري فجأة، ثم تكسّرت إلى ضحكات متتابعة لم أستطع إيقافها. وضعت يدي على فمي، خائفةً أن

يسمعني أحد في الخارج، لكن الضحك ازداد حتى آلمتني معدتي وامتلأت عيناي بالدموع.

لم أكن سعيدة.

كنت أعرف ذلك.

لكنني، لثوانٍ مرعبة، لم أستطع التمييز بين السعادة وبين شيء آخر يتنكّر في هيئتها.

حين انتهى كل شيء، جلست على الأرض وظهري إلى الخزانة. بقيت هناك طويلًا، أحدّق في البلاط البارد.

للمرة الأولى، لم يكن خوفي من أن يكتشفني أحد.

كان خوفي من أن يأتي الصباح، فأجدني أريد العودة.

في اليوم التالي، استقبلتُ اللورد إدوارد هول في مكتبي.

دخل بملابسه الأنيقة ورائحته النفّاذة، يحمل ملفًا جلديًا تحت ذراعه. تحدثنا عن الحسابات، وعن تأخّر بعض المورّدين، وعن اقتراح جديد لتأمين جزء من نفقات المستشفى.

كنت أجيب بدقة، وأراجع الأرقام، وأصحح له خطأً في أحد التقديرات.

وفي منتصف الحديث، توقّف عن الكلام.

— هل نمتِ جيدًا؟

رفعت رأسي.

— لماذا تسأل؟

— تبدين متعبة.

ابتسمت ابتسامة محسوبة.

— العمل لا ينتظر أن أرتاح.

ظل ينظر إليّ لحظة، ثم أعاد الملف إلى حقيبته.

— والدكِ كان يقول الشيء نفسه. لكنه كان يعرف متى يترك العمل ويعود إلى منزله.

انقبض شيء في صدري عند ذكر كاسيان.

لم أكن قد فكّرت بأبي منذ أيام، لا بالطريقة التي اعتدت التفكير بها. لم أعد أفتّش عن قاتله، ولم أعد أفتح الصندوق الذي خبّأت فيه الأوراق

والرمز والرسالة. حتى اسم جوزيف صار يمرّ في رأسي مثل وجه بعيد خلف نافذة مغطاة بالبخار.

كان هناك عالم كامل من الأسئلة ينتظرني.

وأنا كنت أضيّع نفسي في عالم آخر.

— سأحاول أن أكون أكثر حذرًا، قلت.

نهض اللورد هول، ثم توقّف عند الباب.

— احذري من أن يتحوّل ما تحملينه من مسؤولية إلى شيء يلتهمكِ.

لم أجب.

بعد خروجه، بقيت أنظر إلى الباب المغلق.

كان غريبًا كيف يستطيع الآخرون الاقتراب من الحقيقة من دون أن يعرفوا أنهم يفعلون ذلك. جملة عابرة، نظرة طويلة، سؤال صغير؛ أشياء لا تعني شيئًا في ظاهرها، لكنها كانت تجعلني أشعر بأن الجدران تضيق حولي.

أغلقت الملف الذي أمامي، وفتحت درج المكتب.

في داخله كانت هناك صورة قديمة لجوزيف، مطوية عند أحد أطرافها.

تأملتها للحظات.

ثم أعدتها إلى مكانها، وأغلقت الدرج بقوة أكبر مما ينبغي.

لم أكن مستعدة لمواجهة الرجل الذي أحبني كما أنا.

لأنني لم أعد أعرف إن كانت تلك المرأة ما تزال موجودة.

كان داميان أكثر صعوبة من الآخرين.

لم يكن يراقبني كما يفعل الحراس، ولم يكن يسألني الأسئلة المباشرة التي يطرحها الأطباء. كان يترك لي مساحة كافية كي أسترخي، ثم يقول جملة واحدة تجعلني أشعر بأنه رأى شيئًا حاولت إخفاءه.

التقينا في الحديقة الملكية بعد ظهر رمادي. كان واقفًا قرب النافورة، يرتدي معطفًا أسود، وشعره الداكن يتحرك قليلًا مع الريح. بدا هادئًا، واثقًا، كأن المملكة كلها ليست سوى غرفة يعرف أين يضع أثاثها.

حين رآني، ابتسم.

— بدأتُ أظن أن المستشفى سيبتلعكِ ولن يعيدكِ إلينا.

— المستشفى يحتاج إلى من يديره.

— وأنتِ تحتاجين إلى ما هو أكثر من العمل.

قالها ببساطة، ثم أشار إلى المقعد المجاور له.

جلست.

كان الحديث معه سهلًا على نحو مزعج. يعرف متى يمزح، ومتى يصمت، ومتى يتحدث عن كاسيان بطريقة تجعلني أشعر بأنه يحترم ذكراه حقًّا. لم يكن يحاول انتزاع اعتراف مني، ولم يطلب مني أن أشرح تعبي.

وهذا ما جعلني أخشى الحديث معه أكثر.

— هل ما زلتِ ترين نفسكِ طبيبة؟ سألني.

نظرت إلى الماء.

— أظن أنني ما زلت أحاول معرفة ما أريد أن أكونه.

— إجابة صادقة.

— هل كنت تتوقع إجابة أخرى؟

مال نحوي قليلًا، وفي عينيه الداكنتين لمعة يصعب تفسيرها.

— توقعت أن تقولي إنكِ تعرفين تمامًا ما تريدين. معظم الناس يفعلون ذلك حين يخافون من اكتشاف العكس.

شعرت بأن الكلمات اقتربت أكثر مما ينبغي.

— وأنت؟ هل تعرف ما تريد يا داميان؟

لم يجب فورًا. ظل ينظر إليّ، ثم قال:

— أعرف ما لا أريد خسارته.

كان في صوته شيء جعل قلبي يتعثر لحظة.

لم أكن أعرف إن كان ذلك بسبب قربه، أم بسبب التعب الذي جعل أبسط المشاعر أكثر حدّة. أردت أن أصدّق أنني ما زلت قادرة على الشعور بشيء طبيعي؛ أن ابتسامته تستطيع أن تربكني، وأن قربه يستطيع أن ينسيني للحظات ما يحدث في الليالي التي لا يراها أحد.

لكن حين مدّ يده وأزاح خصلة شعر عن وجهي، تراجعتُ قبل أن أفكر.

توقفت يده في الهواء.

لم يتغير وجهه كثيرًا، إلا أن نظرته صارت أكثر انتباهًا.

— هل أخفتكِ؟

—لا. أنا فقط متعبة.

لم يضغط عليّ. أنزل يده، ثم قال بهدوء:

— لن أطلب منكِ أن تكوني بخير طوال الوقت.

كان ينبغي أن أشعر بالراحة.

لكنني شعرت بالخجل.

لأنني كنت أجلس أمام رجل يظن أنني أخوض معركة مع الحزن والمسؤولية، بينما كنت أخفي عنه شيئًا لم أستطع حتى أنا تسميته من دون أن أشعر بالقرف من نفسي.

وحين عدت إلى القصر، لم أستطع تذكّر معظم حديثنا.

تذكّرت فقط أنه نظر إليّ كما لو أنني ما زلت أستحق أن أُحَب.

وهذا، بطريقة لم أفهمها، جعلني أخاف من نفسي أكثر.

بدأت الأخطاء الصغيرة تظهر في حياتي النهارية.

في أحد الصباحات، وقّعتُ على تقرير من دون أن أقرأ الصفحة الأخيرة، فاضطر سيلفان إلى إعادته إليّ. وفي يوم آخر، نسيت موعدًا مهمًا مع أحد المورّدين، ثم قضيت ساعة كاملة أبحث عن دفتر كان في يدي.

لم تكن تلك أخطاء كبيرة، لكنها لم تكن تشبهني.

صرت أراقب نفسي كما يراقب الطبيب مريضًا لا يفهم أعراضه. أحسب ساعات نومي، وأتذكر ما أكلته، وأحاول أن أجد تفسيرًا منطقيًا للإرهاق الذي يرافقني حتى بعد ليلة هادئة.

لكنني كنت أعرف أن المشكلة لا تتعلق بالنوم.

كنت أعيش نهاري وأنا أنتظر الليل، ثم أقضي الليل وأنا أخشى الصباح.

وبينهما، كانت روران الأخرى تكبر.

لم تكن تظهر في المرآة، ولم تكن تتحدث بصوت منفصل. كانت ترتدي وجهي نفسه، وتستعير ذاكرتي نفسها، وتعرف أسماء الأشخاص

الذين أحبهم. كانت تستطيع أن تجلس إلى ماريان على مائدة الإفطار، وأن تضحك لنكتة سخيفة، وأن تسأل عن صحة أحد العاملين.

ثم تنتظر أن يغلق الجميع أبوابهم.

لم أعد أستطيع أن أقول إنني أفقد السيطرة تمامًا، لأنني كنت أعود إلى عملي وأدير المستشفى وأحافظ على أسراري. ولم أعد أستطيع أن أقول إنني أسيطر على نفسي، لأنني كنت أعرف أن قراراتي لم تعد تُتخذ كلها في وضح النهار.

كان الأمر أشبه بأنني أضع قفلًا على باب، ثم أحتفظ بالمفتاح في يدي وأتظاهر بأنني لا أعرف كيف يُفتح.

في إحدى الليالي، جلست أمام دفتر الحالات الجديد.

كان مفتوحًا على صفحة بيضاء، وإلى جانبه القلم الذي استخدمته في تسجيل ملاحظات المستشفى. بقيت أحدّق في الصفحة طويلًا، ثم كتبت:

«ما الذي يجعل الإنسان يخاف من شيء، ثم يعود إليه بإرادته؟»

توقفت.

شطبت الجملة.

كتبت بدلًا منها:

«هل يمكن للفضول أن يتحوّل إلى حاجة؟»

شطبتها أيضًا.

ضغطت بالقلم على الورق حتى كاد رأسه يمزّقه، ثم رميته بعيدًا.

لم أكن أكتب ملاحظات طبية.

كنت أحاول أن أجد لغة تجعل ما أفعله أقل فظاعة.

وحين أدركت ذلك، أغلقت الدفتر بعنف.

في الخارج، ضربت الريح النافذة، وارتجف ضوء المصباح. للحظة، بدا لي أن الغرفة تضيق، وأن الهواء الذي أتنفسه صار أثقل من أن يصل إلى رئتيّ.

نهضت، ومشيت حتى الباب.

كان بوسعي أن أطلب من ماريان البقاء معي. كان بوسعي أن أخبرها أنني لا أستطيع النوم، وأن شيئًا ما يحدث لي، وأنني خائفة من نفسي.

لكن ماذا كنت سأقول بعدها؟

إنني أشتاق إلى شيء أكرهه؟

إنني أخاف من الليالي، لكنني أعدّ الساعات حتى تأتي؟

إنني صرت أرتعب من احتمال أن يختفي هذا الجوع، لأن اختفاءه سيجبرني على مواجهة الفراغ الذي تركه داخلي؟

وضعت يدي على مقبض الباب، ثم سحبتها.

لم أفتحه.

عدت إلى مكتبي، وجلست أمام الدفتر المغلق.

وفي صمت الغرفة، فهمت أخيرًا أن السر لم يعد شيئًا أخفيه عن المملكة أو عن داميان.

لقد صار شيئًا أخفيه عن رووان نفسها.

وأن أخطر ما حدث لي لم يكن أنني تجاوزت حدًا لا ينبغي تجاوزه.

بل أنني بدأت أتعلم كيف أعيش بعد تجاوزه.

في الصباح التالي، ارتديت ثوبي الأنيق، ورفعت شعري، ووضعت وجهي الهادئ في مكانه الصحيح.

ثم نزلت إلى المستشفى.

استقبلني العاملون باحترام، وانحنى لي أحد الأطباء، وركضت ممرضة تخبرني عن تحسّن مريض كان وضعه حرجًا.

ابتسمت لهم جميعًا.

وحين مررت أمام الزجاج الطويل في الممر، رأيت انعكاسي يسير إلى جانبي.

للحظة، خُيّل إليّ أن ابتسامته تأخرت عن ابتسامتي.

توقفت.

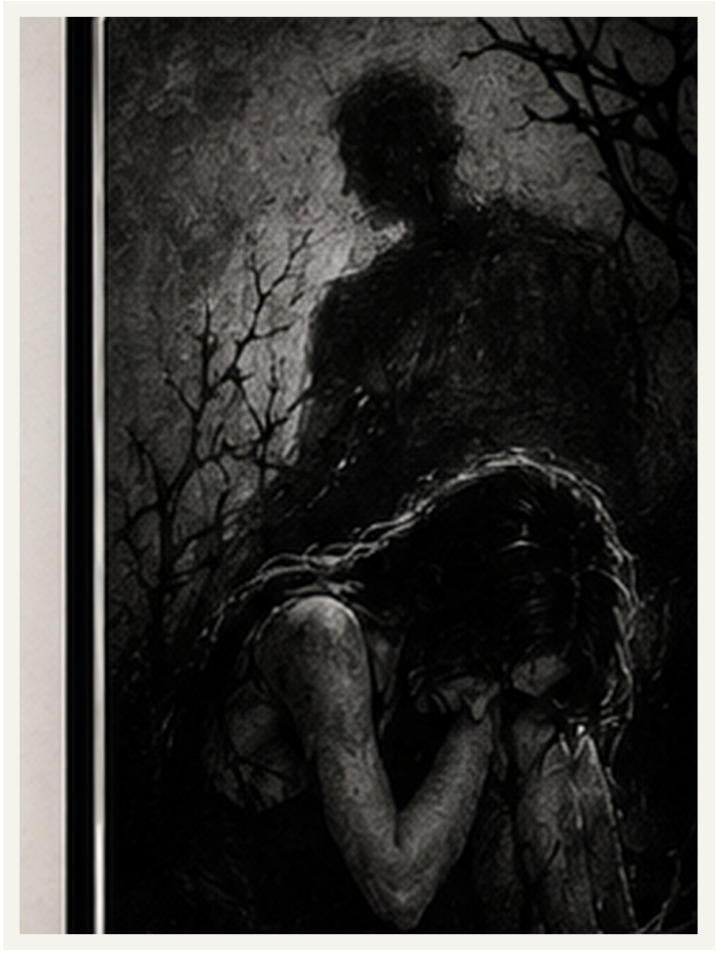
التفتُّ إلى الخلف.

لم يكن هناك أحد.

عدت إلى السير، لكنني لم أرفع عينيّ إلى الزجاج مرة أخرى.

كنت أخشى أن أرى في المرة القادمة أن انعكاسي لا يتبعني.

بل ينتظرني.





أخطر الأصوات تلك التي نتعلّم أن نسمّيها صوتنا.

الفصل الحادي والعشرون

متحف الأشياء التي لا ينبغي أن تبقى

لم تعد المقابر تخيفني؛ صارت تخيفني سهولة دخولي إليها.

كنت أتعامل مع حرمتها كأنها عائق عملي لا حدّ أخلاقي، وتلك كانت العلامة التي لم أعد أستطيع إنكارها.

في السابق، كنت أبطئ خطواتي عند المرور قرب المقبرة القديمة. كنت أتجنب النظر إلى شواهدها، وأتخيّل الأسماء المحفورة عليها، والبيوت التي بقيت تنتظر أصحابها حتى تحوّل الانتظار إلى حزن دائم.

أما الآن، فقد صرت أعرف المقابر من صمتها.

أعرف كيف تبدو قبل الفجر، حين يتراجع الضباب عن الحجارة وتبقى الأرض رطبة تحت السماء الرمادية. أعرف ذلك السكون الذي يسبق استيقاظ المدينة، حين تبدو المملكة كلها كأنها تحبس أنفاسها.

وأعرف أنني لم أعد أذهب إلى هناك بحثًا عن إجابات.

كنت أذهب لأنني أريد شيئًا لا أستطيع الحصول عليه في النهار.

جثة أخرى.

لم أعد أحتاج إلى إقناع نفسي بأن الأمر تجربة عابرة. كنت قد اخترعت من الأعذار ما يكفي لملء مكتبة، ولم يعد أي منها يقنعني. صرت أعود إلى الليل نفسه، وإلى ذلك الباب الذي فتحته ذات مرة ثم اكتشفت أنني لا أريد إغلاقه.

كنت أسرق الجثث، ثم أعود إلى القصر قبل أن تستيقظ الخدم.

وفي الصباح، أرتدي ثوبي، وأربط شعري، وأذهب إلى المستشفى لأدير المكان الذي بناه أبي.

كأنني أستطيع أن أعالج الأحياء في النهار، وأعبث بذاكرة الموتى في الليل، من دون أن يختلط العالمَان.

لكن العالمَين اختلطا بالفعل.

بدأت الشائعات من المقبرة الشرقية.

قيل إن قبرًا حديثًا وُجد مفتوحًا، وإن الجثمان اختفى من دون أن يترك وراءه تفسيرًا. ثم تكرر الأمر في مقبرة أخرى، وبعد أيام، انتشرت الحكاية بين الأحياء الفقيرة والأحياء الراقية على حد سواء.

لم تكن هناك سرقة حليّ، ولا أموال، ولا أشياء ثمينة يمكن بيعها.

كان السارق يأخذ الموتى وحدهم.

وترك ذلك الناس أمام احتمال أشد رعبًا من السرقة نفسها: أن يكون هناك شخص لا يرى في الموتى نهايةً، بل بدايةً لشيء آخر.

في السوق، سمعت امرأتين تتحدثان وأنا أشتري بعض الأوراق للمستشفى.

— يقولون إنهم وجدوا قبرًا آخر مفتوحًا.

— ولماذا يفعل أحدهم ذلك؟

—لا أعرف. ربما مجنون.

قالت الثانية بصوت خافت:

— أو شخص يكره الموتى.

كدت ألتفت إليهما.

كدت أخبرهما أنهما مخطئتان.

أنا لا أكره الموتى.

كانت تلك هي المشكلة.

لم أكن أذهب إليهم بدافع الانتقام، ولا لأنني أردت إيذاء عائلة فقدت عزيزًا. لم تكن لديّ خصومة مع أولئك الذين انتهت حياتهم. كنت أبحث عن شعور لا أستطيع العثور عليه في أي مكان آخر، ثم أعود وأنا أحمل في رأسي صورًا لا تتركني أنام.

كنت أعرف أن هذا لا يجعل ما أفعله أقل فظاعة.

ومع ذلك، حين غادرت السوق، وجدت نفسي أتساءل إن كانت الشائعات ستدفع الحراس إلى تشديد مراقبتهم للمقابر.

لم يكن السؤال: هل سأتوقف؟

بل: هل سأتمكن من العودة؟

توقفت في منتصف الطريق.

أغمضت عينيّ، وضغطت بأصابعي على صدغيّ.

— ماذا أصبحتِ؟ همست لنفسي.

لم يجبني أحد.

لكنني، للمرة الأولى، شعرت بأن صمتي لم يعد براءة.

كان المستشفى ينهار ببطء، وبطريقة لا يستطيع أحد أن يحدد بدايتها.

تأخرت بعض الإمدادات الطبية، وتراكمت الفواتير، وبدأ اثنان من الأطباء يهددان بالاستقالة إذا لم تُدفع مستحقاتهما. أما المرضى، فقد صاروا يسمعون همسات العاملين عن نقص الأدوية وتأخر الإجراءات، وانتقلت مخاوفهم إلى عائلاتهم.

لم تكن المشكلة أنني لا أعرف ما يجب فعله.

كنت أعرف.

لكنني لم أعد أستطيع أن أمنح كل شيء انتباهي في الوقت نفسه. كان جزء من ذهني مشغولًا بالحسابات والاجتماعات، وجزء آخر يحصي الساعات حتى الليل، بينما يظل جزء ثالث يراقبني من الداخل، منتظرًا أن أرتكب خطأً يكشفني.

في اجتماع الإدارة، وضع سيلفان تقريرًا أمامي.

—لا يمكننا الاستمرار بهذه الطريقة يا روران. هناك قرارات مؤجلة، ومراسلات لم تُجب عنها، ومرضى ينتظرون موافقات كان ينبغي أن تصدر منذ أيام.

تصفحت الصفحات بسرعة.

كانت الأرقام واضحة، والنتائج أسوأ مما توقعت.

— سأعالج الأمر.

— تقولين ذلك منذ أسبوعين.

رفعت عينيّ إليه.

لم يكن غاضبًا بقدر ما كان قلقًا، وهذا جعل مواجهته أصعب.

— هل تعتقد أنني لا أفهم حجم المسؤولية؟

— أعتقد أنكِ تحملين أكثر مما تستطيعين، وترفضين الاعتراف بذلك.

أردت أن أضحك من المفارقة.

أنا التي صرت أتعامل مع الموت كأنه سرّ شخصي، أجلس أمام رجل يحاول إقناعي بأنني ما زلت أستطيع إنقاذ نفسي بمجرد أن أرتاح قليلًا.

لكنني اكتفيت بإغلاق التقرير.

— سأرتب الأولويات.

لم يقتنع، لكنه لم يواصل الجدال.

بعد خروجه، بقيت وحدي أمام المكتب. مررت يدي على وجهي، ثم نظرت إلى الأوراق المتراكمة.

كان أبي قد ترك لي مستشفىً يحتاج إلى الحماية.

وأنا كنت أتركه يختنق لأنني لم أعد أستطيع التفكير في شيء سوى ذلك الجوع الذي ينتظرني خلف أبواب الليل.

لم تعد غرفتي كما كانت.

كانت ماريان تقول إنني أحتاج إلى ترتيبها، وإن الكتب المبعثرة والأوراق المتراكمة ستجعلانني أفقد صوابي. لم تكن تعرف أن الفوضى لم تعد مجرد فوضى؛ لقد صارت ستارًا يخفي ما لا أريد لأحد أن يراه.

في إحدى الزوايا، وضعت خزانة صغيرة لم أسمح لأحد بفتحها.

داخلها كانت هناك علبة زجاجية، وفيها عين محفوظة بعناية.

كانت تعود إلى رجل مجهول الهوية، وقد استوقفتني عينا الجثمان حين رأيته للمرة الأولى. كان في ملامحهما جمال غريب، أو لعلني كنت قد قررت أن أرى فيهما ذلك الجمال لأنني أردت الاحتفاظ بشيء منه.

لم أكن بحاجة إلى العلبة كي أتذكره.

ومع ذلك، كنت أفتح الخزانة أحيانًا، وأتأملها في صمت، كما يتأمل جامع التحف قطعةً نادرة يخشى أن يفقدها.

ثم بدأت أكره نفسي لأنني استطعت أن أطلق على ذلك اسم الجمال.

لم تكن العين تذكّرني بالرجل الذي كان يعيش، ولا بالأشياء التي أحبها، ولا بالاسم الذي ربما ناداه به أحدهم قبل موته.

كانت تذكّرني فقط بالشيء الذي أخذته.

وكانت تلك الفكرة أبشع من كل الصور التي حاولت إبعادها عن رأسي.

لم أحتفظ بها لأنها جميلة فحسب.

احتفظت بها لأنني أردت أن أمتلك شيئًا لا يستطيع أحد إعادته إلى صاحبه.

وفي ليلة أخرى، حاولت أن أحتفظ بذكرى ملامح جثمان مختلف، فخرجت من تلك الليلة وأنا عاجزة عن النظر إلى يديّ من دون أن أتخيل ما ارتكبتاه. بقيت في ذاكرتي صورة مشوّهة لأصابع ويدين لم تعودا جزءًا من إنسان حي، وبقي السؤال يلاحقني: متى تحوّل الجسد عندي من إنسان إلى شيء أستطيع تقسيمه في خيالي، ثم أبرر لنفسي الاحتفاظ بأجزائه؟

لم تكن تلك الذكريات تمنحني السلام.

كانت تجعلني أعود إلى الخزانة، ثم أغلقها بسرعة، ثم أفتحها بعد دقائق.

كأنني أخاف مما بداخلها، وأخاف أكثر من أن أفقد رغبتي في النظر إليه.

وفي إحدى الليالي، وجدتني أضحك أمام العلبة الزجاجية.

ضحكة قصيرة في البداية، ثم انفلتت مني حتى اضطررت إلى الاستناد إلى الجدار.

لم يكن في الغرفة ما يدعو إلى الضحك.

لم يكن هناك سوى امرأة تقف أمام أثر جريمة، وتبحث في انعكاسها عن دليل على أنها ما زالت إنسانة.

حين هدأت، غطيت العلبة بقطعة قماش.

لكنني لم أستطع إخفاءها عن نفسي.

في اليوم التالي، وصلت إلى المستشفى أخبار جديدة.

أُبلغت الإدارة بأن السلطات تحقق في اختفاء الجثث، وأن بعض العائلات بدأت تتهم المستشفى بالتقصير، لأن آخر إجراءات متعلّقة بموتاها كانت قد سُجلت في سجلاته.

اجتمع الأطباء في الممر، وتبادلوا الأسئلة. كان بعضهم خائفًا من أن تكون هناك صلة بين ما يحدث خارج أسوار المدينة وبين المستشفى، فيما رأى آخرون أن الأمر مجرد جرائم منفصلة لا ينبغي أن تؤثر في العمل.

وقفت بينهم وأنا أستمع.

ثم سمعت اسم أبي.

قال أحد العاملين إن الناس بدأوا يربطون الشائعات باسم كاسيان، لأن المستشفى الذي أسسه كان معروفًا بإجراءاته الطبية، ولأن بعض الجثامين التي اختفت سبق أن مرّت عبر مؤسساته.

شعرت بأن الأرض انسحبت من تحت قدميّ.

لم يكن أحد يتهمني.

لم يكن هناك دليل يشير إليّ.

ومع ذلك، أحسست أن كل العيون اتجهت نحوي، حتى حين بقي أصحابها منشغلين بأحاديثهم.

كان اسمي قد بدأ يظهر في كل مكان: على الأوراق الرسمية، وفي الاجتماعات، وفي أفواه الأشخاص الذين ينتظرون مني تفسيرًا لكل ما يحدث.

اسم روران، ابنة كاسيان.

المرأة التي يفترض أن تحمي المستشفى.

لم أستطع تحمل سماع الاسم في تلك اللحظة.

استدرت نحو مكتبي، وأغلقت الباب خلفي.

ثم بقيت واقفة في منتصف الغرفة، أضغط على يديّ حتى شعرت بألم في أصابعي.

لم يكن الخطر في أن يكتشفوا هويتي فحسب.

كان الخطر أن المستشفى الذي أملكه صار جزءًا من الكارثة، وأنني، كلما حاولت حماية سمعتي، كنت أزيد المسافة بيني وبين الشخص الذي كان يمكنني أن أكونه.

وصل داميان في المساء.

لم يخبرني أحد بموعد زيارته. ظهر عند مدخل مكتبي كما لو أنه اعتاد أن يجد مكانًا له في كل غرفة يدخلها، بملامحه الحادة ونظرته الداكنة التي لا تمنح الآخرين بسهولة فرصة معرفة ما يفكر فيه.

— سمعت أن الأمور ليست على ما يرام هنا.

أشرت إلى المقعد.

— الأخبار تنتشر بسرعة في القصر.

— الأخبار التي تتعلق بكِ تنتشر أسرع.

قالها بنبرة خفيفة، لكنني لم أستطع مجاراته بابتسامة.

جلس، وألقى نظرة على التقارير المتراكمة.

— هل تريدين مساعدتي؟

كان السؤال بسيطًا.

وكانت الإجابة التي أردت قولها أكثر تعقيدًا مما ينبغي.

نعم، أريدك أن تساعدني. أريدك أن تجد الشخص الذي يسرق الجثث، وأن توقفه، وأن تجعلني أصدّق أن ذلك الشخص ليس أنا. أريدك أن تنظر إلى وجهي وتقول إنك لا ترى شيئًا مخيفًا فيه.

لكنني قلت:

— أستطيع التعامل مع الأمر.

لم يجادلني فورًا. اكتفى بمراقبتي، ثم قال:

—لا أظن أن طلب المساعدة ينتقص من قوتكِ.

— ولا أظن أن رفضها يعني أنني ضعيفة.

ابتسم ابتسامة خافتة.

— ما زلتِ بارعة في تحويل كل حديث إلى معركة.

— ربما لأنني لا أحب أن يقرر الآخرون ما أحتاج إليه.

مال إلى الخلف، وظلت عيناه عليّ.

— إذن أخبريني أنتِ. ماذا تحتاجين الآن؟

فتحت فمي، لكن الكلمات لم تخرج.

كنت أحتاج إلى شيء لا يمكن أن أطلبه منه، ولا أن أمنحه لنفسي. كنت أحتاج إلى ليلة لا أشتاق إليها، وصباح لا أخشى فيه المرآة، وذاكرة لا تعيد إليّ كل ما حاولت دفنه.

كنت أحتاج إلى أن أعود إلى ما قبل تلك الليلة الأولى.

إلى ما قبل أن يصبح الموت مكانًا أهرب إليه من حياتي.

— أحتاج إلى أن ينتهي هذا الضغط، قلت أخيرًا.

نهض داميان، واقترب من المكتب.

— إذن لن أتركِكِ تواجهينه وحدكِ.

نظر إليّ بطريقة جعلتني أريد أن أصدّقه.

وحين مدّ يده، هذه المرة، لم أتراجع. تركت أصابعه تلامس يدي للحظة، وشعرت بدفء بسيط، عادي، يكاد يكون مؤلمًا.

كان بوسعي أن أخبره.

لم أكن أعرف كيف، ولا ماذا سيحدث بعد ذلك، لكن الكلمات كانت قريبة بما يكفي كي أستطيع إخراجها.

ثم تخيلت وجهه وهو يرى الخزانة في غرفتي.

تخيلت الصمت الذي سيحلّ بيننا، والنظرة التي ستتغير في عينيه، والطريقة التي سينطق بها اسمي بعد أن يعرف.

سحبت يدي بهدوء.

— شكرًا يا داميان.

ظل ينظر إليّ لحظة، ثم أومأ.

لم يسألني عن سبب ابتعادي.

لكنه، قبل أن يغادر، قال:

—لا تجعلي كبرياءكِ يمنعكِ من طلب النجدة حين تحتاجين إليها.

أغلقت الباب بعده، وأسندت جبهتي إليه.

كان هناك رجل يحاول الاقتراب مني، ومستشفى أحاول إنقاذه، ومملكة تبحث عن سارق مجهول.

وكانت أنا الشخص الوحيد الذي يعرف أن الخطر الذي يبحثون عنه قد عاد إلى غرفته، وأغلق الباب، ونام في سريره.

في تلك الليلة، لم أذهب إلى المقبرة.

جلست أمام الخزانة المغلقة حتى مرّت ساعة كاملة، ثم ساعة أخرى. كنت أسمع دقات الساعة في الممر، وأصوات الخدم وهم يتنقلون في الطابق السفلي، واحتكاك الأغصان بالنافذة.

حاولت القراءة.

لم أستطع.

حاولت النوم.

لم أستطع.

كلما أغمضت عينيّ، عاد إليّ السؤال نفسه، لا بصوت جوزيف، ولا بصوت سيلفان، بل بصوت يشبه صوتي تمامًا:

ماذا لو لم تكوني قادرة على التوقف؟

نهضت أخيرًا، وفتحت الخزانة.

لم ألمس العلبة. لم أرفع القماش عنها. اكتفيت بالنظر إلى الشيء الذي اخترت الاحتفاظ به، ثم أغلقت الباب.

كانت يدي ترتجف.

وللمرة الأولى، لم أفسر ارتجافها على أنه خوف من أن أُكتشف.

ربما كان جسدي يحاول أن يقول لي ما عجزت عن قوله لنفسي.

أنني لا أملك كل شيء.

أنني لا أسيطر على كل شيء.

وأن ما أفعله في الظلام لن يبقى في الظلام إلى الأبد.

في الخارج، دوّت أجراس بعيدة تعلن اقتراب منتصف الليل.

وضعت يدي على مقبض الباب، ثم تراجعت.

بقيت في غرفتي حتى الفجر.

لكنني لم أشعر بالانتصار.

كنت أعرف أن ليلة واحدة لا تمحو ما سبقها، وأن الامتناع عن العودة لا يعني أن الرغبة قد انتهت.

حين دخل الضوء من النافذة، جلست أمام المرآة.

كان وجهي شاحبًا، وعيناي متعبتين، وشفتيّ جامدتين من فرط الصمت.

قلت لنفسي إنني سأصلح المستشفى.

سأوقف الشائعات.

سأعيد ترتيب حياتي.

سأجد طريقة لأكون ابنة كاسيان التي ينتظرها الجميع.

ثم توقفت.

لأنني أدركت أنني كنت أعد نفسي بأشياء كثيرة، كما لو أن الوعود قادرة على تغيير ما حدث.

وفي اللحظة نفسها، سمعت طرقًا على الباب.

دخلت ماريان تحمل رسالة مختومة بالشمع الملكي.

— وصلت قبل قليل. قال الرسول إنها عاجلة.

أخذتها منها وكسرت الختم.

كانت الرسالة قصيرة، رسمية، خالية من أي تفسير:

«بأمر من القصر، سيبدأ التحقيق في اختفاء الجثامين من المقابر والمرافق الطبية. وستُراجع سجلات المستشفى الذي تديره السيدة روران كاسيان، على أن تُستدعى الإدارة للإجابة عن أي تناقضات تُكتشف.»

قرأت السطور مرة.

ثم مرة ثانية.

لم ترتجف يدي هذه المرة.

وهذا ما أخافني.

طويت الرسالة بعناية، ووضعتها على المكتب، ثم التفتُّ إلى ماريان.

— أعدّي لي عربة إلى القصر. أريد مقابلة داميان.

خرجت ماريان من دون سؤال.

أما أنا، فبقيت أمام النافذة، أراقب المدينة وهي تستيقظ.

للمرة الأولى، لم أكن أفكر في الجثة التالية، ولا في الخزانة، ولا في الشيء الذي ينتظرني ليلًا.

كنت أفكر في داميان.

في احتمال أن يقف إلى جانبي حين تبدأ المملكة بتفتيش حياتي.

وفي احتمال أشد قسوة: أن يكون الشخص الذي أحتاج إليه لإنقاذي هو نفسه الشخص الذي لن أستطيع احتمال نظرته حين يعرف حقيقتي.

ارتديت قفازيّ، وأخفيت ارتجاف أصابعي.

ثم خرجت من الغرفة، وأغلقت الباب خلفي.

في الداخل، بقي المتحف صامتًا.

لكنني كنت أعرف أن صمته لن يدوم.

الفصل الثاني والعشرون

كل الأصوات التي تسكن رأسي

— روران، ارفعي رأسكِ.

كان صوت كاسيان.

واضحًا إلى درجة أنني رفعت رأسي فعلًا، وبحثت عنه بين الظلال الممتدة على جدران غرفتي.

لم يكن هناك أحد.

— المستشفى ليس جدرانًا وأسرّة يا ابنتي. إنه الناس الذين يضعون حياتهم بين يديكِ.

ابتلعت ريقي.

كنت أعرف هذه الكلمات. سمعتها منه وأنا صغيرة، حين كان يأخذني إلى المستشفى، ويضع يده على كتفي أمام الممرات الطويلة. كنت أظن أنني سأكبر وأصبح مثله؛ امرأة لا يخافها المرض، ولا تهزمها الفوضى، ولا يعجزها الموت عن فعل شيء.

كنت أظن أنني سأجعله فخورًا بي.

— انظري إليّ، روران.

التفتُّ بسرعة.

كان جوزيف يقف قرب النافذة.

بوجهه الهادئ نفسه، وبالعينين اللتين لم تكونا تنظران إليّ يومًا كما لو أنني عبء. بدا أكبر سنًّا مما أتذكر، أو ربما كنت أنا التي صرت أصغر أمامه، طفلةً عادت إلى بيتها بعد أن فعلت شيئًا لا تستطيع الاعتراف به.

— قلت لكِ إن هناك أبوابًا لا ينبغي فتحها.

تراجعت حتى اصطدمت حافة المكتب بظهري.

— لم أكن أعرف.

— بل كنتِ تعرفين.

— لم أكن أعرف أنني سأصبح هكذا!

خرج صوتي حادًّا، وارتدّ عن الجدران.

اختفى جوزيف.

وفي مكانه، سمعت سيلفان.

— أنتِ لا تبحثين عن الحقيقة يا روران. أنتِ تبحثين عن الشعور الذي يمنحكِ إياه الاقتراب منها.

وضعت يديّ على أذنيّ.

— اصمت!

— هناك فرق بين أن تفهمي الموت، وبين أن تتخذي منه ملاذًا.

— اصمت!

ثم جاء صوت ماريان، خافتًا ومكسورًا، كأنها تقف خلف الباب.

— هل أنتِ بخير؟ تبدين متعبة منذ أيام.

أغمضت عينيّ بقوة.

لم أعد أحتمل سماع أصواتهم. لم أعد أحتمل أن يتحدثوا جميعًا من داخل رأسي، وأن يستخدم كل واحد منهم أكثر الأشياء التي أحببتها فيه سلاحًا ضدي.

ثم سمعت داميان.

— انظري إليّ، لا إلى الأرض.

كان صوته دافئًا، قريبًا، كما لو أنه يجلس إلى جواري.

— يمكنكِ أن تخبريني بالحقيقة.

كدت أفتح فمي.

كدت أقول له كل شيء.

كدت أخبره أنني لم أعد أنام لأنني أخاف مما أريده حين أستيقظ، وأنني صرت أرتعب من نفسي أكثر مما أرتعب من المملكة كلها.

لكن صوت كاسيان عاد، أعلى من السابق:

— المستشفى يا روران!

ثم جوزيف:

— توقفي قبل أن تخسري نفسكِ!

ثم سيلفان:

— أنتِ بحاجة إلى المساعدة.

ثم داميان، بنبرة لم أعد أعرف إن كانت حقيقية أم من صنع رأسي:

— تعالي إليّ.

فتحت عينيّ.

كانت الغرفة فارغة.

ومع ذلك، لم يكن الصمت موجودًا.

لم أعرف ما الذي كسرته أولًا.

ربما كان المصباح، وربما المرآة الصغيرة فوق الخزانة. أتذكر فقط صوت الزجاج حين تحطم، وكيف ارتجفت يداي بعده، ثم كيف شعرت بأن ذلك الصوت لم يكن كافيًا.

دفعت الكتب عن المكتب.

سقطت الأوراق في كل اتجاه، وانقلبت المحبرة، وانتشر الحبر الأسود فوق الرسائل التي كنت أخبئها منذ أشهر. مزقت بعض الصفحات بيديّ، ثم توقفت حين رأيت اسم جوزيف يمرّ أمام عينيّ.

أمسكت الورقة، حاولت تسويتها، لكن الحبر كان قد ابتلع الكلمات.

ضحكت.

لم تكن ضحكة سعيدة، ولا حتى ضحكة ساخرة. كانت صوتًا غريبًا، متقطعًا، خرج مني كما لو أن شخصًا آخر كان يستخدم حلقي.

ثم بكيت.

بكيت حتى صار تنفسي متقطعًا، ثم عدت إلى الضحك لأنني لم أعد أعرف كيف أتوقف عن أيٍّ منهما.

— أنا روران!

صرخت في الغرفة.

— أنا روران كاسيان!

ضربت بيدي على صدري، كأن الاسم محفور تحته، وكأنني إذا كررته بما يكفي فسوف يعود كل شيء إلى مكانه.

— أنا التي حلمت بالمستشفى! أنا التي أرادت أن تنقذ الناس! أنا التي...

توقفت.

لم أستطع إكمال الجملة.

لأنني تذكرت أنني كنت قد قضيت ليلة كاملة أرتب مقتنياتي الغريبة، وأحاول أن أقنع نفسي أنني أرى فيها جمالًا لا يراه الآخرون.

كانت هناك علبة زجاجية أخفيها في خزانتي، وقطع صغيرة احتفظت بها من جثامين سرقتها، وأشياء حولتها إلى تذكارات باردة، لا تشبه أي زينة عرفتها من قبل. كنت أضع بعضها في أماكن لا تقع عليها العين مباشرة، ثم أعود إليها حين أكون وحدي، أتأملها كما لو أنني أنظر إلى لوحة فنية لا ينبغي لأحد غيري فهمها.

كنت قد أطلقت عليها اسم «المتحف».

اسم أنيق، نظيف، يناسب امرأة تدير مستشفى.

لكن لا اسم في العالم يستطيع أن يجعل ما فعلته أقل بشاعة.

ركضت نحو الخزانة، وفتحتها بعنف.

سقطت إحدى العلب، وتدحرجت على الأرض.

تراجعت عنها، ثم اقتربت منها مجددًا.

كنت أريد إخفاءها.

كنت أريد الاحتفاظ بها.

كنت أريد أن أتخلص منها، ثم أن أصرخ في وجه أي شخص يحاول أخذها مني.

كل هذه الرغبات اجتمعت في صدري حتى شعرت أنني سأختنق.

— لماذا لا أستطيع التوقف؟

لم يجبني أحد.

التقطت العلبة، ثم وضعتها فوق المكتب. نظرت إلى محتويات الخزانة، إلى الأشياء التي جمعتها ليلةً بعد ليلة، وإلى الغرفة التي صارت تحمل سرّي أكثر مما تحمل حياتي.

للحظة، بدا لي أن كل شيء فيها يحدّق بي.

لم أعد أرى مقتنيات.

رأيت أسماءً لا أعرفها، وعائلات تنتظر، وأبوابًا مغلقة، وقبورًا لم تعد تحفظ أصحابها.

ثم رأيت وجهي منعكسًا على الزجاج.

كان وجهي أنا.

وهذا ما جعلني أصرخ.

حين طرقوا الباب، كنت جالسة وسط الفوضى.

— سيدتي روران؟

كان صوت ماريان.

لم أجب.

— روران، أرجوكِ. هل حدث شيء؟

أردت أن أقول لها أن تذهب.

أردت أن أطلب منها الدخول.

أردت أن أمسك يدها وأبكي، أن أقول لها إنني خائفة، وإنني لم أعد أثق بنفسي، وإنني أحتاج إلى شخص يبقى معي حتى الصباح.

لكنني تخيلت عينيها حين ترى الغرفة.

تخيلت وجهها حين تفهم أنني لم أكن مريضة فحسب، وأن وراء تعبي سرًّا لا يمكن تفسيره بالإرهاق أو الحزن.

— اذهبي يا ماريان!

خرج صوتي أجشّ.

ساد الصمت لحظة.

ثم قالت:

— لن أذهب بعيدًا. سأكون في الممر إذا احتجتِ إليّ.

ابتعدت خطواتها ببطء.

جلست على الأرض، ووضعت رأسي بين ركبتيّ.

كانت ماريان قد أحبّتني حين لم يكن لديّ ما أقدمه لها. لم تكن تهتم باسم كاسيان، ولا بما يظنه الناس عني. كانت تسألني إن كنت قد أكلت، وتترك لي كوبًا دافئًا قرب السرير حين أعود متعبة.

والآن كنت أخفي عنها شيئًا يجعلني أخجل حتى من أن تنظر إليّ.

لم أكن أريد أن أخسرها.

لكنني لم أكن مستعدة لأن تعرف.

وهكذا بقيت وحدي، لا لأن أحدًا تركني، بل لأنني كنت أُبعد كل شخص يحاول الاقتراب.

في الصباح، لم أذهب إلى المستشفى.

كان ذلك أول غياب حقيقي منذ بدأت إدارته، ولم أرسل تفسيرًا مقنعًا. اكتفيت برسالة قصيرة إلى سيلفان، أخبره فيها أنني مريضة ولن أحضر.

لكن المرض لم يكن في جسدي وحده.

في اليوم التالي، وجدت على مكتبي تقريرًا عاجلًا عن الوضع المالي. كانت بعض الحسابات قد تعطلت، وتأخرت دفعات الموردين، ووصلت شكاوى جديدة من عائلات المرضى. ثم وصلت رسالة من أحد أعضاء الإدارة يطلب اجتماعًا طارئًا لمناقشة احتمال سحب بعض الصلاحيات مني مؤقتًا.

قرأت الرسالة مرتين.

لم أشعر بالغضب.

شعرت بفراغ واسع، كأن الكلمات تخص امرأة أخرى، وكأن المستشفى الذي حلمت بإدارته لم يعد سوى بناء بعيد أراقبه من خلف زجاج سميك.

تذكرت كاسيان.

تذكرت يده فوق رأسي وأنا صغيرة، وصوته وهو يخبرني أنني سأكون قادرة على حمل المسؤولية يومًا ما.

في ذاكرتي، كان يقف في مكتبه، قرب النافذة الكبيرة التي تطل على ساحة المستشفى. كان يشرح لي كيف يمكن لقرار واحد أن يغيّر حياة عشرات المرضى، وكيف أن السلطة ليست امتيازًا، بل مسؤولية لا تنتهي عند توقيع الأوراق.

— ستديرين هذا المكان يومًا ما، كان يقول. لكنني أريدكِ أن تعرفي لماذا يستحق أن يبقى.

كنت أجيبه بحماس:

— لأننا نستطيع إنقاذ الناس.

في الحلم الذي راودني تلك الليلة، كان المكتب كما تركه أبي. الملفات مرتبة، والنافذة مفتوحة، وضوء الشمس ينساب على الطاولة.

كان كاسيان جالسًا في مقعده، يبتسم لي.

— هل أنقذتِهم يا روران؟

وقفت أمامه، عاجزة عن الكلام.

— هل حافظتِ على ما تركته لكِ؟

أردت أن أقول نعم.

أردت أن أكذب حتى في الحلم.

لكنه لم يرفع صوته، ولم يغضب. اكتفى بالنظر إليّ، وانتظر إجابتي.

ثم بدأت الجدران تتغير.

اختفت النافذة، وبهت الضوء، وتحولت الملفات المرتبة إلى أكوام مبعثرة. سمعت أصوات المرضى خلف الأبواب، وأصوات العاملين الذين يطلبون مني تفسيرًا، ثم صوت جوزيف يناديني من مكان بعيد.

حين التفتُّ إلى كاسيان، لم أجده.

كان المقعد فارغًا.

وعلى الطاولة، بقيت ورقة واحدة تحمل اسمي.

استيقظت وأنا أصرخ.

لم يكن جوعي قد اختفى مع انهياري.

وهذه كانت الحقيقة التي عجزت عن احتمالها.

ظننت أن الرعب الذي شعرت به في غرفتي سيجعلني أنفر من كل ما جمعته. توقعت أن أفتح الخزانة في الصباح فأشعر بالنفور، وأن أقرر التخلص من مقتنياتي، وأن أعود إلى المستشفى معتذرةً عن الأيام التي أضعتها.

لكنني، حين اقترب المساء، وجدت نفسي أفكر في العودة إلى المقبرة.

لم تكن الفكرة صاخبة.

لم تأتِ كأمر، ولم تظهر في صورة واضحة.

كانت مجرد رغبة صغيرة، تتسلل بين الأفكار الأخرى، ثم تكبر كلما حاولت تجاهلها.

قلت لنفسي إنني لن أخرج.

أغلقت الستائر.

طلبت من ماريان أن تترك لي العشاء عند الباب.

جلست قرب النافذة، وأمسكت كتابًا طبيًا حاولت قراءته منذ أيام.

لكن الكلمات بدأت تتداخل أمام عينيّ، وعاد إليّ ذلك الشعور المزعج بأنني أنتظر شيئًا.

شيئًا لا أريد الاعتراف بأنني أنتظره.

نظرت إلى الساعة.

ثم نظرت إليها مرة أخرى بعد دقائق قليلة.

وحين أدركت أنني أحسب الوقت حتى منتصف الليل، أغلقت الكتاب بقوة.

—لا.

قلت الكلمة بصوت مسموع.

— لن أذهب.

بقيت في مكاني.

مرّت دقائق.

ثم ساعة.

وفي كل مرة كانت الريح تضرب النافذة، كنت ألتفت نحو الباب.

لم أخرج تلك الليلة.

لكنني لم أنم أيضًا.

بعد يومين، اضطررت إلى العودة إلى المستشفى.

كان بعض أعضاء الإدارة ينتظرونني في قاعة الاجتماعات، وقد بدا القلق على وجوههم أكثر من الغضب. تحدثوا عن الأموال، وعن الشكاوى، وعن الأخبار التي بدأت تربط بين اختفاء الجثامين وبعض السجلات الطبية القديمة.

ثم قال أحدهم:

—لا يمكننا حماية سمعة المستشفى إذا لم نعرف ما يحدث.

أجبت بهدوء:

— سنراجع كل السجلات، وسنتعاون مع السلطات.

— وماذا عن الشائعات التي تقول إن الجثث المسروقة ربما خرجت من هنا؟

شعرت ببرودة تسري في ظهري.

لم أظهر ذلك.

— لن أسمح لأحد بإطلاق اتهامات من دون دليل.

كانت الكلمات ثابتة.

كان صوتي ثابتًا.

حتى إنني رأيت أحد الحاضرين يومئ موافقًا، كأنه شعر بالاطمئنان إلى إجابتي.

وفي تلك اللحظة، كرهت قدرتي على التمثيل.

كرهت أن أستطيع الجلوس بين هؤلاء، والنظر في عيونهم، والتحدث عن التحقيقات بصفتي المسؤولة عن المؤسسة التي قد تكون أفعالُ سارق الجثث مرتبطةً بها، من دون أن يعرفوا أن الشخص الذي يبحثون عنه يقف أمامهم.

بعد الاجتماع، استوقفني سيلفان في الممر.

— رووران، أحتاج إلى أن أسألكِ سؤالًا، وأريدكِ أن تجيبيني بصدق.

توقفت.

— تفضل.

— هل أنتِ بخير فعلًا؟

نظرت إليه.

كان يستطيع أن يطرح أسئلة عن السجلات، أو عن الإدارة، أو عن سبب غيابي. لكنه اختار السؤال الذي حاولت الهرب منه.

— أنا متعبة، قلت.

— هذا ليس ما سألتكِ عنه.

لم أجب.

خفض صوته.

— ألاحظ أنكِ لا تنامين جيدًا، وأنكِ تتشتتين أثناء الحديث، وأنكِ تبدين أحيانًا كأنكِ تسمعين شيئًا لا يسمعه الآخرون لا أريد أن أستنتج شيئًا وحدي، لكنني أريدكِ أن تطلبي مساعدة حقيقية قبل أن يصبح الأمر أصعب.

تجمدت يدي على الملف الذي أحمله.

إذًا، لقد لاحظ.

لم يكن يعرف السبب، لكنه رأى الشقوق.

—لا أحتاج إلى طبيب، قلت بسرعة.

— أنا لم أقل إنكِ ضعيفة، رووان.

— وأنا لم أقل إنني ضعيفة!

ارتفع صوتي في الممر، فالتفت أحد العاملين نحونا.

أدركت ما فعلته، فخفضت صوتي فورًا.

— أعتذر. أنا فقط... لديّ الكثير من المسؤوليات.

لم يبدُ مقتنعًا.

—لا تحاولي أن تحملي كل شيء وحدكِ.

تركته واقفًا في الممر، ومضيت نحو مكتبي.

كنت أعرف أنه يحاول مساعدتي.

لكنني لم أعد أعرف كيف أقبل المساعدة من دون أن أشعر بأنني أقترب من لحظة انكشافي.

في المساء، وجدت داميان ينتظرني في الحديقة.

كان قد سمع بأزمة المستشفى، وبالاجتماع، وبالتحقيق الذي بدأ يقترب من الإدارة. لم يبدُ مستمتعًا بقلقي، ولم يحاول استغلال ضعفي. اقترب مني بهدوء، وسألني إن كنت قد تناولت شيئًا طوال اليوم.

كان سؤالًا عاديًا.

لكنني لم أستطع الإجابة.

— رووان؟

رفعت عينيّ إليه.

— هل تثق بي؟ سألته فجأة.

تغيّرت نظرته قليلًا.

— نعم.

جاءت إجابته من دون تردد.

كدت أصدّقه.

كدت أقول له إنني أسمع أصوات الموتى والأحياء في رأسي، وإنني أحيانًا لا أعرف إن كانت الكلمات التي أسمعها ذكريات أم هلوسات، وإنني أخشى أن أكون قد تجاوزت مرحلة أستطيع العودة منها وحدي.

كدت أخبره عن الخزانة.

عن العلبة الزجاجية.

عن الليالي التي صارت تبتلع نهاري.

لكني نظرت إلى يده، فتذكرت كم سيكون من السهل أن أمسك بها وأدع نفسي تنهار.

وكم سيكون من الصعب أن أراه يتراجع بعد أن يعرف.

— إذن لا تسألني عن شيء الآن، قلت.

راقبني طويلًا.

— لن أجبركِ على الكلام.

ثم أضاف:

— لكنني لن أعتبر صمتكِ دليلًا على أنكِ بخير.

لم أعرف لماذا جعلتني كلماته أرغب في البكاء.

ربما لأنه كان أول شخص لا يكتفي بقبول الإجابة التي أقدمها له، ومع ذلك لم يحاول انتزاع الحقيقة مني بالقوة.

ابتعدت عنه قبل أن أفقد قدرتي على التظاهر.

وفي الطريق إلى القصر، سمعت صوت كاسيان مجددًا.

«المستشفى يا روران.»

ثم صوت جوزيف.

«توقفي.»

ثم صوتي أنا، من مكان لا أستطيع تحديده:

«لكنني ما زلت جائعة.»

تعثرت خطواتي.

التفتُّ خلفي، فلم أجد أحدًا.

ومع ذلك، شعرت بالخوف يزحف إلى صدري، لأن الصوت الأخير لم يكن يشبه ذكرى قديمة، ولا كلام شخص أحببته.

كان يشبه الفكرة التي أخشى الاعتراف بها.

تلك الليلة، وقفت أمام الخزانة للمرة الأخيرة، أو هكذا أقسمت لنفسي.

أخرجت العلبة الزجاجية، ووضعتها على المكتب.

كان الضوء الخافت يجعل الزجاج يبدو معتمًا، ويحوّل ما بداخله إلى شكل غريب لا ملامح واضحة له.

لم أعد أرى جمالًا.

لم أعد أرى تحفة.

رأيت دليلًا على أنني أخذت شيئًا من إنسان لم أكن أعرف اسمه، ثم أقنعت نفسي بأن الاحتفاظ به يمنحني معنى لا أجده في حياتي.

مددت يدي نحو العلبة.

توقفت قبل أن ألمسها.

ثم سحبت يدي.

جلست على الأرض، وأسندت ظهري إلى الخزانة، وأغمضت عينيّ.

بدأت الأصوات تعود.

كاسيان يتحدث عن المستشفى.

جوزيف يذكرني بالحدود التي حذرني منها.

سيلفان يطلب مني ألا أواجه ما يحدث وحدي.

ماريان تسألني إن كنت قد أكلت.

وداميان يقول إنه لن يعتبر صمتي دليلًا على أنني بخير.

لم تكن الأصوات كلها متشابهة. بعضها كان ذكرى واضحة، وبعضها بدا كأنه حديث يدور في الغرفة المجاورة، وبعضها كان قريبًا إلى درجة جعلتني أفتح عينيّ لأتأكد من أنني وحدي.

لم أستطع أن أعرف إن كنت أسمعهم حقًا، أم أن ذاكرتي المنهكة تعيد أصواتهم بصور لا أستطيع السيطرة عليها.

لكنني كنت أعرف شيئًا واحدًا.

لم يعد أيٌّ منهم قادرًا على إسكات الجوع.

وضعت يديّ على أذنيّ.

— أرجوكم، توقّفوا.

تداخلت الأصوات.

فوقفت، وصرخت، ثم رميت الكرسي الصغير نحو الجدار. تحطم أحد المصابيح، وتناثرت شظايا الزجاج فوق الأرض.

ضحكت.

ثم بكيت.

ثم صرخت من جديد، حتى صار صوتي غريبًا على أذنيّ.

لم أكن أعرف ما الذي أريده في تلك اللحظة. أن يختفي كل شيء؟ أن يدخل أحدهم ويمنعني من البقاء وحدي؟ أن تعود الأصوات التي أحببتها إلى هدوئها القديم؟

أم أن أتوقف عن مقاومتها وأعود إلى الشيء الوحيد الذي صار يمنحني إحساسًا مؤقتًا بأنني أستطيع الشعور بأي شيء؟

لم أعرف.

وحين هدأت أخيرًا، كان الفجر قد بدأ يتسلل من النافذة.

جلست وسط الزجاج المحطم، وأحطت ركبتيّ بذراعيّ.

كانت غرفتي فوضى.

كان المستشفى ينهار.

كانت المملكة تبحث عن شخص لا تعرف اسمه.

وكان داميان يظن أنني أخفي ألمًا يمكن للكلمات أن تخففه.

أما أنا، فلم أعد أعرف كيف أشرح ما يحدث لي، ولا كيف أوقفه بمفردي.

ومع ذلك، حين ظهر أول ضوء على الجدار، وجدتني أفكر في الليلة القادمة.

لم تكن الفكرة واضحة، ولم تكن قرارًا كاملًا.

كانت مجرد ومضة.

رغبة صغيرة في العودة إلى ذلك العالم الذي أخافني، ثم منحني شعورًا لم أستطع التخلي عنه.

أغمضت عينيّ، وارتجفت شفتاي.

—لا أريد أن أكون هكذا.

خرجت الجملة هامسة، صادقة إلى درجة أوجعتني.

ثم جاء صوت آخر من أعماقي، بصوتي نفسه:

— لكنكِ ما زلتِ تريدين المزيد.

لم أجب.

لأنني، للمرة الأولى، لم أعد واثقة من أنني أستطيع تصديق أي إجابة سأمنحها لنفسي.

وعندما طرقَت ماريان الباب بعد قليل، لم أصرخ في وجهها.

لم أطلب منها الرحيل.

اكتفيت بالنظر إلى الباب، وأردت أن أقول لها إنني أحتاج إليها.

لكن الكلمات بقيت حبيسة حلقي.

وفي الخارج، انتظرت ماريان لحظات، ثم قالت بصوت خافت:

— رووران؟ أنا هنا.

وضعت رأسي بين يديّ.

كانت هنا.

كان سيلفان هنا.

وكان داميان قريبًا.

وكان المستشفى، بكل ما فيه من مرضى ووجوه وأحلام، ما يزال ينتظر مني أن أعود.

لكن شيئًا واحدًا ظلّ أقرب إليّ من الجميع.

الجوع.

ولم أعد أعرف إن كنت أقاومه، أم أنتظر اللحظة التي أتوقف فيها عن المحاولة.

الفصل الثالث والعشرون

حين صار الماضي يتكلم بصوتي

لم تعد الأصوات محصورة في ساعات الليل.

صرت أسمع ذكرياتهم في أثناء العمل، حتى وأنا أوقّع التقارير وأجيب عن أسئلة المرضى.

أسمع كاسيان حين أوقّع اسمي أسفل أحد التقارير، وأسمع جوزيف حين أرى نبتة صغيرة تشقّ طريقها بين حجارتين، وأسمع سيلفان حين يمرّ أحد الأطباء بجانبي حاملًا ملفًا طبيًا. أمّا داميان، فكان صوته يظهر في أكثر اللحظات التي أحتاج فيها إلى تصديق أنني ما زلت قادرة على أن أكون إنسانة عادية.

لم تكن الأصوات تكتفي بتذكيري بما قالوه.

كانت تعيد إليّ مَن كنت حين قالوه.

وهذا ما جعلها لا تُحتمل.

كنت أفضّل لو أنها تشتمُني، أو تتهمني، أو تصرخ في وجهي بأنني وحش. كان بإمكاني أن أكرهها عندئذٍ، وأن أتعامل معها كعدوّ واضح.

لكن كاسيان لم يكن يصرخ.

كان يقول لي، كما لو أنه ما زال حيًّا ويجلس خلف مكتبه:

«أريدكِ أن تبني شيئًا يستحق أن يبقى بعدنا.»

وجوزيف كان يهمس:

«ليس كل ما تستطيعين فعله ينبغي أن تفعليه.»

أما سيلفان، فكان يعيد جملته التي لم أستطع نسيانها:

«هناك فرق بين أن تفهمي الموت، وبين أن تتخذي منه ملاذًا.»

لم تكن تلك الأصوات عقابًا فحسب.

كانت تذكرتي إلى نفسي القديمة.

إلى الفتاة التي كانت تتوقف لتسأل عن زهرة نمت قرب الطريق، والتي كانت تؤمن أن المعرفة تستطيع إنقاذ الناس، والتي كانت تظن أن امتلاك مستشفى يعني امتلاك القدرة على منح الآخرين فرصة ثانية.

كنت أكره تلك الفتاة أحيانًا.

وأشتاق إليها في أحيان أخرى.

لكنني، في كل مرة أتذكرها، كنت أعود إلى الخزانة.

كأنني أريد أن أثبت لنفسي أن تلك الفتاة ماتت فعلًا، وأن ما تبقّى منها لا يستحق أن أحزن عليه.

في صباح بارد، وجدتُ ماريان واقفة أمام باب مكتبي، تحمل مجموعة من الرسائل.

بدت أكبر سنًّا مما أتذكر، أو ربما كان التعب الذي أراه في وجوه الجميع قد صار ينعكس عليّ.

— وصل هذا من الإدارة المالية، قالت. وهناك رسالة أخرى من مجلس المستشفى.

مددت يدي نحو الأوراق.

لكنها لم تسلّمها إليّ فورًا.

— رووان، متى كانت آخر مرة نمتِ فيها ليلة كاملة؟

رفعت عينيّ إليها.

—لا أذكر.

— ومتى كانت آخر مرة أكلتِ فيها دون أن أذكّركِ؟

— ماريان...

— أعرف أنكِ لا تحبين أسئلتي، لكنني لم أعد أعرف كيف أساعدكِ.

كانت نبرتها هادئة، ولم يكن فيها أي اتهام. ومع ذلك، شعرت بأنني محاصرة.

أردت أن أخبرها أنني لا أحتاج إلى من يراقب نومي، وأنني لست طفلة، وأن بإمكاني إدارة حياتي كما أشاء.

لكنني رأيت يدها وهي تضمّ الرسائل إلى صدرها، ورأيت القلق الذي حاولت إخفاءه منذ أيام.

فجأة، تذكرت ليلةً كنت فيها صغيرة، وقد أصابني الحمى. جلست ماريان قرب سريري، تبدّل قطعة القماش على جبيني، وتقرأ لي حتى غلبني النوم.

كانت تبقى حتى بعد أن أغمض عينيّ، ظنًّا منها أنني لا أشعر بوجودها.

كنت أشعر.

كنت أطمئن لأنني أعرف أنها لن تتركني وحدي.

أما الآن، فقد صرت أخاف من بقائها.

لأنني لم أعد أحتمل أن يحبني أحد دون أن يعرف ماذا أفعل حين لا يراني.

— أنا بخير، قلت.

تغيّرت ملامحها قليلًا.

لم تصدّقني، لكنها لم تجادلني.

وضعت الرسائل على المكتب، ثم قالت:

— سأكون في الجناح المجاور إن احتجتِ إليّ.

وحين استدارت، سمعت صوت جوزيف في رأسي:

«إنها تحاول مساعدتكِ.»

أطبقت فكيّ.

«أعرف.»

«إذن لماذا تدفعينها بعيدًا؟»

— لأنني لا أستطيع أن أتركها تقترب!

خرجت الجملة من فمي قبل أن أستوعب أنني قلتها بصوت مسموع.

توقفت ماريان عند الباب، والتفتت نحوي.

لم يكن في وجهها خوف مني بقدر ما كان فيه خوف عليّ.

وهذا جعلني أشعر بأنني أريد تحطيم شيء آخر.

في ذلك الأسبوع، خسر المستشفى عقدًا مهمًا لتوريد الأدوية.

لم تكن الخسارة وحدها هي الكارثة، بل ما تبعها. بدأت الحسابات تتعثر، واضطررنا إلى تأجيل بعض أعمال الصيانة، ثم وصلت شكاوى جديدة من عائلات لم تحصل على إجابات واضحة عن تأخر علاج أقاربها.

صار اسم كاسيان يظهر في الصحف إلى جانب كلمات لم أعتد رؤيتها قربه: «الأزمة»، «الإهمال»، «مستقبل المستشفى».

قرأت إحدى المقالات في مكتبي، ثم أعدت قراءتها حتى تشوّشت الحروف.

«المؤسسة التي حملت اسم كاسيان تواجه اليوم أخطر مراحلها منذ تأسيسها.»

سمعت ضحكة أبي.

لم تكن ضحكة حقيقية؛ كانت ذكرى بعيدة، من يوم أخذني فيه إلى الطابق العلوي وأراني مخطط التوسعة الجديدة.

كنت قد سألته يومها:

— هل سيصبح المستشفى كبيرًا جدًا؟

فأجاب:

— ليس هذا ما يهمني. أريد أن يصبح المكان الذي يجد فيه الناس فرصة حين يظنون أن كل الفرص انتهت.

كنت أؤمن به.

كنت أريد أن أكون مثله.

والآن، كلما رأيت اسم المستشفى في ورقة، شعرت كأنني أراه مكتوبًا على شاهد قبر.

لم يكن أبي حاضرًا ليحاسبني.

لكن غيابه لم يمنعني من سماع صوته.

بل جعلني أسمعه أكثر.

دفعت الصحيفة بعيدًا، ثم فتحت درج مكتبي وأخرجت صورة قديمة له. كان يقف أمام المستشفى، يبتسم بثقة الرجل الذي يظن أنه يستطيع بناء شيء لا تهدمه السنوات.

مرّرت إبهامي على حافة الصورة.

— لم أستطع، همست.

لم أعرف إن كنت أخاطبه، أم أخاطب نفسي.

— حاولت أن أكون ما أردتَه مني.

ثم جاءت الجملة التي كنت أخشاها:

«هل حاولتِ فعلًا؟»

أفلتت الصورة من يدي.

سقطت على الأرض، وانحنى إطارها عند أحد الأطراف.

بقيت أنظر إليها.

ثم انحنيت والتقطتها بحذر شديد، كما لو أنني أخشى أن أؤذي أبي للمرة الثانية.

كان داميان الوحيد الذي لم يطلب مني أن أبدو قوية.

حين التقيته في القصر، لم يسألني عن تفاصيل الأزمة المالية أولًا، ولم يبدأ حديثه عن التحقيقات التي كانت تتوسع في المملكة. أخذني إلى شرفة هادئة تطل على الحديقة، وترك لي وقتًا كي أستعيد أنفاسي.

كان المساء باردًا، والسماء ملبدة بالغيوم. بدت الأشجار بعيدة كأنها مرسومة بالفحم، فيما كانت الأضواء خلف نوافذ القصر تمنح المكان دفئًا لا يصل إلينا.

— أنتِ تختفين حتى وأنتِ أمام الناس، قال أخيرًا.

التفتُّ إليه.

— ماذا يعني ذلك؟

— يعني أنكِ تتحدثين، وتبتسمين، وتجيبين عن الأسئلة. لكنني أشعر أحيانًا أنكِ تقفين في مكان آخر تمامًا.

كدت أسأله إن كان يعرف شيئًا.

هل لاحظ تغيرًا في سلوكي؟ هل سمع الشائعات؟ هل وصلته أخبار المقابر؟ هل ينظر إليّ الآن لأنه يشك بي، أم لأنه يريد مساعدتي حقًا؟

لكن وجهه لم يحمل ما يشير إلى اتهام.

كان قلقًا.

وهذا كان أصعب من الاتهام.

— أنا متعبة، قلت.

— أعرف.

— لا، لا تعرف.

خرجت العبارة أقسى مما أردت.

صمت داميان قليلًا، ثم اقترب من السور الحجري.

— ربما لا أعرف كل شيء. لكنني أعرف أن الإنسان قد يصل إلى مرحلة يصبح فيها الاعتراف بالتعب أصعب من احتماله.

نظرت إلى يديّ.

كان يمكنني أن أقول له إنني أخاف من النوم، وإنني أخاف أكثر من الاستيقاظ. كان يمكنني أن أخبره أنني أسمع أصوات الموتى في رأسي، وأنني أحيانًا أضطر إلى لمس الأشياء حولي كي أتأكد من أنني في الحاضر.

لكنني لم أستطع إخباره بما هو أسوأ.

أنني، وسط كل هذا الخوف، ما زلت أشتهي العودة إلى ما يدمّرني.

— ماذا لو كان في داخلي شيء لا يمكن إصلاحه؟ سألت.

لم يجب فورًا.

ثم قال:

—لا أظن أن عليكِ أن تحكمي على نفسكِ وحدكِ وأنتِ في هذه الحالة.

— لم تجب عن سؤالي.

— لأنني لا أستطيع أن أعرف ما الذي يحدث لكِ من دون أن تسمحي لأحد بمساعدتكِ. لكنني أعرف أن خوفكِ من نفسكِ لا يعني أن عليكِ مواجهة هذا الخوف وحدكِ.

لم أكن أريد نصيحة.

كنت أريد حكمًا نهائيًا: أن يقول إنني لم أتحول إلى شيء آخر، أو أن يخبرني أنني ما زلت أستطيع العودة.

لكنه رفض أن يمنحني كذبة سهلة.

وهذا جعلني أثق به أكثر مما ينبغي.

بدأت علاقتي به تتغيّر بعد ذلك المساء.

لم تعد لقاءاتنا مجرد أحاديث عابرة في الحدائق أو المناسبات الرسمية. صار يرسل إليّ أحيانًا رسالة قصيرة يسأل فيها إن كنت قد تناولت الطعام، أو يطلب مني أن أخصص ساعة واحدة بعيدًا عن المستشفى.

وفي بعض الأيام، كنت أقبل.

كنت أحتاج إلى وجوده بطريقة أخجل منها؛ أحتاج إلى أن أسمع صوتًا حقيقيًا يكلمني، وأن أرى وجهًا لا يتبدّل حين أغمض عينيّ، وأن أجلس قرب شخص لا يعرف كم أقاتل كي أبقى في مكاني.

ذات مساء، جلسنا في غرفة صغيرة من غرف القصر، بينما كانت النار تشتعل في المدفأة.

لم يتحدث داميان كثيرًا. كان يقرأ رسالة وصلته، فيما جلست أنا أمام كوب لم أشرب منه سوى رشفة واحدة.

ثم سألني:

— هل تذكرين ما قلتِه لي في الحديقة؟

— قلت أشياء كثيرة.

— سألتِني إن كنت أعرف ما أريد.

رفعت عينيّ إليه.

— وأجبتني بأنك تعرف ما لا تريد خسارته.

ابتسم قليلًا.

— ما زلت أتذكر.

كان في صوته شيء مختلف، أقل حذرًا من المعتاد.

— وأنتِ؟ هل عرفتِ ما تريدين؟

نظرت إلى النار.

كنت أعرف ما أريد في تلك اللحظة: أن يتوقف رأسي عن الكلام، وأن يبقى هو جالسًا إلى جواري حتى يهدأ العالم.

لكنني لم أقل ذلك.

— أريد أن أعود إلى نفسي.

لم يبتسم هذه المرة.

وضع الرسالة جانبًا، وجاء ليجلس قرب مقعدي.

— ربما لا تستطيعين العودة إلى الشخص الذي كنتِه تمامًا، قال. لكن هذا لا يعني أنكِ فقدتِ كل فرصة لتصبحي شخصًا آخر.

نظرت إليه طويلًا.

— وهل ستبقى قريبًا إذا لم يعجبك الشخص الذي سأصبحه؟

كان السؤال أخطر مما توقعت.

رأيت شيئًا يمرّ في عينيه، ثم اختفى خلف هدوئه المعتاد.

— لن أطلب منكِ أن تكوني مثالية كي أستمع إليكِ.

لم يقل إنه سيغفر كل شيء.

لم يعدني بأنه سيبقى مهما حدث.

لكنه لم يبتعد أيضًا.

وللمرة الأولى منذ زمن طويل، شعرت برغبة حقيقية في البكاء أمام شخص آخر، لا لأنني أخاف انكشافي، بل لأنني تعبت من التظاهر بأنني لا أحتاج إلى أحد.

مال داميان نحوي، مترددًا بما يكفي كي يمنحني فرصة الابتعاد.

لم أبتعد.

لامست جبهتي كتفه، وأغمضت عينيّ.

بقي ساكنًا للحظات، ثم وضع ذراعه حولي بحذر.

كان دفؤه حقيقيًا.

كان صوته حقيقيًا.

وكان قلبي، على الرغم من كل ما حدث، ما يزال قادرًا على الشعور بالطمأنينة.

لكن الطمأنينة لم تدم طويلًا.

لأن صوت جوزيف جاءني من أعماقي:

«هل ستسمحين له أن يحبكِ من دون أن يعرف؟»

فتحت عينيّ فجأة.

ابتعدت عن داميان بسرعة جعلته يرفع رأسه نحوي.

— ماذا حدث؟

—لا شيء.

نظر إليّ بقلق.

— رووان.

— قلت لك لا شيء!

ساد الصمت.

رأيت الألم في عينيه، وعرفت أنني جرحت الرجل الوحيد الذي حاول الاقتراب مني من دون أن يطالبني بشيء.

أردت أن أعتذر.

أردت أن أشرح.

لكن صوت كاسيان جاء بعد ذلك:

«لا تتركي كل ما بنيتِه ينهار.»

ثم سيلفان:

«اطلبي المساعدة.»

ثم صوتي:

«لن يستطيع إنقاذكِ.»

نهضت من مقعدي.

— يجب أن أذهب.

لم يمنعني داميان.

لكنه قال قبل أن أصل إلى الباب:

—لا أريدكِ أن تختفي خلف كلمة «لا شيء» كلما شعرتِ بالخوف.

توقفت لحظة.

لم ألتفت.

لو فعلت، ربما كنت سأعود إليه، وربما كنت سأخبره بالحقيقة، وربما كنت سأبقى في الغرفة حتى الصباح.

لكنني خرجت.

وحين أُغلق الباب خلفي، أدركت أنني بدأت أخسر شيئًا لم أكن أظن أنني أملكه أصلًا.

ثقته.

في تلك الليلة، عدت إلى غرفتي قبل موعدي المعتاد مع الظلام.

لم أفتح الخزانة.

لم أقترب من مقتنياتي.

جلست على الأرض قرب السرير، وأخرجت دفترًا قديمًا كنت أكتب فيه أحلامي حين كنت صغيرة.

وجدت صفحة كتبت فيها بخط متعرج:

«حين أكبر، سأصبح طبيبة مثل أبي. سأجعل المستشفى مكانًا لا يخاف فيه الناس.»

قرأت الجملة مرة، ثم غطيت فمي بيديّ.

لم أعد أعرف لماذا احتفظت بالدفتر كل هذه السنوات.

ربما لأنني أردت أن أترك لنفسي بابًا صغيرًا إلى الماضي.

وربما لأنني كنت أعرف، في مكان بعيد داخلي، أنني سأحتاج يومًا إلى دليل يثبت أنني لم أبدأ حياتي هكذا.

قلبت الصفحات.

وجدت رسومات نباتات رسمها جوزيف لي، وملاحظات صغيرة عن أشياء كنت أريد تعلمها، واسم داميان مكتوبًا مرة واحدة في هامش صفحة لم أعد أتذكر متى كتبتها.

كان الماضي كاملًا هناك.

أحلامي، وأخطائي الصغيرة، وأشخاص أحببتهم، وأشياء لم أكن أعرف بعد أنني سأخسرها.

وفجأة، لم أعد أحتمل رؤيته.

أغلقت الدفتر، ثم رميته بعيدًا.

ارتطم بالجدار وسقط مفتوحًا على الأرض.

نهضت، ومشيت نحو الخزانة.

توقفت أمامها طويلًا.

كنت أعرف أنني إذا فتحتها، فلن أجد راحة. وإذا تركتها مغلقة، فلن تختفي الرغبة لمجرد أنني تجاهلتها.

لم يكن هناك اختيار يجعلني بريئة.

كان هناك فقط اختيار لما سأفعله بعد أن أدركت الحقيقة.

وضعت يدي على الباب.

ثم سحبتها.

عدت إلى السرير، وجلست على حافته حتى طلع الصباح.

لكنني لم أشعر بأنني انتصرت.

كنت قد أمضيت الليل أقاوم نفسي، ومع ذلك لم يكن في داخلي سلام، ولا شعور بالفخر، ولا حتى يقين بأنني أستطيع تكرار ذلك في الليلة التالية.

كان هناك تعب فقط.

تعب عميق جعلني أتمنى لو أن أحدًا يستطيع أن يحمل عني جزءًا من ذاكرتي، ولو لساعة واحدة.

في اليوم التالي، وجدت رسالة من مجلس إدارة المستشفى تنتظرني.

كان القرار واضحًا: ستُراجع صلاحياتي، وستُفحص الحسابات، وسيُطلب مني تقديم تفسير عن التراجع الذي أصاب المؤسسة.

لم أعد قادرة على التظاهر بأن الأمر مجرد أزمة عابرة.

كان المستشفى الذي حلمت به مع كاسيان يتفكك أمام عينيّ، والموظفون الذين وثقوا بي بدأوا يخشون المستقبل، فيما كانت المملكة تستعد للتحقيق في سرقة الجثامين.

كل الطرق بدأت تتقاطع.

وكلما حاولت الهرب من أحدها، وجدتني أمام الآخر.

جلست إلى المكتب، وفتحت دفتر الحالات الذي كنت أكتب فيه ملاحظاتي عن الموت.

قلبت الصفحات حتى وصلت إلى آخر ورقة.

كتبت:

«لم أعد أعرف متى بدأ الخوف، ومتى بدأت الرغبة. لم أعد أعرف إن كنت أهرب من الأصوات، أم أعود إليها لأنها تذكرني بمن كنت. لكنني أعرف أنني لم أعد أستطيع أن أعيش كما لو أن شيئًا لم يحدث.»

توقفت، ثم أضفت:

«أنا خائفة من نفسي.»

بقيت أنظر إلى الجملة.

كانت المرة الأولى التي أكتب فيها هذه الكلمات من دون أن أحاول تجميلها، أو تحويلها إلى سؤال طبي، أو الاختباء خلف مصطلح لا يعني شيئًا بالنسبة إلى الألم الذي أشعر به.

لم تكن الجملة اعترافًا كاملًا.

لكنها كانت بداية شيء لم أكن أعرف إن كنت أستطيع إكماله.

أغلقت الدفتر.

ثم سمعت صوت جوزيف، هادئًا كما عرفته دائمًا:

«يمكنكِ أن تعترفي بأنكِ لا تعرفين.»

ارتجفت شفتاي.

هذه المرة، لم أصرخ.

لم أرمِ شيئًا.

لم أحاول إسكاته.

جلست أمام المكتب، ووضعت يديّ على وجهي، وبكيت بصمت.

كنت أريد أن أعود إلى الماضي.

كنت أريد أن أرى كاسيان مرة أخرى، وأن أسمع جوزيف يناديني من الحديقة، وأن أذهب إلى المستشفى من دون أن أشعر بأن كل ممر فيه يذكّرني بما فقدته.

كنت أريد أن أستعيد داميان كما كان قبل أن يصبح قربه مرآة أخرى لخوفي.

لكن الماضي لم يكن بابًا أستطيع فتحه.

وكانت الأصوات، مهما بدت حقيقية، لا تستطيع أن تعيد إليّ أحدًا.

حين رفعت رأسي، كانت الشمس قد ارتفعت فوق المدينة.

مسحت دموعي، ووقفت أمام النافذة.

في الأسفل، كانت المملكة تواصل حياتها. الناس يفتحون متاجرهم، والعربات تعبر الشوارع، والمرضى يصلون إلى المستشفى، والعائلات تنتظر أخبارًا لا تعرف إن كانت ستفرحها أم تحطمها.

كل شيء كان يستمر.

إلا عالمي.

كان ينهار، قطعةً بعد قطعة، ولم يعد بإمكاني إقناع نفسي بأنني لا أسمع صوت سقوطه.

ومع ذلك، في مكان عميق داخلي، ظلّ الجوع ينتظر.

لم يختفِ لأنني بكيت.

ولم يصمت لأنني اعترفت بخوفي.

كان ينتظرني عند المساء، كما يفعل دائمًا.

أما أنا، فبقيت أمام النافذة، أراقب الضوء وهو يتسلل إلى الغرفة، وأتساءل كم مرة أخرى سأضطر إلى الاختيار بين ما أريده وما أعرف أنه يدمرني.

لم أكن أعرف الإجابة.

لكنني بدأت أفهم أنني لن أستطيع البقاء إلى الأبد بين الاثنين.

وأن اليوم الذي سيتوقف فيه العالم عن منحني فرصة للاختباء، يقترب أكثر مما أريد أن أصدق.

الفصل الرابع والعشرون

ما تركته الأرض خلفها

وصل أمر الاستدعاء قبل التاسعة صباحًا.

كان مختومًا بختم القصر، وموجّهًا إلى إدارة مستشفى كاسيان، ويطلب حضور المسؤولين عن السجلات والمشرحة لمناقشة اختفاء عدد من الجثث خلال الأسابيع الماضية.

قرأته مرتين، ثم وضعته على المكتب بعناية مبالغ فيها، كأن ترتيب الورقة قد يعيد ترتيب العالم من حولي.

لم يكن الأمر مجرد تحقيق عابر. فقد ورد في أسفل الصفحة أن القصر سيُعيّن لجنة مؤقتة لمراجعة الإدارة المالية والطبية، وأن أي تقصير يثبت وقوعه قد يؤدي إلى سحب صلاحياتي. وفي الهامش إشارة مقتضبة إلى «ميثاق الطوارئ» الذي يتيح للمجلس مراجعة القضايا التي تمس أمن المملكة وحرمة الموتى؛ لم أفهم يومها لماذا أُدرج هذا النص في ملف مستشفى.

صلاحياتي.

كأنني ما زلت أملك شيئًا يستحق أن يُسحب.

دخل سيلفان دون أن يطرق الباب، ووضع أمامي ملفًا سميكًا.

— علينا مراجعة سجلات المشرحة قبل وصول اللجنة.

رفعت عيني إليه.

— ظننت أنك ستطلب مني الاستقالة هذه المرة.

— فكرت في ذلك.

جلس قبالتي، وبدا أكبر سنًا مما أتذكر. لم يكن غاضبًا كما توقعت؛ كان مرهقًا، وهذا أسوأ. الغضب يعني أن الشخص ما زال ينتظر منك شيئًا، أما الإرهاق فيعني أنه بدأ يفقد الأمل.

فتح الملف.

— هناك ثلاث جثث لا تتطابق تواريخ نقلها مع السجلات. وجثتان أُبلغ عن اختفائهما من مقبرتين خارج المدينة لا أقول إن هناك علاقة بين الأمرين، لكن اللجنة ستفعل.

ثبتُّ نظري على الأرقام.

ثلاث جثث.

لم أحتج إلى أن أغمض عيني لأتذكر الليل الذي حملت فيه ما لم يكن ينبغي لي أن ألمسه. لم تأتني الأصوات هذه المرة، ولم أشعر برغبة في تحطيم شيء. كان الخوف أكثر هدوءًا من ذلك؛ جلس داخلي كضيف يعرف أنه لن يُطرد.

قلت:

— هل تظن أن أحدًا من العاملين متورط؟

— أظن أن أحدًا يعرف أكثر مما يقوله.

ثم أغلق الملف ونهض.

— سأحضر الاجتماع معك. ليس لأنني أثق بقراراتك الأخيرة، بل لأن هذا المستشفى يستحق فرصة أخيرة.

خرج قبل أن أجيبه.

بقيت وحدي أمام الأوراق، وأدركت أنني للمرة الأولى لم أكن أخشى أن يعرف أحد حقيقتي فحسب؛ كنت أخشى أن أرى بعيني مقدار الخراب الذي تركته خلفي.

في القصر، بدا داميان مختلفًا عن الرجل الذي اعتدت رؤيته في الحديقة الملكية.

كان يرتدي معطفًا أسود طويلًا، ووقف أمام نافذة عالية يتحدث إلى أحد مستشاري والده. لم يرفع صوته، ولم يحتج إلى ذلك. كان يكفي أن ينظر إلى الرجل حتى يتوقف عن الاعتراض.

انتظر حتى خرج المستشار، ثم التفت إليّ.

— تأخرتِ.

— لم أكن أعلم أنني مدعوة إلى موعد محدد.

— أنتِ لا تأتين إلى القصر إلا حين يصبح العالم ضيقًا حولك، فظننت أنني سأوفر عليكِ الطريق هذه المرة.

كان في عبارته شيء من السخرية، لكنه لم يبتسم. اقترب وأشار إلى المقعد أمامه.

— اجلسي. لجنة التحقيق ستصل إلى المستشفى غدًا، وربما تبدأ بمراجعة حساباته قبل السجلات الطبية.

— كيف عرفت؟

— لأن بعض رجال القصر يعتقدون أن المال يفسر كل شيء. وحين يعجزون عن تفسيره، يبحثون عن شخص يحمّلونه المسؤولية.

— وهل جئت لتخبرني بأنهم سيختارونني؟

— جئت لأخبرك بأنك لن تواجهيهم وحدك.

كرهت مقدار الراحة الذي تسلل إليّ عند سماع كلماته. كان من السهل أن أضع مسافة بيني وبين الجميع، أما داميان فكان يعرف كيف يجعل المسافة تبدو عقابًا أوقعه على نفسي.

قلت بحذر:

— وما الذي تريده مقابل مساعدتك؟

تغيرت ملامحه قليلًا.

— لماذا تفترضين دائمًا أن وراء كل يد ممدودة إليكِ ثمنًا؟

— لأن الناس لا يقدمون شيئًا مجانًا.

— ربما تعلّمتِ ذلك من الأشخاص الخطأ.

أردت أن أجيبه، لكن العبارة أصابت موضعًا لم أكن مستعدة للمساس به. أشحت بوجهي نحو النافذة، فاقترب حتى وقف إلى جانبي.

في الأسفل، كان البستانيون يزيلون الأوراق الذابلة من أحواض الورد. بدا المشهد مرتبًا إلى حد غير واقعي؛ حتى الأشياء الميتة هنا كان لها من يهتم بإخفاء موتها.

قال داميان:

— هل أكلتِ اليوم؟

التفتُّ إليه بانزعاج.

— هل استدعيتني إلى القصر لتسألني عن الطعام؟

—لا. لكنني سألتك ثلاثة أسئلة منذ جلستِ، ولم تجيبي عن أي منها كما لو أنك تسمعينني فعلًا.

— أنا أسمعك.

— إذن انظري إليّ.

فعلت.

كانت عيناه داكنتين، ثابتتين، وفيهما ذلك النوع من الانتباه الذي يجعل المرء يشعر بأنه الشخص الوحيد في الغرفة. لم أكن أعرف إن كان يملك هذه القدرة بالفطرة أم أنه تعلّمها، لكنني كرهت أنني أردت البقاء تحت تأثيرها.

مد يده وأزاح خصلة شعر علقت قرب وجهي. كانت حركة بسيطة، ومع ذلك تجمدت للحظة.

سحب يده فورًا.

— آسف. لم أقصد أن أزعجك.

كان اعتذاره أكثر إرباكًا من اللمسة نفسها.

قلت بصوت خافت:

— لم تزعجني.

لم يبتعد، لكنه لم يحاول لمسّي مجددًا.

— رووان، أنا لا أطلب منك أن تثقي بي اليوم. أريد فقط أن تتوقفي عن اعتبار كل محاولة لمساعدتك فخًا.

ابتلعت ما كان عالقًا في حلقي.

—لا أعرف كيف أفعل ذلك.

— إذن لا تتعلمي وحدك.

ساد الصمت بيننا. لم يكن صمتًا مريحًا تمامًا، لكنه لم يكن مخيفًا أيضًا. للمرة الأولى منذ مدة، لم أشعر بأن عليّ اختراع إجابة مقنعة أو إخفاء كل ارتباك يمر بي.

اقتربت منه خطوة صغيرة.

— وإذا اكتشفت يومًا أنني لست الشخص الذي تظنه؟

نظر إليّ طويلًا، ثم قال:

— سأدعك تخبرينني بنفسك من تكونين، بدلًا من أن أقرر ذلك عنك.

لم أجد ردًا.

حين مد يده هذه المرة، تركتها تستقر فوق يدي. لم تكن لمسة عابرة؛ بقيت يده هناك، دافئة وثابتة، حتى شعرت بأنني أستطيع التنفس دون أن أراقب كل نفس.

لم أكن أحبه. لم أكن مستعدة لتسمية ما أشعر به حبًا.

لكنني أردت أن أراه مرة أخرى، لا لأنني أحتاج إلى مساعدته فحسب، بل لأن وجوده صار يوقظ فيّ شيئًا لم يكن مرتبطًا بالموت أو الخوف.

وهذا وحده كان كافيًا لإخافتي.

في طريق العودة، وجدت ماريان تنتظرني عند مدخل المنزل.

كانت تحمل ظرفًا بنيًا صغيرًا، وأول ما لاحظته هو التراب العالق بطرفه.

— وصل هذا منذ ساعة. الرجل الذي أحضره قال إنه يجب أن يصلك شخصيًا.

أخذته منها.

لم يكن عليه اسم مرسل، بل كُتبت على وجهه عبارة واحدة بخط متعجل:

إلى ابنة كاسيان، بخصوص ما أُخرج من الأرض.

شعرت بأن أصابعي بردت.

— هل رأيتِ الرجل؟

— بالكاد. كان يرتدي قبعة تخفي وجهه، وسأل إن كنتِ موجودة. عندما أخبرته أنكِ في القصر، ترك الظرف وغادر.

انتظرت حتى ابتعدت ماريان، ثم فتحت الظرف داخل غرفتي.

وجدت ورقة مطوية، وإيصالًا قديمًا من مكتب المقابر، وصورة صغيرة باهتة لقبر لا أعرفه.

على الورقة كُتبت جملة قصيرة:

إذا كنتِ تريدين معرفة من يعبث بالمقابر، فتوقفي عن البحث في الأماكن التي يعرفها الجميع. اسألي عن الحارس الذي اختفى قبل ثلاثة أسابيع.

قلبت الصورة.

على ظهرها تاريخ قديم، وتحته اسم لم أره من قبل: إلياس.

لم يكن الاسم غريبًا تمامًا. تذكرت الرجل الذي قابلته قرب المقابر، والذي كان يتحدث عن القبور كما لو أنها مخازن لا أكثر، ويبحث بين التراب عن الأشياء التي يتركها الموتى وراءهم.

لكن لماذا أرسل أحدهم اسمه إليّ؟

ومن الذي عرف أنني أبحث؟

جلست على حافة السرير، وأعدت قراءة الرسالة. لم تتضمن تهديدًا صريحًا، ولم تطلب مالًا، ولم تعرض صفقة. ومع ذلك، بدت أخطر من أي تهديد مباشر.

لأن كاتبها لم يكن يحاول إخافتي.

كان يعرف شيئًا.

وجدت إلياس في المساء قرب الحانة القديمة عند أطراف المدينة، في المكان الذي أخبرني ذات مرة أنه يقضي فيه معظم لياليه.

حين رآني، اختفت الابتسامة من وجهه.

—لا ينبغي أن تأتي إلى هنا.

— وأنت لا ينبغي أن تختفي ثلاثة أسابيع دون أن تخبر أحدًا.

تلفت حوله قبل أن يشير إليّ بالجلوس في الزاوية البعيدة. كانت يداه تتحركان باستمرار، وعيناه تنتقلان من الباب إلى النافذة.

— من أخبرك عني؟

وضعت الصورة أمامه.

توقف عن الحركة.

— من أين حصلتِ على هذا؟

— هذا سؤالي.

أعاد الصورة إليّ دون أن يلمسها بأطراف أصابعه.

— هناك رجل كان يسأل عن المقابر مؤخرًا. لم يكن من أهل المهنة، ولم يكن يبحث عن مقتنيات قديمة. كان يريد معرفة أي القبور فُتحت، وأي الجثث نُقلت، ومن الذي يستطيع الدخول دون أن يلاحظه أحد.

— هل رأيته؟

— مرتين. في المرة الأولى ظننته موظفًا من القصر. في الثانية، رأيته يتحدث إلى حارس المقبرة القديمة. وبعدها اختفى الحارس.

— هل تعرف اسمه؟

هز رأسه.

—لا. لكنني أعرف شيئًا آخر.

انتظرت.

مال نحوي وخفض صوته.

— لم تكن كل الجثث التي اختفت قديمة. بعض القبور فُتحت بعد أيام قليلة من الدفن. وهناك قبر واحد لم يُمس، رغم أن صاحبه كان أول من بحثوا عنه.

شعرت بأن الغرفة تضيق.

— قبر من؟

نظر إليّ نظرة مترددة، ثم قال:

— جوزيف.

لم أتحرك.

كان اسم أبي بالتبني قادرًا على فتح باب في داخلي لم أكن أعرف كيف أغلقه. لم أعد أسمع شيئًا، ولم أفقد السيطرة على يديّ. كل ما حدث أنني شعرت ببرودة قاسية تنتشر في صدري، كأن أحدهم وضع حقيقة صغيرة فوق قلبي وتركها هناك.

— لماذا لم يُمس قبره؟

—لا أعرف. لكن الرجل الغريب سأل عنه أكثر من مرة، ثم طلب من الحارس ألا يسمح لأحد بالاقتراب منه.

نهضت بسرعة حتى اصطدم الكرسي بالأرض.

أمسك إلياس بمعصمي.

— اسمعيني لا تذهبي إلى هناك الليلة. إن كان أحد يراقب القبر، فقد تكون هذه بالضبط اللحظة التي ينتظرونك فيها.

نزعت يدي من قبضته.

— هل تعرف من أرسل الرسالة؟

—لا.

— هل تكذب؟

تغير وجهه.

— ربما أكذب بشأن أشياء كثيرة، يا ابنة كاسيان. لكنني لا أكذب بشأن الرجل الذي جعلني أخاف من الاقتراب من قبور كنت أفتحها طوال حياتي.

تركته دون أن أقول شيئًا.

كان ينبغي أن أعود إلى المنزل، وأن أسلّم الرسالة إلى جهة التحقيق، وأن أتصرف للمرة الأولى كشخص يريد إنقاذ نفسه.

لكن فكرة قبر جوزيف لم تتركني.

لم أكن أريد أن أفتح قبره. لم أكن أريد أن ألمس التراب الذي يغطيه.

كنت أريد فقط أن أعرف لماذا اهتم به شخص لا أعرفه، ولماذا لم يكن موته كافيًا ليتركوه في سلام.

حين عدت، كان داميان ينتظرني في الصالون.

نهض فور رؤيتي، ثم توقف حين لاحظ وجهي.

— ماذا حدث؟

كدت أخبره بكل شيء. بالرسالة، وبإلياس، وبالرجل الذي يسأل عن قبر جوزيف. كانت الكلمات قريبة من لساني، وكان يكفي أن أبدأ بجملة واحدة حتى يتغير كل شيء.

لكنني تذكرت أن القصر نفسه جزء من التحقيق، وأن الرسالة لم تذكر اسم مرسلها.

قلت:

— وجدت خيطًا قد يساعد في قضية المقابر.

لم يسألني عن التفاصيل فورًا. اكتفى بالنظر إليّ، ثم قال:

— هل أنتِ في خطر؟

—لا أعرف.

اقترب مني، وأخذ معطفي عن كتفيّ ووضعه على المقعد.

— هذه إجابة صادقة على الأقل.

جلست، فجلس إلى جانبي دون أن يضغط عليّ بالكلام. أخبرته أن رجلًا اختفى، وأن شخصًا ما يراقب المقابر، وأن الأمر قد يرتبط باختفاء الجثث. أخفيت اسم جوزيف، وأخفيت الرسالة نفسها.

استمع حتى انتهيت.

— سأطلب من رجالي البحث عن الحارس المختفي، لكنني لن أرسل أحدًا إلى قبر جوزيف قبل أن نعرف ما الذي يحدث.

رفعت رأسي بسرعة.

— لم أقل لك إن الأمر يتعلق بقبره.

لم تتغير ملامحه، لكنه نظر إليّ لحظة أطول مما ينبغي.

ثم قال بهدوء:

— ذكرتِ أن الرجل كان يسأل عن قبور محددة. وقبر جوزيف هو أكثر قبر قد يقلقك. لم يكن الأمر صعب التخمين.

أردت أن أصدقه. بل أردت أن أعتذر عن شكي فيه.

ومع ذلك، بقي شيء صغير داخلي يراقب التفاصيل، لا بدافع الكراهية، بل لأنني لم أعد أملك رفاهية الثقة العمياء.

قال داميان:

— انظري إليّ يا روران. لن أطلب منك أن تخبريني بكل شيء الآن، لكن لا تذهبي إلى المقبرة وحدك.

— وماذا لو كان هذا الشيء الوحيد الذي أستطيع فعله؟

— عندها سأذهب معك.

كانت إجابته سريعة، حاسمة، وكأن الأمر لا يحتمل النقاش.

نظرت إلى يده الموضوعة بيننا، ثم وضعت يدي فوقها.

—لا أريد أن أخسرك أيضًا.

خرجت العبارة مني قبل أن أفكر فيها.

للمرة الأولى، اختفت صلابته تمامًا. رفع يدي إلى شفتيه وقبّل أصابعي قبلة هادئة، ثم أسند جبهته إلى جبهتي.

— لن تخسريني لأنك خائفة.

أغمضت عيني.

لم أعرف إن كان وعده صادقًا، ولا إن كان قادرًا على الوفاء به. لكنني سمحت لنفسي، لدقائق قليلة، أن أستند إليه دون أن أبحث عن الطريقة التي قد ينهار بها كل شيء.

وعندما ابتعد، بقيت أصابعه متشابكة مع أصابعي.

لم أذهب إلى المقبرة تلك الليلة؛ بقيت في غرفتي أراجع ما قاله داميان، وأحاول أن أفهم لماذا جعلني قربه أقل خوفًا للحظات.

لم أحتج إلى ذلك كي أعرف أن الماضي بدأ يتحرك من جديد؛ فقد وصلني إلى بابي، ووضع اسم أبي أمامي، ثم تركني أقرر إن كنت أريد فتحه.

أما الرسالة، فأخفيتها في درج مكتبي.

وفي أسفلها، تحت العبارة التي قرأتها عشرات المرات، لاحظت أخيرًا أثرًا صغيرًا لم أنتبه إليه من قبل: ختمًا باهتًا لا يعود إلى مكتب المقابر، بل إلى دائرة تتعامل مع ملفات الطوارئ الملكية. تذكرت الإشارة التي رأيتها في أمر الاستدعاء، وشعرت بأن القضية تتجاوز اختفاء الجثث إلى سلطة تحاول أن تتحكم في الطريقة التي تُروى بها الحقيقة.

لم أعد أعرف إن كان الخطر يقترب من المستشفى، أم من قبر جوزيف، أم من الرجل الذي بدأت أسمح له بالدخول إلى حياتي.

لكنني عرفت شيئًا واحدًا.

هذه المرة، لم يكن الموت هو الشيء الوحيد الذي يملك سرًا.

كان الأحياء يخفون أسرارهم أيضًا، وبعضها لا يُدفن كي يُنسى، بل كي يبقى بعيدًا عن الضوء إلى الأبد.

الفصل الخامس والعشرون

الشاهد الذي لم يمت

في صباح اليوم التالي، وجدت المستشفى محاصرًا بالوجوه.

صحفيون عند البوابة، مرضى يطالبون بتفسيرات، وعائلات تتحدث بصوت مرتفع عن أموال دفعتها لقاء علاج لم يعد يصل في موعده. كان أحدهم يحمل ورقة كتب عليها اسم كاسيان، بينما وقف آخر أمام المدخل يتهم الإدارة بتحويل المستشفى إلى مكان لا يثق به أحد.

لم يكن أكثر ما آلمني أن الناس يهاجمونني.

كان أنني لم أستطع تكذيبهم.

دخلت من الباب الجانبي، وصعدت إلى مكتبي، لكنني لم أصل إليه قبل أن تلحق بي ماريان.

— هناك امرأة تنتظرك منذ الصباح. تقول إن لديها معلومات عن اختفاء الجثث.

توقفت.

— هل أخبرتِ سيلفان؟

— حاولت، لكنها رفضت التحدث إلى أي شخص غيرك.

وجدتها في غرفة الانتظار، امرأة في أواخر الأربعينيات، ترتدي معطفًا رماديًا وتضم حقيبة صغيرة إلى صدرها. بدت كأنها لم تنم منذ أيام. وحين رأتني، نهضت على الفور.

— أنتِ ابنة كاسيان؟

— نعم. من أنتِ؟

ترددت قبل أن تجيب:

— كنت أعمل في مكتب تسجيل الوفيات، قبل أن أترك عملي منذ شهر.

أغلقت الباب خلفي، وأشرت إليها بالجلوس.

قالت إن اسمها إيلينا، وإنها أمضت سنوات في مراجعة سجلات الوفاة ونقل الجثث بين المستشفيات والمقابر. لم تكن تعرف شيئًا عن الجرائم، كما أكدت أكثر من مرة، لكنها لاحظت في الأسابيع الأخيرة أن بعض الملفات تُعدّل بعد تسجيلها.

أخرجت من حقيبتها ورقة مطوية.

— هذه نسخة من سجل قديم. احتفظت بها لأنني لم أفهم سبب تغيير البيانات.

تناولت الورقة.

كان فيها اسم متوفى، وتاريخ نقله، وتوقيع موظف مسؤول. لكن التاريخ المكتوب في النسخة الأصلية اختلف عن التاريخ المثبت في السجل النهائي، كما اختفى اسم الجهة التي تسلمت الجثمان.

— لماذا لم تبلغي القصر؟

ضحكت ضحكة قصيرة خالية من الفرح.

— بلّغت. وبعد يومين، زارني رجلان وسألاني إن كنت أحب الاحتفاظ بعملي.

رفعت عيني إليها.

— هل تعرفينهما؟

—لا. لكن أحدهما كان يرتدي خاتمًا يحمل شعارًا ملكيًا.

شعرت بأن الرسالة التي أخفيتها في مكتبي أصبحت أثقل، رغم أنها لم تكن معي.

— هل تستطيعين التعرف إليه؟

— ربما. لكنني لن أذهب إلى القصر وحدي.

قبل أن أجيب، انفتح الباب ودخل سيلفان، وقد بدا مستاءً من وجودها دون موعد.

شرحت له ما قالته، ثم وضعت الورقة أمامه. قرأها ببطء، وعندما وصل إلى التوقيع، انعقد حاجباه.

— هذا ليس توقيع موظف من المستشفى.

— أعرف، قلت.

— إنه توقيع من دائرة النقل التابعة للقصر.

نظرت إلى إيلينا. كانت تحدق فينا كما لو أنها تنتظر أن ينكر أحدنا ما اكتشفناه، أو أن يطردها كي تتمكن من العودة إلى حياتها القديمة.

لكن سيلفان أعاد الورقة إليها وقال:

— احتفظي بالأصل. سنحتاج إلى نسخة موثقة، ولن نسمح لأحد بمصادرة ما لديك دون تسجيل رسمي.

كانت تلك أول مرة منذ أسابيع أشعر فيها أننا لا ننتظر الكارثة فحسب، بل نحاول فعل شيء لمنعها.

وللمرة الأولى أيضًا، لم أكن وحدي في الغرفة.

بحلول الظهيرة، وصل داميان.

لم يأتِ في موكب طويل كما توقعت، بل دخل برفقة ضابطين من الحرس الملكي، وتوجه مباشرة إلى مكتبي. كانت ملامحه جامدة، لكنه لم يبدُ متفاجئًا من وجود إيلينا.

وهذا ما أثار انتباهي.

استمع إلى شهادتها، ثم طلب من الضابطين تدوين أقوالها وحمايتها إلى أن تُراجع السجلات. لم يرفع صوته، ولم يتعامل معها بوصفها امرأة خائفة يمكن تجاهلها. كان حازمًا إلى درجة جعلتها تستقيم في جلستها وتجيب عن أسئلته دون تلعثم.

وحين انتهى، التفت إليّ.

— أريد التحدث إليكِ على انفراد.

خرج سيلفان وإيلينا، وبقيت واقفة خلف مكتبي.

— هل كنت تعرف بشأن التعديلات في السجلات؟

—لا.

كانت إجابته سريعة.

— وهل تعرف من يحمل الخاتم الملكي الذي تحدثت عنه؟

— هناك عشرات الأشخاص الذين يحق لهم استخدام شعار القصر.

— إجابة مريحة.

اقترب من المكتب، وأسند يديه إلى حافته.

— رووران، إذا كنتِ تريدين مساعدتي، فعليكِ أن تخبريني بما لديكِ، لا أن تحوّلي كل إجابة إلى اتهام.

كدت أخرج الرسالة من الدرج وأضعها أمامه. كان جزء مني يريد اختبار رد فعله، وجزء آخر يخشى أن أكتشف شيئًا لن أستطيع التراجع عنه.

قلت بدلًا من ذلك:

— وصلتني معلومات عن حارس مقبرة اختفى قبل ثلاثة أسابيع.

تبدلت نظرته.

— اسمه؟

—لا أعرف إن كان من الحكمة أن أخبرك قبل أن أعرف إن كان آمنًا.

ظل ينظر إليّ لحظات، ثم تراجع خطوة.

— حسنًا. لن أضغط عليكِ.

لم أتوقع ذلك. كنت أتهيأ لجدال طويل، أو لأمر ملكي يضعني أمام خيارين لا أريدهما. لكنه ترك لي مساحة لم أكن أعرف كيف أتعامل معها.

قال قبل أن يغادر:

— سأرسل لكِ عنوانًا. هناك شخص يستطيع مراجعة سجلات المقابر دون المرور بدائرة النقل الملكية. إذا قررتِ الذهاب، أخبريني أولًا.

— ولماذا تساعدني إلى هذا الحد؟

توقف عند الباب، والتفت إليّ.

— لأنني لا أريد أن أراكِ تخسرين كل شيء وأنتِ تحاولين إثبات أنكِ قادرة على حمله وحدك.

ثم خرج.

بقيت أنظر إلى الباب بعد رحيله، غاضبة من نفسي لأن كلماته أصابتني، وممتنة له لأنني لم أعد مضطرة إلى التظاهر بأنني لا أحتاج أحدًا.

لم يكن العنوان الذي أرسله داميان بعيدًا عن المدينة. كان منزلًا ضيقًا فوق متجر قديم للورق، يسكنه رجل يُدعى نادر، عمل سنوات في أرشيف المقابر قبل أن يتقاعد.

استقبلني بعد أن تحقّق من هويتي، ثم أغلق الباب وأخرج دفترًا سميكًا من خزانة خشبية.

— طلب الأمير مني مراجعة أسماء الحراس الذين اختفوا أو غادروا عملهم فجأة. لكنني وجدت أمرًا آخر.

فتح الدفتر على صفحة تحمل تواريخ متقاربة.

كانت هناك ثلاثة أسماء، شُطبت اثنان منها بخط أسود، بينما بقي الثالث واضحًا.

إلياس.

شعرت بأنني عدت إلى الحانة، إلى يديه المرتجفتين وصوته المنخفض.

— هل كان يعمل حارسًا؟

—لا. كان مسجلًا في دفاتر قديمة بوصفه عامل نقل مؤقتًا. ثم أُلغيت بياناته، كأن الرجل لم يعمل هنا قط.

— من ألغى اسمه؟

أشار إلى توقيع في أسفل الصفحة.

لم يكن التوقيع كاملًا، لكنه حمل العلامة نفسها التي وصفتها إيلينا: شعار دائرة النقل الملكية.

سألته إن كان يستطيع معرفة من أصدر الأمر، فأجاب بأنه يحتاج إلى يومين على الأقل، وربما أكثر إذا كانت السجلات قد نُقلت.

قبل أن أغادر، أوقفني.

— هناك شيء يجب أن تعرفيه. قبل أشهر من اختفاء إلياس من الدفاتر، سُجلت زيارة غير اعتيادية إلى مقبرة والدك بالتبني.

توقفت يدي على مقبض الباب.

— جوزيف؟

أومأ.

— لم تُسجل الزيارة باسم شخص، بل باسم جهة. دائرة تابعة للقصر طلبت معاينة القبر، لكن التقرير النهائي كتب أن الزيارة أُلغيت.

— وهل أُلغيت فعلًا؟

أغلق نادر الدفتر.

—لا أعرف. لكن التوقيع على طلب الزيارة موجود، أما توقيع الإلغاء فليس موجودًا في النسخة الأصلية.

لم أطرح سؤالًا آخر.

خرجت من المتجر وأنا أحمل حقيقة ناقصة، لكنها كانت كافية لتغيّر معنى أشياء كثيرة. لم يعد الأمر متعلقًا بمجرد جثث مفقودة أو لصوص قبور. كان هناك من يملك سلطة تعديل السجلات، ومحو أسماء الناس، وجعل الزيارات تحدث ثم لا تحدث على الورق.

وكان قبر جوزيف جزءًا من ذلك.

عندما وصلت إلى المنزل، كان المطر قد بدأ يهطل.

وجدت داميان في الحديقة الشتوية، واقفًا قرب النافذة، وقد خلع معطفه ووضعه على أحد المقاعد. بدا كأنه انتظرني طويلًا، لكنه لم يسألني أين كنتِ، ولم يوبخني لأنني لم أخبره قبل أن أذهب.

اكتفى بأن قال:

— هل وجدتِ ما تبحثين عنه؟

— وجدت ما يجعلني أحتاج إلى أسئلة أكثر.

اقتربت منه وأخبرته بما عثرت عليه عند نادر، بما في ذلك طلب معاينة قبر جوزيف. هذه المرة لم أخفِ اسمه، ولم أختصر ما شعرت به عندما رأيت التوقيع.

استمع إليّ حتى انتهيت، ثم سأل:

— هل تعتقدين أن أحدًا يريد إيذاء ذكرى والدك؟

—لا أعرف. أحيانًا أشعر أنني لا أعرف شيئًا عن الرجل الذي رباني، رغم أنني عشت معه سنوات طويلة.

— ربما لم يكن يخبرك بكل شيء لأنه أراد حمايتك.

— أو لأنه لم يثق بي بما يكفي.

—لا تجعلي غيابه دليلًا ضدكِ.

كانت الجملة بسيطة، لكنها جعلتني أنظر إليه طويلًا. لم يقل إن جوزيف كان رجلًا كاملًا، ولم يطلب مني أن أقدسه، ولم يحاول تفسير كل شيء. اكتفى بأن يذكرني أنني لست مسؤولة عن الأسرار التي لم أعرفها.

جلست على المقعد، وشعرت بالتعب يتسلل إلى عظامي.

جلس داميان بجانبي، تاركًا بيننا مسافة صغيرة.

— هل يمكنني أن أسألك شيئًا؟ قلت.

— اسألي.

— لماذا تبدو دائمًا واثقًا من أنك تستطيع إصلاح كل شيء؟

ابتسم ابتسامة خافتة، لكنها لم تصل إلى عينيه.

— لأن الناس يتوقعون مني ذلك.

— وماذا يحدث عندما تعجز؟

صمت قليلًا.

—لا أسمح لهم برؤية ذلك.

نظرت إلى يديه. للمرة الأولى، خطر لي أنني لم أسأله قط عن الأشياء التي يخافها، أو عن الشخص الذي يكونه عندما لا يراقبه أحد.

قلت:

— يمكنك أن تفعل ذلك معي.

رفع عينيه إليّ.

لم تكن جملة عابرة بالنسبة إليه، أو هكذا بدا لي. اقترب قليلًا، ثم رفع يده إلى وجهي وتوقف قبل أن يلمسني، تاركًا لي القرار.

أملت رأسي نحو كفه.

مرر إبهامه على خدي بحنان لم أعتد عليه، ثم قال:

—لا تعرفين كم يصعب عليّ أن أسمح لأحد بالاقتراب مني.

— أظن أنني أعرف أكثر مما تتصور.

اقتربت وجوهنا، ولم أبتعد هذه المرة. شعرت بأنفاسه قريبة، وبأن المسافة بيننا صارت أصغر من أن تتسع لكل ما لم نقله.

لكنه توقف قبل أن يقبّلني.

— أريد أن أتأكد من أنكِ تريدين هذا، لا أنكِ تبحثين عن شيء تتشبثين به كي لا تسقطي.

أصابني سؤاله في مكان حساس، لأنه لم يتركني أختبئ خلف حاجتي إليه.

فكرت قليلًا، ثم قلت:

—لا أستطيع أن أعدك بأنني بخير. لكنني أعرف أنني أريدك هنا الآن.

لم يطلب وعدًا آخر.

مال نحوي وقبّلني قبلة قصيرة، هادئة، لم تحمل انتصارًا ولا مطالبة. وحين ابتعد، بقيت يدي ممسكة بيده.

لم يختفِ حزني، ولم تُحلّ أسرار المقابر، ولم يصبح المستشفى فجأة مكانًا آمنًا.

لكن شيئًا تغيّر بيننا.

لم يعد داميان مجرد رجل أهرب إليه حين يشتد العالم عليّ، ولم أعد بالنسبة إليه، على الأقل كما بدا لي، امرأة يجب إنقاذها من نفسها. صرنا شخصين يحاول كل منهما أن يرى ما وراء الصورة التي يعرضها الآخر.

ولم أكن أعرف بعد كم من الأسرار يمكن للحب أن يحتمل قبل أن يتحول إلى سكين.

في تلك الليلة، عدت إلى مكتبي وأخرجت الرسالة البنية.

وضعتها إلى جانب صورة قبر جوزيف، ثم قارنت الختم الباهت بالتوقيع الذي رأيته في دفتر نادر. لم يكن التطابق كاملًا، لكنه كان كافيًا لأدرك أن الرسالة لم تأتِ من شخص يتخبط في الظلام.

كان مرسلها قريبًا من السجلات، أو قريبًا ممن يسيطرون عليها.

قلبت الصورة مرة أخرى، ودرست اسم إلياس.

كان بإمكاني الذهاب إليه في الصباح، ومطالبته بالحقيقة. وكان بإمكاني إبلاغ داميان بكل ما أعرفه، وتركه يتولى التحقيق كما وعدني.

لكنني بدأت أفهم أن كل خطوة تقربني من الحقيقة تجعلني أكثر اعتمادًا على أشخاص لا أعرف عنهم إلا ما يسمحون لي برؤيته.

أعدت الأوراق إلى الدرج، وأغلقت القفل.

ثم فتحت دفترًا آخر، دفترًا لم أكتب فيه منذ أسابيع. وجدت بين صفحاته رسمًا قديمًا ليد بشرية، رسمته عندما كنت لا أزال أظن أن دراسة الجسد ستجعلني أفهم الحياة أكثر.

مررت إصبعي فوق الخطوط الباهتة.

لم أشعر بالرغبة القديمة في إضافة شيء إلى الرسم، ولم أبحث عن شيء ميت كي يهدئ اضطرابي. شعرت فقط بحزن عميق على الفتاة التي رسمته، وعلى المسافة التي قطعتها بعيدًا عنها.

أغلقت الدفتر.

في الخارج، كان المطر يغسل شوارع المدينة، لكن شيئًا تحت الأرض ظل في مكانه.

وفي مكان ما، كان هناك شخص يعرف لماذا زار رجال القصر قبر جوزيف، ولماذا اختفى إلياس من السجلات، ولماذا صار الموتى أكثر حضورًا في حياة الأحياء من أي وقت مضى.

لم أكن أعرف اسمه بعد.

لكنني كنت قد بدأت أقترب منه.

الفصل السادس والعشرون

الرجل الذي محوه من السجلات

في صباح اليوم التالي، لم أذهب إلى المستشفى مباشرة.

كان عليّ أن أجد إلياس قبل أن يسبِقني إليه الشخص الذي يعبث بالسجلات، أو قبل أن يقرر هو نفسه أن الاختفاء أكثر أمانًا من مواجهتي.

وصلت إلى الحانة قبيل الظهيرة. كانت أبوابها مفتوحة، ورائحة الخشب الرطب والتبغ القديم عالقة في المكان، لكن الزاوية التي جلسنا فيها في الليلة السابقة كانت خالية.

سألت صاحب الحانة عنه.

تغير وجه الرجل بمجرد أن ذكرت اسمه.

—لا أعرف أحدًا بهذا الاسم.

— رأيته هنا بالأمس.

— إذن اسأليه أين ذهب.

— لو كنت أعرف أين ذهب، لما سألتك.

رمقني بنظرة ضيقة، ثم انشغل بمسح كأس لم يكن يحتاج إلى المسح. لم أضغط عليه. كان خوفه واضحًا بما يكفي ليخبرني أن إلياس لم يكن مجرد زبون عابر.

خرجت من الحانة واتجهت إلى الزقاق الخلفي، حيث أخبرني إلياس ذات مرة أنه يبيت عندما لا يملك ثمن غرفة. لم أجد سوى بطانية قديمة وصندوق خشبي مقلوب، لكن شيئًا لفت انتباهي قرب الجدار: قطعة من الورق ممزقة، عالقة بين حجرين.

انحنيت والتقطتها.

كانت جزءًا من سجل رسمي، وفي أعلاها ختم دائرة النقل الملكية. لم يبقَ من النص إلا بضعة أسطر، غير أن اسمًا واحدًا ظل واضحًا وسط الحبر الباهت.

إلياس مراد — متوفى.

تحت الاسم تاريخ وفاة يعود إلى ثلاثة أسابيع.

أعدت قراءة السطر.

ثلاثة أسابيع.

في تلك الفترة نفسها، كان إلياس يتجول قرب المقابر، ويسرق ما يتركه الموتى من مقتنيات، ويتحدث معي عن الحارس المختفي. الرجل الذي رأيته بعيني، والذي أمسك بمعصمي وحذرني من الذهاب إلى قبر جوزيف، كان مسجلًا لدى القصر بوصفه ميتًا.

لم يكن اسمه قد شُطب فحسب.

لقد مُحي صاحبه من العالم على الورق.

طويت القطعة وأخفيتها في جيبي. لم أعد أحتاج إلى تخمين ما إذا كانت السجلات قد عُدّلت عمدًا؛ صار أمامي دليل على أن أحدهم يستطيع إعلان موت إنسان لا يزال حيًا.

والسؤال الذي بقي هو: لماذا اختاروا إلياس؟

وصلت إلى المستشفى بعد الظهر، فوجدت سيلفان في مكتبي ينتظرني، وإلى جانبه رجلان من لجنة التحقيق.

كان أحدهما قصيرًا، ذا شعر رمادي وملامح جامدة، أما الآخر فكان أصغر سنًا، يحمل دفترًا جلديًا ويميل برأسه قليلًا حين يستمع، كأنه يسجل حتى الأشياء التي لا تُقال.

عرّفني سيلفان بهما. كان الرجل الأكبر يُدعى المفتش فاريس، وقد كُلّف بمراجعة سجلات المستشفى والوفيات المرتبطة به.

بدأ فاريس بأسئلة عن الحسابات والموظفين، ثم انتقل إلى السجلات الطبية. أجبت بما أعرفه، ولم أحاول تجميل الأرقام أو إخفاء الإخفاقات التي تحمل مسؤوليتي.

حين وصل إلى ملفات المشرحة، فتح صفحة بعينها ووضع إصبعه على سطر محدد.

— لماذا غُيّر تاريخ نقل هذه الجثة؟

نظرت إلى السجل.

لم أعرف الإجابة، لكنني عرفت الختم.

كان هو نفسه الذي رأيته على الورقة الممزقة.

— هذا التعديل لم يصدر عن المستشفى، قلت.

رفع فاريس عينيه.

— ما دليلك؟

أخرجت قطعة الورق من جيبي، لكنني لم أسلمها إليه. وضعتها على المكتب، وأبقيت يدي فوقها.

— وجدت هذا اليوم. اسم الرجل المسجل هنا يعود إلى شخص قابلته بنفسي قبل أيام، رغم أن الوثيقة تعلن وفاته منذ ثلاثة أسابيع.

لمعت في عيني المفتش نظرة لم أستطع تفسيرها.

— ومن هو هذا الرجل؟

— إلياس مراد. كان يعمل في نقل الجثث بصورة مؤقتة، ثم اختفى اسمه من السجلات.

مد يده نحو الورقة، لكنني سحبتها قليلًا.

— أريد تسجيل هذه الوثيقة رسميًا قبل تسليمها، مع إثبات أنني قدمتها بنفسي.

لم يعجبه شرطي، وقد ظهر ذلك في تصلب فكه، لكنه أومأ للموظف الأصغر بتدوين التفاصيل.

قال فاريس:

— إذا كانت الوثيقة صحيحة، فقد نكون أمام تزوير في سجلات الوفيات، وربما جريمة أكبر. لكنني أريد أن أعرف أين وجدتِ الرجل.

—لا أعرف مكانه الآن.

— وهل أخبرك بشيء عن اختفاء الجثث؟

نظرت إلى سيلفان. كان يراقبني بصمت، تاركًا لي حرية الإجابة.

— أخبرني أن هناك من يسأل عن القبور التي فُتحت، وأن حارسًا اختفى بعد أن تحدث إلى رجل غريب.

دوّن الموظف الكلمات، بينما أغلق فاريس الملف أمامه.

—لا تغادري المدينة دون إبلاغنا. وإذا تواصل معك إلياس، فلا تحاولي التحقيق معه بنفسك.

كادت العبارة تنتزع مني ضحكة مريرة.

لو كان بإمكاني التوقف عن فعل الأشياء التي لا ينبغي لي فعلها، لما وصلت إلى هنا أصلًا.

لكنني اكتفيت بالقول:

— سأفكر في نصيحتك.

نهض الرجلان وغادرا، وبقي سيلفان واقفًا عند النافذة.

— أنتِ تتورطين في شيء أكبر من المستشفى.

— أعرف.

—لا أظن أنكِ تعرفين فعلًا.

استدار إليّ، وكانت في وجهه تلك الخيبة القديمة التي لم يعد يحاول إخفاءها.

— أستطيع مساعدتك في إنقاذ المستشفى، رووان. أستطيع مراجعة الحسابات، والتفاوض مع الموردين، ومواجهة اللجنة. لكنني لا أستطيع حمايتك من كل قرار تتخذينه خارج هذه الجدران.

أخفضت رأسي.

— لم أطلب منك ذلك.

—لا. أنتِ لا تطلبين شيئًا. تختفين، ثم تعودين بأدلة لا تفسرين مصدرها، وتنتظرين منا أن نثق بأن كل شيء تحت السيطرة.

لم أجد ما أقوله.

جمع أوراقه، ثم توقف عند الباب.

— كاسيان لم يترك لكِ مستشفى فحسب. ترك لكِ أشخاصًا كانوا يؤمنون به لا تجعليهم يدفعون ثمن صراع لا يعرفون عنه شيئًا.

خرج، وبقيت كلماته معي أكثر مما بقيت الورقة في جيبي.

للمرة الأولى، فهمت أن انهيار المستشفى لا يحدث لأن المال ينفد وحده. يحدث أيضًا حين يتوقف الناس عن تصديق أن من يقودهم يعرف إلى أين يذهب.

وصلت رسالة داميان قبل الغروب.

لم تحمل سوى موعد ومكان: المكتبة القديمة في القصر، عند السادسة.

ذهبت وأنا أحمل قطعة الورق في حقيبتي، وقد قررت أن أخبره بما وجدته، لكنني لن أسلمه الدليل قبل أن أعرف كيف سيحميه، ومن سيطلع عليه.

كان ينتظرني بين الرفوف العالية، وقد وضع أمامه ملفًا مفتوحًا. حين رآني، أغلقه ودفعه جانبًا.

— تبدين كأنك لم تنامي.

— ربما لأنني لم أنم.

— هل أكلتِ؟

نظرت إليه.

رفع حاجبه.

— أعرف. سؤال ممل. لكنني سأستمر في طرحه حتى أحصل على إجابة مختلفة.

وجدت نفسي أبتسم رغمًا عني.

كانت ابتسامة صغيرة، لم تدم طويلًا، لكنها بدت غريبة على وجهي بعد أيام من العبوس.

قال داميان بهدوء:

— اشتقت إلى هذه.

— إلى ماذا؟

— إلى رؤيتك تبتسمين دون أن تحاولي إخفاء ذلك بعد ثانية.

أشحت بوجهي، وشعرت بحرارة خفيفة تصعد إلى وجنتيّ. لم أعتد أن يلاحظ أحد هذه التفاصيل، ولم أعرف كيف أتصرف حين يكون الشخص الذي يلاحظها هو نفسه الذي بدأت أخشى فقدانه.

جلست أمامه وأخبرته بما حدث في الحانة، ثم أخرجت الوثيقة الممزقة.

قرأها مرة واحدة، ثم أعاد قراءتها ببطء.

اختفت ابتسامته.

— هل أنتِ متأكدة من أنكِ رأيتِ إلياس بعد التاريخ المكتوب؟

— متأكدة.

— وهل يعرف أنكِ تبحثين عنه؟

— نعم.

مرر إبهامه على حافة الورقة، ثم وضعها داخل الملف الذي أمامه.

— سأطلب مراجعة سجل الوفاة من مصدر مستقل. لن أعتمد على سجلات دائرة النقل وحدها.

راقبته.

— هل تستطيع فعل ذلك دون أن يعرف أحد في القصر؟

رفع عينيه إليّ.

— ليس كل من يعمل في القصر جزءًا مما يحدث. لكنني لن أكذب عليكِ؛ إذا كانت هناك جهة تستغل سلطتها، فستعرف عاجلًا أم آجلًا أن أحدًا بدأ يراجع أعمالها.

— إذن قد يتعرض إلياس للخطر.

— وقد تتعرضين أنتِ أيضًا.

قالها دون أن يرفع صوته، لكنني شعرت بثقلها.

—لا أريد أن أكون السبب في اختفائه.

— أنتِ لستِ السبب في أن أحدهم قرر محو اسمه.

أخفضت عيني إلى يديّ.

— يبدو أنني أصبحت جيدة في الوصول متأخرة إلى كل شيء.

لم يجب مباشرة. نهض، وانتقل إلى المقعد المجاور لي بدلًا من أن يبقى في الجهة المقابلة للطاولة.

— روران، انظري إليّ.

فعلت.

—لا أستطيع أن أغيّر ما حدث لوالدك أو لجوزيف، ولا أستطيع أن أعيد إليكِ السنوات التي ضاعت وأنتِ تحاولين فهم ما تركاه خلفهما. لكنكِ لستِ مضطرة إلى تحويل كل خسارة إلى عقوبة لنفسك.

شعرت بأن شيئًا في صدري انقبض.

لم أخبره بما يحدث في غرفتي ليلًا، ولا بالأشياء التي أخفيها عن ماريان، ولا بالأفكار التي بدأت تجعلني أخاف من البقاء وحدي. ومع ذلك، كان يقترب من حقيقة لم أسمح لنفسي بتسميتها.

قلت:

— أخشى أن تعرفني حقًا، ثم تندم لأنك اقتربت.

لم يبتسم هذه المرة.

—لا أستطيع أن أعدك بأنني لن أتألم منكِ يومًا، كما لا أستطيع أن أطلب منكِ وعدًا مماثلًا. لكنني أريد أن أعرفكِ كما أنتِ، لا كما تتمنين أن تكوني أمامي.

كانت كلماته جميلة، وربما لهذا السبب آلمتني.

لأنني لم أكن أعرف إن كنت أملك الشجاعة لأريه نفسي كاملة.

مد يده، فوضعت يدي فيها. ثم مال نحوي وقبّل جبيني، وبقي قريبًا لحظة قبل أن يبتعد.

لم تكن القبلة وعدًا بأن كل شيء سيصبح بخير. كانت اعترافًا صغيرًا بأن ما بيننا لم يعد مجرد فضول أو انجذاب عابر.

وحين نهضنا للمغادرة، أمسكت بيده قبل أن يفلتها.

— داميان؟

— نعم؟

— إذا اكتشفت شيئًا عن عائلتي، شيئًا سيئًا، هل ستخبرني؟

توقفت عيناه عند وجهي.

— لن أتعمد إخفاء حقيقة تخصكِ.

لم تكن إجابة كاملة، لكنني لم أطلب منه المزيد.

تركت يده، وخرجت معه من المكتبة.

ولم أعرف أن بعض الوعود لا تُكسر بالكذب الصريح، بل بما يختار المرء ألا يقوله.

في تلك الليلة، عدت إلى المنزل ووجدت ماريان في الممر المؤدي إلى غرفتي. كانت تحمل صينية طعام لم تمسها يداها، وحين رأتني، تنفست بارتياح.

— ظننت أنكِ لن تعودي قبل منتصف الليل.

— تأخرت قليلًا.

نظرت إلى الصينية.

— هل هذا لي؟

— لا، إنه للملك. بالطبع لكِ. من غيركِ يترك الطعام حتى يبرد ثم يدّعي أنه نسي؟

كدت أضحك، لكنني رأيت القلق في عينيها قبل أن أجيب.

أخذت الصينية منها، وقلت:

— سأحاول أن آكل.

—لا تحاولي فقط.

ثم ترددت، وأضافت:

— هناك شخص سأل عنكِ بعد الظهر.

توقفت.

— من؟

— لم يذكر اسمه. ترك رسالة، لكنه لم ينتظر جوابًا.

أخرجت من جيب مريولها ورقة صغيرة، وناولتها لي.

لم يكن عليها ختم ولا توقيع. سطران فقط، مكتوبان بخط واضح:

الرجل الذي تبحثين عنه لم يمت.

وتحتهما:

لكنه يعرف من الذي سيأتي لقتله إن عاد إلى الظهور.

شعرت بأن الغرفة أصبحت أبرد.

رفعت رأسي نحو ماريان.

— هل رأيتِ من تركها؟

— نعم. رجل طويل، يرتدي قفازين أسودين. لم أرَ وجهه جيدًا.

نظرت إلى الورقة مرة أخرى. لم تكن تهديدًا لي، بل تحذيرًا. وهذا جعلها أكثر سوءًا؛ فالتهديد يخبرك أن شخصًا يريد إيذاءك، أما التحذير فيخبرك أن الخطر موجود بالفعل، وأنك لا تعرف من أين سيأتي.

وضعت الورقة في الدرج إلى جانب الرسالة الأولى.

لم يعد بإمكاني إقناع نفسي بأن الأمر مجرد فساد إداري أو سرقة جثث. كان هناك شخص يعرف أن إلياس حي، ويعرف أنني أبحث عنه، ويخشى أن يتكلم.

جلست إلى مكتبي، وفتحت دفتر جوزيف القديم.

لم أكن أبحث عن إجابة بعينها. أردت فقط أن أرى خطه، أن أستعيد شيئًا من العالم الذي عرفته قبل أن تصبح كل ذكرى بابًا إلى سر جديد.

وقعت عيني على ملاحظة قصيرة كتبها في هامش إحدى الصفحات:

«حين يخاف الناس من الحقيقة، لا يدفنونها دائمًا. أحيانًا يدفنون الشاهد، ثم يتركون الحقيقة تمشي بيننا بلا اسم».

بقيت أحدق في العبارة.

لم أتذكر متى كتبها، ولا إن كانت تتعلق بحدث عرفه أم بمجرد فكرة خطرت له. لكنني تذكرت تحذيره من الاقتراب من المقابر، وتذكرت كيف مات بعد اتهامه بمحاولة تسميم ولي العهد، وتذكرت أن جهة تابعة للقصر طلبت معاينة قبره ثم اختفى أثر الزيارة.

أغلقت الدفتر ببطء.

في الصباح، سأعود إلى المستشفى. سأواجه اللجنة، وأحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه من إرث كاسيان.

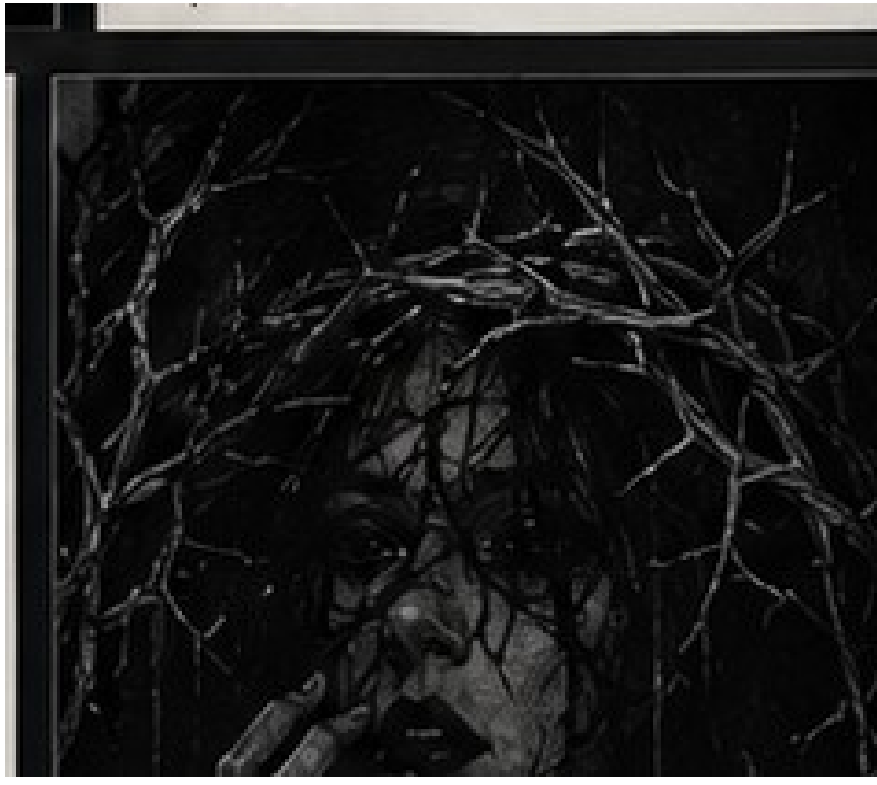
لكن قبل ذلك، كان عليّ أن أجد إلياس.

ليس لأنه يملك الإجابة عن اختفاء الجثث فحسب، بل لأنه صار الشخص الوحيد الذي يثبت أن ما يُكتب في سجلات القصر ليس بالضرورة ما حدث في العالم الحقيقي.

وللمرة الأولى، لم أعد أبحث عن ميت.

كنت أبحث عن رجل حيّ، يحاول الجميع إقناعي بأنه مات.

وهذا يعني أن أحدهم يخشى ما يستطيع قوله أكثر مما يخشى ما فعلته أنا.



ليس كلُّ ما ينكسر يُصدر صوتًا.

الفصل السابع والعشرون

الجمال الذي أردتُ إفساده

لم أنم جيدًا، لكنني لم أعد أريد النوم كي أهرب من أحلامي.

كان هناك ما يشغلني أكثر من الأصوات التي اعتدت انتظارها عند انطفاء الأنوار: إلياس، والوثيقة التي أعلنت موته، والرسالة التي حذرتني من الشخص الذي قد يقتله إن ظهر مجددًا.

مع ذلك، لم تكن هذه الأشياء أول ما فكرت فيه عندما فتحت عيني.

كان داميان.

تذكرت يده حول يدي، وقبلة جبينه التي تركها على رأسي، والطريقة التي نظر بها إليّ في المكتبة، كأنه يحاول أن يفهم امرأة لا تعرف كيف تشرح نفسها.

أزعجني أنني تذكرت التفاصيل بهذه الدقة. وأزعجني أكثر أنني أردت رؤيته.

نهضت وارتديت ثيابي، ثم مررت أمام المرآة. بدوت شاحبة، بعينين لم تعدا تعرفان الراحة، لكنني أصلحت شعري ووضعت قليلًا من اللون على شفتيّ. لم أفعل ذلك من أجل نفسي وحدها.

كنت أريد أن يراني داميان جميلة.

كانت تلك رغبة عادية، لولا أن شيئًا آخر تسلل إليها.

تخيلت يده بين يديّ، ثم تخيلت اليد نفسها منفصلة عن جسده، ساكنة، لا تستطيع الإفلات مني. لم تكن الصورة واضحة، ولم أرَ فيها ما يكفي لأشعر بالنفور؛ كان أكثر ما أخافني هو الهدوء الذي رافقها.

أغمضت عيني بقوة.

حين فتحتهما، كان انعكاسي لا يزال أمامي، ولم يتغير شيء في الغرفة.

قلت لنفسي إن الخيال ليس فعلًا، وإن الفكرة التي تمر بالعقل لا تعني أنني سأمنحها يومًا جسدًا في العالم الحقيقي.

لكنني لم أستطع إنكار أنني لم أكن أريد طردها بالسرعة التي ينبغي.

وجدت داميان في القصر، في غرفة صغيرة تطل على الساحة الداخلية. كان قد ألغى بعض مواعيده، بحسب ما أخبرني، ليخصص وقتًا لمراجعة الوثائق المتعلقة بدائرة النقل الملكية.

رفع رأسه حين دخلت.

— تبدين مختلفة اليوم.

توقفت عند الباب.

— هل هذه طريقة مهذبة لتقول إنني أبدو متعبة؟

ابتسم.

— بل طريقة غير موفقة لأقول إنني سعيد لأنك جئتِ.

لم أعرف ماذا أفعل بهذه الصراحة. كان أسهل عليّ أن أواجه رجلًا يهددني من أن أواجه رجلًا يجعلني أشعر بأن وجودي مرغوب فيه.

اقتربت من الطاولة، فرأيت الملفات المفتوحة أمامه.

— هل وجدت شيئًا؟

— هناك سجلان متعارضان بشأن إلياس. أحدهما يثبت أنه مات، والآخر يشير إلى أنه غادر عمله بعد خلاف مع مسؤول في دائرة النقل لا يوجد تقرير دفن، ولا شهادة وفاة أصلية.

— إذن لم يثبتوا موته. كتبوه فقط.

— نعم. وهذا فرق مهم.

أخرج ورقة ووضعها أمامي. كانت تحمل اسم موظف أشرف على تعديل السجل، وتحته تاريخ نقله إلى منصب آخر في القصر.

— أريد أن أعرف من أصدر أمر التعديل، قال داميان. لكنني لا أريد أن أثير انتباه الشخص الخطأ قبل أن نعرف حجم ما يجري.

— وهل لديك شخص تشك فيه؟

— لدي أسماء، لا أدلة.

مررت عيني على الورقة، ثم أعدتها إليه.

— أريد أن أرى إلياس قبل أن يصل إليه أحد.

— سنبحث عنه معًا، لكن ليس بطريقة تجعلك هدفًا سهلًا.

كدت أعترض على كلمة «معًا»، ثم تراجعت. لم أعد أريد أن أواجه كل شيء وحدي لمجرد إثبات أنني قادرة على ذلك.

قال داميان:

— لديّ اجتماع بعد ساعة. هل تنتظرينني لنتناول الغداء؟

كان السؤال بسيطًا، لكنني شعرت بفرح صغير، حقيقي، لا علاقة له بالأسرار أو التحقيقات.

— إذا وعدتني بألا تتحدث عن المستشفى طوال الوقت.

— سأحاول.

— هذه ليست إجابة مطمئنة.

ضحك، وكانت ضحكته أقل تحفظًا مما اعتدت. للحظة، رأيت الرجل الذي قد يكون عليه لو لم يكن وليًا للعهد، ولو لم يتعلم أن يخفي كل ما يمكن أن يستخدمه الآخرون ضده.

أردت الاقتراب منه أكثر.

وحين وضع يده على كتفي، استسلمت للمسة بدلًا من التراجع.

لكن عيناي علقتا بخاتمه الداكن. لمع الحجر الصغير في الضوء، وفجأة تخيلت أصابعه ملطخة بالدم، ويده ساكنة داخل علبة زجاجية فوق مكتبي، شيئًا احتفظت به لا لشيء إلا لأنه كان جزءًا منه.

تجمدت.

— روران؟

رفعت رأسي. كان يراقبني بقلق.

— ماذا حدث؟

—لا شيء. تذكرت أمرًا.

لم يصدقني تمامًا، لكنه لم يضغط عليّ. مرر يده على شعري برفق، ثم قال:

— حين تصبحين مستعدة لإخباري، سأستمع.

كدت أتشبث به عندها. لم أكن أعرف كيف يمكن لرجل أن يكون حنونًا إلى هذا الحد، وكيف يمكن لعقلي أن يضع صورًا مروعة فوق هذه الحنان، كأنهما شيئان لا يتعارضان.

كان داميان يلمس وجهي.

أما خيالي، فكان يحاول أن يتخيل كيف سيبدو هذا الوجه إذا حمل أثرًا لا يمكن غسله.

في المستشفى، كانت الأمور أسوأ مما تركتها.

أُوقف موظفان عن العمل مؤقتًا، وأُغلقت غرفة الأرشيف بقرار من لجنة التحقيق، فيما بدأ المرضى يطلبون نقل ملفاتهم إلى مستشفيات أخرى. لم يكن بوسعي إلقاء اللوم عليهم. فقد ورثت مؤسسة قوية، ثم تركتها تتآكل بينما كنت أطارد أسرارًا لا أعرف إن كنت أريد كشفها أم أريد أن أضيع داخلها.

وجدت سيلفان في الممر يتحدث إلى إحدى الممرضات. انتظر حتى ابتعدت، ثم ناولني قائمة بالنواقص العاجلة.

— إذا لم تصل الإمدادات قبل نهاية الأسبوع، فسنضطر إلى إيقاف بعض الخدمات غير الطارئة.

— سأراجع الحسابات اليوم.

— راجعيها، لكن لا تحاولي حل كل شيء وحدك. طلبت من طبيبين سابقين العودة مؤقتًا، ووافق أحدهما.

نظرت إليه باستغراب.

— ظننت أنك فقدت الأمل.

— فقدت الثقة ببعض قراراتك، لا بالمستشفى نفسه.

أخذت القائمة.

لم يكن ذلك غفرانًا، لكنه كان بابًا صغيرًا أستطيع أن أعمل من خلاله. للمرة الأولى منذ أسابيع، أمضيت ساعات في متابعة الحسابات، والاتصال بالموردين، ومراجعة أسماء المرضى الذين تأخر علاجهم. لم أفكر في المقابر طوال الوقت، ولم أبحث عن مخرج من مكتبي.

وحين انتهيت، كان الليل قد اقترب.

شعرت بإرهاق حقيقي، من النوع الذي يأتي بعد إنجاز شيء، لا بعد قضاء يوم كامل في الهرب من النفس.

ثم رأيت انعكاسي في زجاج النافذة.

تذكرت داميان مرة أخرى.

هذه المرة لم أقاوم الصورة التي ظهرت في ذهني. رأيته أمامي، جميلًا على نحو يكاد يكون مستفزًا؛ شعره الأسود، ملامحه الحادة،

ونظرته التي تجعلني أشعر بأنه يستطيع قراءة ما أخفيه. تخيلت للحظة أن عينيه الداكنتين محفوظتان داخل علبة زجاجية فوق مكتبي، تحدقان بي بلا حكم، وأنني أستطيع الاحتفاظ بنظرته إلى الأبد.

لم يكن في الخيال صراخ أو فوضى.

كان هناك هدوء بارد، وهذا ما جعلني أبتعد عن النافذة.

لم أرد أن أؤذيه. لم أتخذ قرارًا، ولم أخطط لفعل شيء. لكنني أدركت أن عقلي بدأ يربط أكثر الأشياء التي أرغب فيها بأكثر الصور التي ينبغي أن تنفّرني.

لم يعد الموت بالنسبة إليّ حكاية أهرب منها، ولا لغزًا أحاول حله.

كان يتسلل إلى الطريقة التي أرى بها الجمال نفسه.

جاء داميان إلى المستشفى بعد الغروب.

وجدني في المكتب، محاطة بالملفات، وقد خلعت حذائي وألقيت رأسي إلى الخلف على المقعد. نظر إلى الأوراق، ثم إليّ.

— هل هذا يعني أنك أنقذتِ المستشفى؟

— يعني أنني منعت كارثة صغيرة اليوم. أما المستشفى، فما زال يحتاج إلى معجزة.

اقترب وقرأ أول صفحة أمامه.

— هذه المرة، تبدو الأرقام أقل رعبًا.

— لأنها أرقام، لا أشخاصًا يقررون إخفاء موتى من السجلات.

رفع عينيه إليّ، ثم أغلق الملف.

— هل تريدين الخروج من هنا؟

نظرت إلى الساعة.

— إلى أين؟

—لا أعرف. مكان لا يطلب منكِ أحد فيه تفسير شيء.

كان ينبغي أن أرفض. لديّ عمل متراكم، وتحقيق يزداد تعقيدًا، ورجل مفقود قد يكون في خطر. لكنني أدركت أنني لم أخرج منذ أيام إلا لألاحق شيئًا أو أهرب من شيء.

وافقت.

أخذني إلى حديقة صغيرة خارج أسوار القصر، لا يرتادها النبلاء كثيرًا. لم يكن فيها حرس قريبون، ولا خدم ينتظرون أوامرنا. جلسنا قرب نافورة قديمة، وتحدثنا عن أشياء لا تخص الموت أو المال أو السياسة.

أخبرني عن طفولته، عن المعلمين الذين كانوا يعاقبونه إذا أخطأ أمام الآخرين، وعن المرات التي اضطر فيها إلى اتخاذ قرار لا يريده لأن الجميع كانوا ينتظرون منه أن يكون وليًا للعهد قبل أن يكون إنسانًا.

لم يكن يتحدث طلبًا للشفقة. كان يروي الوقائع بهدوء، كأنه يختبر للمرة الأولى فكرة أن يقول الحقيقة دون أن يحوّلها إلى نقطة قوة.

سألته:

— وهل تمنيت يومًا أن تترك كل ذلك؟

— كل يوم تقريبًا.

— ولماذا لم تفعل؟

نظر إلى الماء المتحرك في النافورة.

— لأن بعض الأبواب تُغلق خلفك قبل أن تعرف أنك دخلت منها.

فهمت ما يقصده أكثر مما توقعت.

قلت:

— ربما لهذا السبب أتمسك بالمستشفى. أقول لنفسي إنه حلمي، وإنني إذا أنقذته سأثبت أنني أستحق كل ما ورثته. لكنني لم أعد متأكدة إن كنت أريده فعلًا، أم أنني أخشى أن أصبح بلا شيء إذا تركته.

التفت إليّ.

— يمكنكِ أن تحبي شيئًا ثم تكتشفي أنه ليس طريقكِ. هذا لا يجعل ما فعلتِه من أجله كذبة.

بقيت أفكر في عبارته. كان من الغريب أن أسمع منه كلامًا تمنيت لو قاله لي أبي قبل أن يموت، أو لو استطعت قوله لنفسي قبل أن يصبح كل شيء أثقل من قدرتي على حمله.

وضعت رأسي على كتفه.

لم أكن أفعل ذلك لأختبره، ولا لأجبره على إنقاذي. أردت القرب فحسب.

رفع ذراعه حولي، فاستندت إليه أكثر. شعرت بحرارة جسده، وانتظام أنفاسه، وثقل يده فوق كتفي. لوهلة، تمنيت أن يتوقف الزمن عند تلك اللحظة، وأن أبقى امرأة تجلس إلى جانب رجل تحبه، لا امرأة تحمل داخلها عالمًا لا تريد لأحد أن يراه.

ثم تسللت الصورة مجددًا.

يده، منفصلة في خيالي، ساكنة في علبة زجاجية. لم يكن المشهد رغبة واضحة بقدر ما كان محاولة مشوهة للاحتفاظ به، كأنني لا أثق بأن شيئًا جميلًا يمكن أن يبقى إن لم أمتلكه بالكامل.

رفعت رأسي بسرعة.

لاحظ داميان اضطرابي.

— هل فعلت شيئًا أزعجك؟

هززت رأسي.

—لا. أنت لم تفعل شيئًا.

— إذن ما الذي أخافك؟

نظرت إليه، وكدت أخبره.

كدت أقول إنني أخاف من الطريقة التي أفكر بها فيه، وإن جزءًا مني يريد الاقتراب منه بينما جزء آخر يحوّله إلى صورة جامدة لا تستطيع الرحيل. لكن الكلمات توقفت عند حلقي.

قلت بدلًا من ذلك:

— أخاف أن أفسد الأشياء التي أحبها.

لم يسألني عن معنى ذلك. اكتفى بأن أمسك يدي.

—لا تحكمي على نفسكِ من أسوأ فكرة تمر بكِ. لكن لا تخفي عن نفسكِ ما تخافين منه أيضًا.

كانت تلك أول مرة أشعر فيها بأن قربه لا يخفف خوفي فحسب؛ بل يجبرني على رؤيته.

قبّلني، فاستجبت له. كانت قبلتنا أطول من السابقة، وفيها شيء من الشوق الذي حاول كل منا إخفاءه. حين ابتعدنا، بقيت جبهتي قريبة من جبهته.

قال بصوت منخفض:

— أريد أن أراكِ مرة أخرى غدًا.

ابتسمت.

— ستجدني في المستشفى. يبدو أنني عدت إلى عملي.

— لم أسألك عن المستشفى.

لم أستطع منع ابتسامتي هذه المرة.

كان ينبغي أن أشعر بالطمأنينة. وقد شعرت بها فعلًا، لكن تحتها كان هناك شيء آخر ينمو، شيء لا يشبه الحب الذي تخيلته في طفولتي.

كنت أريد أن يختارني داميان كل يوم، وأن يعود إليّ مهما ابتعد. كنت أريد أن أعرف كل أسراره، وأن أكون الشخص الذي لا يستطيع إخفاء ضعفه عنه. وكلما ازداد تعلقي به، ازداد خوفي من فقدانه.

وعقلي، بدلًا من أن يكتفي بالخوف، بدأ يبحث عن صورة مستحيلة تضمن لي ألا يرحل أبدًا.

صورة لا يستطيع فيها الجسد أن يغادر، ولا يستطيع صاحبه أن يختار شخصًا آخر، ولا يبقى من الحب إلا شيء أحتفظ به وحدي.

كرهت تلك الصورة.

لكنني لم أستطع الادعاء بأنها لم تمنحني، لثانية واحدة، شعورًا مخيفًا بالسيطرة.

عندما عدت إلى غرفتي، وجدت رسالة من سيلفان تفيد بأن أحد موظفي الأرشيف تذكر رؤية إلياس قبل اختفائه بأيام. لم يكن يعرف مكانه، لكنه أكد أن إلياس تشاجر مع رجل يحمل شارة دائرة النقل، وأن الخلاف انتهى بتهديد واضح.

أعدت قراءة الرسالة، ثم اتصلت بالمستشفى وطلبت من سيلفان ألا يواجه الموظف أو يضغط عليه قبل أن تسجل اللجنة شهادته.

للمرة الأولى، لم أندفع إلى مطاردة الخيط بنفسي.

وضعت الهاتف جانبًا، وجلست إلى مكتبي. كانت هناك علبة زجاجية صغيرة أحتفظ فيها بأشياء قديمة لا قيمة لها لغيري؛ زرّ من معطف جوزيف، ومفتاح صدئ، وقطعة ورق كتبت عليها ماريان وصفة قديمة.

نظرت إليها طويلًا.

تخيلت، من دون أن أريد، عيني داميان داخل علبة مشابهة، ساكنتين، منفصلتين عن وجهه، لكنهما تحتفظان بذلك اللون الداكن الذي كنت أبحث عنه كلما نظر إليّ.

أغلقت العلبة بيدي المرتجفة.

لم يكن ما شعرت به حبًا خالصًا، ولم يكن مجرد فضول عن الموت. كان خليطًا قبيحًا من التعلق والخوف والرغبة في الامتلاك، وقد بدأ يتخذ صورًا لم أكن أعرف كيف أواجهها.

أخرجت دفترًا وكتبت:

«أريده قريبًا مني، لكنني أخشى أنني لا أعرف كيف أحب شيئًا دون أن أحاول امتلاكه.»

توقفت، ثم أضفت:

«أنا لا أريد أن أؤذيه. لكنني أخاف من الجزء الذي يتخيل ذلك، ثم يسألني لماذا لا أستطيع الاحتفاظ به إلى الأبد.»

أغلقت الدفتر.

لم أكن قد تحولت إلى وحش في ليلة واحدة، ولم يكن الخيال حكمًا نهائيًا على ما سأفعله. لكنني لم أعد أستطيع اعتبار ما يحدث في داخلي أمرًا عابرًا يمكنني تجاهله حتى يختفي.

في مكان آخر من المدينة، كان إلياس حيًا أو ميتًا على الورق، وكان هناك شخص يراقب السجلات ويقرر من يستحق أن يبقى له اسم.

أما أنا، فكنت أتعلم طريقة أخرى لمحو الحدود بين الأشياء.

بين الحب والامتلاك.

بين الجمال والرغبة في إفساده.

وبين أن أخشى فقدان إنسان، وأن أتخيل الاحتفاظ به بطريقة لا تترك له فرصة للرحيل.

لم أكن أعرف إلى أي حد ستأخذني هذه الأفكار.

لكنني عرفت أنني لن أستطيع العودة إلى المرأة التي كنتها بمجرد أن أقرر أنني أريد ذلك.

الفصل الثامن والعشرون

الجملة التي لم يكن ينبغي أن يقولها

لم أعد أثق بالرسائل المجهولة، لكنني تعلمت أن أفحص ما تتركه خلفها: ختمًا باهتًا، رقمًا ناقصًا، أو اسمًا شُطب بعناية أكبر مما ينبغي.

كان ذلك أول ما فكرت فيه حين وجدت الظرف تحت باب غرفتي، في الصباح التالي.

لم يحمل ختمًا هذه المرة، ولا اسمًا، ولا تهديدًا مبطنًا. ورقة صغيرة كُتب عليها بخط متعجل:

«الرجل الذي تتحدثون عنه لم يكن مسؤولًا عن نقل الجثث، بل كان يراقب من يمنح أوامر النقل. إذا أردتِ معرفة ما حدث، ابحثي عن سجل الرحلات الليلية في مستودع القصر القديم لا تذهبي وحدك.»

قرأت الجملة مرتين.

ثم ثلاثًا.

لم يكن اسم إلياس وحده ما يشغلني الآن. كان هناك شخص ما يعرف أنني أبحث عنه، ويعرف إلى أين ينبغي أن أتجه، وربما يعرف أيضًا أنني لم أعد قادرة على التمييز بين من يحاول مساعدتي ومن يقودني إلى فخ.

وضعت الورقة في درج مكتبي، بجانب رسالة سيلفان القديمة، ثم ارتديت ملابسي ونزلت.

كان المستشفى ينتظرني بوجهه المتعب؛ ممرات باردة، موظفون يتحدثون بصوت منخفض، ومرضى صاروا ينظرون إليّ كما لو أنني وريثة اسم عظيم لا وريثة مكان يوشك أن ينهار.

قضيت الساعات الأولى في مراجعة الحسابات، ثم اجتمعت بسيلفان لمناقشة النقص في الأدوية. لم يكن كل شيء قابلًا للإصلاح، لكنني للمرة الأولى منذ أسابيع لم أسمح للحقيقة التي أبحث عنها أن تبتلع الحقيقة التي تقف أمامي.

قال سيلفان وهو يغلق أحد السجلات:

— بدأتِ تستعيدين السيطرة على المستشفى.

— أم أنني فقط تعلمت كيف أخفي الفوضى؟

نظر إليّ طويلًا.

— أحيانًا يكون الفرق بين الأمرين هو ما نفعل بعد أن نكتشف الفوضى.

لم أجب. كان في كلامه شيء يشبه نصيحة جوزيف، وذلك جعله مؤلمًا على نحو لم أتوقعه.

قبل الظهر بقليل، وصلني رد على الرسالة التي أرسلتها إلى عنوان قديم أعطاني إياه نادر. كان الرجل الذي أبحث عنه موظفًا سابقًا في أرشيف النقل الملكي، واسمه توماس ريد. لم يكن اسمه ظاهرًا في أي من الملفات التي حصلت عليها، لكن نادر تذكر أنه عمل مع المسؤول الذي راجع سجلات المقابر قبل اختفاء إلياس.

وافقت على مقابلته في مكتب صغير قرب السوق القديم.

لم أخبر داميان.

أقنعت نفسي أنني لا أخفي عنه شيئًا مهمًا، وأنني أحتاج فقط إلى سماع ما لدى الرجل قبل أن تتدخل السلطة الملكية في كل تفصيل. لكن الحقيقة كانت أقل نبلاً: كنت أريد شيئًا واحدًا يخصني، شيئًا لا تمر كل تفاصيله عبر يدي داميان.

حين وصلت، وجدته ينتظر قرب النافذة. كان في أواخر الأربعينيات، نحيلًا، تتنقل عيناه بين الباب والشارع كأنهما اعتادتا توقع الخطر.

نهض عندما رآني.

— الآنسة روران؟

— نعم. أنت توماس؟

أومأ، ثم أشار إلى المقعد المقابل.

لم يجلس قبل أن أتأكد من إغلاق الباب.

—لا أملك وقتًا طويلًا، قال. وإذا عرفوا أنني تحدثت إليك، فلن يكون الأمر مجرد فقدان وظيفة هذه المرة.

— من هم؟

تردد.

— الأشخاص الذين يملكون حق جعل الاسم يختفي من السجلات.

شعرت ببرودة تتسلل إلى أطراف أصابعي.

أخرجت صورة النسخة الممزقة التي وجدتها خلف الحانة، ووضعتها أمامه. قرأ الاسم والتاريخ، ثم أغمض عينيه لحظة.

— إلياس مراد، قال بصوت خافت. ظننت أنهم تخلصوا منه منذ زمن.

— رأيته بعد التاريخ المكتوب هنا. كان حيًا.

— أعرف.

رفعت رأسي نحوه.

— كيف تعرف؟

أخرج من جيبه ورقة مطوية بعناية، ووضعها على الطاولة. كانت نسخة قديمة من سجل حركة عربات النقل، تحمل تاريخًا يعود إلى الليلة التي اختفى فيها إلياس من السجلات الرسمية.

لم تكن هناك أسماء كاملة، بل أرقام للعربات، ووجهات مختصرة، وتوقيع مسؤول المناوبة. لكن سطرًا واحدًا كان مختلفًا؛ شُطب اسم الوجهة، ثم أُعيدت كتابته بحبر آخر.

وتحت السطر ظهرت عبارة قصيرة:

«نقل خاص — بأمر من المكتب الأعلى.»

— ما معنى المكتب الأعلى؟ سألت.

— لم يكن هذا اسم مكتب رسمي. كانوا يستخدمونه حين تأتي الأوامر من جهة لا يُسمح لنا بذكرها.

— هل كان الأمر متعلقًا بجثث المقابر؟

مرر إبهامه على حافة الورقة.

— في تلك الليلة نُقلت ثلاث عربات. اثنتان إلى المستودع الطبي، والثالثة لم تُسجل وجهتها. في الصباح، وصلنا أمر بإلغاء الرحلة الثالثة من النسخة النهائية، وكأنها لم تحدث أصلًا.

— ومن أصدر الأمر؟

نظر إليّ، وكان الخوف في عينيه أشد من أي إجابة.

— المسؤول عن النقل قال إنه ينفذ تعليمات القصر. لكنني رأيته بنفسي يسلّم الملف إلى رجل يرتدي خاتمًا يحمل شعار العائلة الملكية.

شعرت بأن الغرفة ضاقت حولي.

— هل تستطيع وصفه؟

—لا أريد أن أتهم شخصًا لا أملك دليلًا عليه.

— لم أطلب منك اتهام أحد. أريد أن أعرف من الذي رأيته.

هز رأسه بعناد مرتجف.

—لا. ليس هنا.

ثم نهض فجأة، كأنه سمع صوتًا في الخارج.

— هناك شيء آخر يجب أن تعرفيه. اسم والدك ظهر في سجل منفصل، قبل موته بأيام. لم يكن سجل وفاة، بل طلبًا لمراجعة ممتلكات المستشفى ونقل بعض صلاحياته إلى جهة أخرى.

تجمدت.

— من طلب ذلك؟

—لا أعرف. الصفحة اختفت، لكنني احتفظت بنسخة من رقم المعاملة. إذا وجدنا الأصل، سنعرف من وقّعها.

— وأين الأصل؟

اقترب مني وخفض صوته.

— في مستودع القصر القديم. المكان نفسه الذي ورد في الرسالة التي وصلتك.

لم أتحرك.

للحظة، شعرت أن كل الطرق التي سلكتها خلال الأسابيع الماضية كانت تلتف حول النقطة نفسها، وأنني لم أكن أقترب من الحقيقة بقدر ما كانت الحقيقة تسمح لي بالاقتراب منها.

مد توماس الورقة نحوي.

— خذيها. ولا تعودي إلى هنا. سأحاول العثور على نسخة المعاملة، لكن لا أعدك بشيء.

أخذتها، ثم سألته:

— لماذا تساعدني؟

ابتسم ابتسامة باهتة لا تشبه الفرح.

— لأنني رأيت اسم رجل يُمحى من سجل، ثم رأيت الجميع يتصرفون كأنه لم يوجد قط. ولأنني عرفت والدك قبل أن يصبح اسمه عبئًا على الآخرين.

لم يقل شيئًا آخر.

وحين خرجت من المكتب، كان لدي دليل جديد، لكنني لم أشعر بالانتصار. شعرت فقط بأنني أحمل شيئًا أثقل من قدرتي على فهمه.

كان داميان ينتظرني في المستشفى.

عرفت ذلك قبل أن أراه؛ من الطريقة التي توقف بها الموظفون عن الكلام حين مررت، ومن نظرات ماريان القلقة عند مدخل الجناح الإداري.

كان واقفًا أمام نافذتي، بملابسه الداكنة المعتادة، ويداه خلف ظهره. بدا هادئًا إلى درجة جعلتني أتمنى لو كان غاضبًا.

التفت إليّ حين دخلت.

— أين كنتِ؟

خلعت قفازي ببطء.

— خارج المستشفى.

— أعرف ذلك.

كانت نبرته منخفضة، لكنها لم تترك مساحة كبيرة للمراوغة.

— إذًا لماذا تسأل؟

تقدم خطوة.

— لأنني أرسلت إليك مرتين، ولم تجيبي. ولأن حارس القصر أخبرني أنك قابلت رجلًا لا أعرفه في مكان لا ينبغي أن تذهبي إليه وحدك.

شعرت بانقباض في صدري. لم يكن خوفي من غضبه وحده، بل من السرعة التي وصلت بها أخبار تحركاتي إليه.

— هل صرت أحتاج إلى إذن كي أقابل أحدًا؟

تغير شيء في عينيه.

—لا تختبري صبري يا روران.

لم أكن معتادة أن أسمعه يخاطبني بهذه الطريقة. كان داميان يملك سلطة تجعل الآخرين يخفضون رؤوسهم قبل أن يرفع صوته، لكنه لم يستخدمها معي بهذه الصراحة من قبل.

— لم أكن في خطر، قلت.

— أنتِ لا تعرفين ذلك.

— وأنت لا تعرف كل ما أفعله.

ساد صمت ثقيل.

اقترب حتى صار بيننا أقل من خطوة، ثم قال:

— هذا بالضبط ما يخيفني.

كان في الجملة شيء صادق، شيء لم أستطع رده بسهولة. لكن الصدق لا يجعل السيطرة أقل خطورة.

— أنا أبحث عن إلياس. وأنت تعرف أن هناك من يزوّر السجلات، وأن شخصًا ما يتلاعب بموتى لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم لا يمكنني الانتظار حتى تسمح لي السلطة التي أحقق معها بالتحرك.

تصلب فكه عند سماعي كلمة «السلطة».

— ومن كان الرجل الذي قابلته؟

— موظف سابق في الأرشيف.

— رجل؟

حدقت فيه.

لم تكن الكلمة سؤالًا عاديًا. خرجت منه ببرود حاد، كأنه لم يسمع شيئًا مما قلته سوى حقيقة أنني كنت مع رجل آخر بعيدًا عنه.

— نعم، رجل. هل هذه هي المشكلة؟

اقترب أكثر، ثم توقف فجأة، كما لو أنه أدرك أنه يقترب من حد لا يحق له تجاوزه.

— هل تثقين به أكثر مما تثقين بي؟

كان السؤال أسوأ من غضبه.

لأنني لم أملك إجابة بسيطة.

كنت أثق بيده حين امتدت إليّ، بصوته حين هدأ خوفي، وبالطريقة التي جعلني بها أصدق أنني لست مضطرة إلى حمل العالم وحدي. لكنني لم أكن أعرف ما إذا كانت ثقتي به قائمة على ما أعرفه عنه، أم على ما أحتاج إلى تصديقه.

— أنا لا أقارن بينكما، قلت أخيرًا. أنا أحاول الوصول إلى الحقيقة.

ابتسم بلا مرح.

— وهل ستسمحين لذلك الرجل بأن يأخذك إليها؟

— لن يأخذني أحد إلى أي مكان. أنا أذهب بنفسي.

نظر إليّ طويلًا، ثم خفض عينيه إلى يدي التي كنت أقبض فيها على الورقة داخل جيبي.

— ماذا أعطاك؟

لم أجب.

مد يده نحوي، لكنه توقف قبل أن يلمسني.

— رووران، أرجوك لا تجبريني على أن أكتشف أنك تخفين عني شيئًا بهذه الطريقة.

كان في صوته ألم حقيقي، لكن خلف الألم شيء آخر؛ ذلك الجانب الذي لا يطلب، بل ينتظر أن يطيعه الآخرون.

أخرجت الورقة، لا لأنني استسلمت، بل لأنني أردت أن أرى كيف سيتصرف حين يعرف جزءًا مما أعرفه.

قرأها بصمت. وعندما وصل إلى عبارة «المكتب الأعلى»، انقبضت أصابعه على الحافة حتى تجعد الورق.

كانت حركة صغيرة، لكنها لم تفلت مني.

— هل تعرف هذا التعبير؟ سألت.

رفع عينيه إليّ.

— إنه تعبير قديم في سجلات القصر.

— ومن الذي يملك حق إصدار تلك الأوامر؟

أعاد الورقة إليّ.

—لا يمكن استنتاج ذلك من سطر واحد.

كان جوابه معقولًا، وربما كان هذا ما جعله يثير قلقي أكثر. لم يبدُ متفاجئًا بما يكفي، ولم يسألني عن تفاصيل اللقاء، ولم يحاول معرفة كيف وصلت الورقة إلى يدي. بدا كمن يعرف مقدار الخطر، ويعرف أيضًا كم ينبغي أن يقول لي منه.

— سأساعدك في الوصول إلى المستودع، قال. لكنك لن تذهبي وحدك.

—لا أريد حراسة.

— وأنا لا أطلب منك رأيك في هذا.

ارتفع رأسي نحوه.

— إذًا أنت تأمرني؟

بقي صامتًا لحظة، ثم أغمض عينيه كأنه يحاول السيطرة على شيء انفلت داخله.

—لا. أنا أحاول ألّا أفقدك.

خرجت الجملة منه مختلفة عن كل ما سبقها. لم تكن أمرًا ولا تهديدًا، بل اعترافًا صغيرًا بشيء بدا أكبر من قدرته على إخفائه.

وللحظة، نسيت الورقة، والأرشيف، وكل الأسماء التي حاولت أن أفهمها.

رأيت الرجل الذي جلس معي في الحديقة، الذي سألني إن كنت أريد أن أبتعد قبل أن يقترب، والذي جعلني أعتقد أن بإمكاني أن أكون ضعيفة أمامه من دون أن أُعاقب على ذلك.

ثم تذكرت كيف نظر إلى الورقة، وكيف تغيرت أصابعه عند قراءة العبارة.

لم أعد أعرف أي الوجهين كان حقيقيًا، أو إن كان كلاهما حقيقيًا.

في المساء، وجدت نفسي في الجناح القديم من القصر، حيث طلب داميان أن نلتقي قبل الذهاب إلى مستودع الأرشيف في اليوم التالي.

كانت الغرف شبه خالية، والنوافذ العالية تعكس أضواء الممرات على الأرضية المصقولة. وقف داميان قرب المدفأة، وقد خلع سترته الرسمية، وبدا أقل شبهًا بوليّ العهد وأكثر شبهًا بالرجل الذي بدأت أسمح له بالاقتراب مني.

قال حين رآني:

— ظننت أنك لن تأتي.

— كنت أفكر إن كان من الحكمة أن آتي.

— وماذا قررتِ؟

— أنني لا أريد أن أترك الخوف يقرر بدلًا مني.

ابتسم ابتسامة خفيفة.

— هذا يشبهك.

لم أعرف إن كانت العبارة مديحًا أم أنه بدأ يعتقد أنه يعرفني أكثر مما ينبغي.

اقتربت منه، ووضعت الورقة فوق الطاولة بيننا.

— غدًا سنذهب إلى المستودع. أريد أن أرى سجل المعاملة بنفسي.

— سنذهب.

— وأريد أن أعرف كل ما تستطيع معرفته عن الرجل الذي سلّم الملف إلى صاحب الخاتم الملكي.

تبدلت ملامحه للحظة.

— سأحاول.

— داميان، أنا لا أريد حماية تمنعني من رؤية الحقيقة.

نظر إليّ كما لو أنني قلت شيئًا آلمه.

— وأنتِ لا تفهمين أن الحقيقة قد تأخذ منك كل شيء.

— لقد أخذت مني الكثير بالفعل.

لم أكن أقصد أن أجرحه، لكنني رأيت أثر كلماتي في عينيه. خفت أن يبتعد، وخفت أكثر من أن أكون قد احتجت إلى رؤيته يتألم كي أطمئن إلى أنني ما زلت أؤثر فيه.

كان ذلك شعورًا قبيحًا، ولم أستطع إنكاره.

مد يده وأمسك بأصابعي. لم يشد عليها، لكنه لم يتركها أيضًا.

— انظري إليّ، قال.

فعلت.

— مهما اكتشفتِ غدًا، لا تسمحي لهم بأن يجعلوك تعتقدين أنك وحدك.

— ومن قال إنني لست وحدي؟

اقترب خطوة.

— أنا هنا.

كانت أبسط إجابة ممكنة، لكنها أصابت المكان الذي حاولت طوال الوقت أن أحميه من العالم.

رفعت يدي إلى وجهه، ولمست طرف فكه. رأيت في عينيه ذلك الهدوء الذي لم يكن يظهره أمام الآخرين، وشعرت برغبة مفاجئة في الاحتفاظ بهذه اللحظة كما هي؛ بلا أسئلة، ولا سجلات، ولا أسماء محذوفة.

لكنني لم أعد أستطيع فصل الحب عن الخوف من فقدانه. كنت أراقب تعابيره كما أراقب دليلًا قد يختفي، وأبحث في صمته عن معنى خفي حتى حين لا يكون هناك ما يبرر الشك.

قال بصوت خافت:

— أحيانًا أتمنى لو أن العالم لم يضع بيننا كل هذه الأشياء.

— أي أشياء؟

لم يجب مباشرة. رفع يده إلى وجهي، وأزاح خصلة من شعري خلف أذني، ثم استقر نظره على شفتيّ.

— كل ما يجعل الاقتراب منك صعبًا.

لم أبتعد.

اقترب أكثر، وتوقفت أنفاسه للحظة قرب وجهي. كان بإمكاني أن أرى التردد في عينيه، وأن أشعر بأن المسافة بيننا لم تعد سوى قرار صغير.

ثم مال نحوي ليقبلني.

لكن قبل أن تلامس شفتاه شفتيّ، تغيّر وجهه. كأن فكرة قديمة اخترقت اللحظة، فكرة حاول طويلًا أن يبقيها مدفونة.

همس، بصوت لم أسمعه منه من قبل:

— ليتك لم تكوني من تلك العائلة.

توقف العالم.

لم تكن الجملة عالية، ولم ينطقها بغضب. قالها بألم خالص، بألم رجل يتمنى لو أن حقيقة واحدة في حياته كانت مختلفة، ثم أدرك متأخرًا أنه كشف أكثر مما أراد.

ابتعدت عنه ببطء.

بقيت يده مرفوعة قرب وجهي، قبل أن يسقطها إلى جانبه.

— ماذا قلت؟

لم يجب.

حدقت فيه، وأنا أحاول أن أجد تفسيرًا لا يهدم كل ما بنيته في داخلي. ربما كان يقصد ثقل اسم كاسيان. ربما كان يتحدث عن المستشفى، أو عن العائلة التي جعلت حياتي ساحة لصراع لا أفهمه.

لكنني تذكرت سجل ممتلكات أبي، والملف الذي اختفى، والخاتم الملكي، والعبارة التي لم تبدُ غريبة عليه كما ينبغي.

وتذكرت أيضًا كيف تغيّر وجهه عندما رأى الورقة.

— داميان، قلت ببطء، لماذا تتمنى لو لم أكن من عائلة كاسيان؟

رفع عينيه إليّ.

للمرة الأولى منذ عرفته، لم أجد في نظرته جوابًا، ولا حتى محاولة مقنعة لصنع واحد.

وجدت خوفًا.

ليس خوفه عليّ.

بل خوفه من شيء يعرفه أنا لا أعرفه بعد.

تراجع خطوة، وقال:

— روران، لم أقصد—

— ماذا قصدت إذًا؟

سكت.

كان الصمت بيننا أقسى من أي اعتراف. لم يبدُ كرجل يبحث عن الكلمات المناسبة، بل كرجل يحاول أن يعيد إلى فمه كلمات خرجت من مكان لم يعد قادرًا على السيطرة عليه.

شعرت بشيء ينكسر في داخلي، لا بصوت مسموع، بل بذلك الهدوء المخيف الذي يسبق سقوط شيء كبير.

كنت قد جئت إلى القصر وأنا أظن أنني أستطيع أن أثق به حتى لو لم أفهم كل شيء. أما الآن، فلم أعد أعرف إن كانت الأشياء التي أحببتها فيه حقيقة كاملة، أم أجزاء اختار أن يسمح لي برؤيتها.

ابتعدت عن الطاولة.

— غدًا سأذهب إلى المستودع، قلت. سواء أكنت معي أم لا.

تحرك نحوي، لكنه لم يلمسني.

—لا تذهبي وحدك.

كانت العبارة نفسها التي قالها من قبل، لكنها لم تعد تبدو كحرص خالص. صار فيها شيء يشبه الخوف من أن أصل إلى مكان لا يستطيع التحكم بما سأراه فيه.

نظرت إليه للمرة الأخيرة قبل أن أتجه إلى الباب.

— لم أعد أعرف ممَّ تحاول حمايتي يا داميان.

لم يمنعني من الرحيل.

وحين أغلقت الباب خلفي، أدركت أنني لم أعد أحمل سؤالًا واحدًا عن موت جوزيف أو اختفاء إلياس أو السجلات الملكية.

صار لدي سؤال أخطر.

ماذا لو كان الرجل الذي منحته ثقتي يعرف منذ البداية لماذا كان ينبغي ألّا أولد في هذه العائلة؟

وفي تلك الليلة، لم أكتب اسمه في دفتري بوصفه ملاذًا.

كتبته للمرة الأولى بوصفه احتمالًا.

احتمالًا لم أكن مستعدة لمواجهته، ولم أعد أستطيع تجاهله.

الفصل التاسع والعشرون

الرجل الذي كان يعرف النهاية

لم أنم تلك الليلة.

كلما أغمضت عينيّ، عادت إليّ الجملة نفسها، بصوت داميان الذي لم أعرفه من قبل.

ليتك لم تكوني من تلك العائلة.

لم يقل إنه يكرهني. لم يقل إنه يكره أبي. ولم يتهمني بشيء أستطيع الدفاع عنه.

لقد تمنى فقط لو أنني لم أكن أنا.

وكان ذلك، على نحو لا أستطيع تفسيره، أشد إيلامًا من الكراهية.

عند الفجر، ارتديت معطفي الأسود، وأخفيت نسخة سجل النقل داخل حقيبتي. لم أرسل إلى داميان، ولم أنتظر حراسته، ولم أسمح لماريان بأن ترافقني رغم إلحاحها. كنت بحاجة إلى رؤية المستودع بعينيّ، لا من خلال رواية رجل آخر، مهما أحببته.

حين وصلت إلى القصر القديم، كان الضباب يعلّق أطرافه على النوافذ الحجرية، والبوابة الحديدية تصدر صريرًا طويلًا حين دفعها الحارس.

أبرزت التصريح الذي أرسله المفتش فاريس بعد أن أخبرته بوجود معاملة تخص ممتلكات كاسيان. لم أخبره بكل شيء، لكنه كان كافيًا ليفتح لي باب الأرشيف.

قادني موظف شاب إلى غرفة ضيقة تفوح منها رائحة الورق والرطوبة. كانت الرفوف تمتد حتى السقف، والملفات مصطفة في صناديق تحمل أرقامًا بدل الأسماء.

طلبت سجل الرحلات الليلية، ثم سجل المعاملات المتعلقة بمستشفى كاسيان.

تأخر الموظف قبل أن يعود بالصندوق الثاني.

— هناك صفحات مفقودة، قال وهو يضعه أمامي. حدثت عملية نقل للأرشيف قبل سنوات، ولم تُعَد جميع الملفات إلى أماكنها.

— من أمر بالنقل؟

—لا أعرف. كانت الأوامر مختومة من مكتب ولي العهد.

توقفت يدي فوق الصندوق.

لم يكن ذلك دليلًا على أن داميان أصدر الأوامر بنفسه. كان من الممكن أن تكون تعليمات إدارية عادية، أو أن يكون المكتب قد استُخدم باسمه من دون علمه.

لكنني لم أعد قادرة على التعامل مع الاحتمالات كما لو كانت عزاءً.

فتحت الصندوق.

بعد ساعة من البحث، وجدت ورقة تحمل رقم المعاملة الذي ذكره توماس. كان نصفها ممزقًا، لكن الجزء الباقي احتوى على ثلاثة أسطر واضحة:

«مراجعة صلاحيات مستشفى كاسيان.»

«تجميد نقل الملكية لحين استكمال التحقيق.»

«تُحفظ المراسلات في الملف الخاص، ولا تُضم إلى السجل العام.»

وفي أسفل الصفحة، توقيع مسؤول إداري، وإشارة إلى ملحق مفقود.

لم يكن اسم داميان موجودًا.

لكن ختم المكتب الملكي كان واضحًا.

أخرجت ورقة توماس، وقارنت الرقمين. تطابقا.

لم أعد أبحث عن إشاعة، بل عن ملف أخفاه أحدهم عمدًا.

سمعت خطوات في الممر، فجمعت الأوراق بسرعة. دخل المفتش فاريس، وقد بدا عليه الاستياء حين رآني أمام الصندوق المفتوح.

— كنت أتوقع أن أجدك هنا.

— هل هذا يعني أنك كنت تعرف أن الملف موجود؟

— كنت أعرف أن هناك معاملة غير مكتملة. لم أعرف أين انتهت النسخة الأصلية.

رفعت الورقة أمامه.

— وهل تعرف لماذا أُخفيت؟

أخذها وقرأها، ثم أعادها إليّ.

—لا أستطيع أن أستنتج جريمة من ختم.

— ولا أنا. لهذا أبحث عن بقية الملف.

اقترب من الرفوف، وتفحص الأرقام المدونة على الصناديق.

— استمعي إليّ جيدًا يا آنسة روران. إذا كان هناك من عبث بسجلات نقل الجثث، فلا بد من وجود سجل مقابل يثبت وصولها لا يمكن لعربة أن تختفي من التاريخ إلا إذا ساعدها أكثر من شخص. لكن هذا لا يعني أن كل اسم ظهر على الورق مذنب.

— أعرف.

— هل تعرفين فعلًا؟ أم أنك تبحثين عن شخص تريدين أن يكون مذنبًا؟

لم أجب.

كان سؤاله أقسى مما توقعت، لأنه أصاب موضعًا كنت أحاول تجنبه منذ الليلة الماضية.

لم أكن أريد أن يكون داميان مذنبًا. لم أكن أريد أن يكون بريئًا أيضًا، لأن براءته كانت ستتركني أمام الجملة التي قالها، من دون تفسير.

قال فاريس وهو يغلق الصندوق:

— سأطلب نسخة كاملة من سجل المستودع لا تلمسي شيئًا آخر قبل أن يصل الإذن الرسمي.

— وماذا عن إلياس؟

— إذا كان حيًا، فهو الشاهد الذي يمكنه أن يربط الأوامر بمن أصدرها. لكن عليك أن تفهمي أن شخصًا قادرًا على محو اسمه من السجلات يستطيع الوصول إليه قبلنا.

— إذًا يجب أن نعثر عليه أولًا.

نظر إليّ طويلًا.

— هذه المرة، لن تتحركي وحدك.

لم أعترض. لم يكن لدي وقت لأثبت شجاعتي لشخص آخر.

كان عليّ أن أعرف الحقيقة قبل أن يختفي شاهد آخر.

وجدت ماريان تنتظرني في المنزل، ووجهها شاحب على نحو جعلني أنسى غضبي منها لأنها سألت الخدم عن مكان ذهابي.

كانت تمسك بظرف صغير.

— وصل هذا قبل ساعة. لم يحمل اسمًا، لكن الرجل الذي سلّمه قال إنه يجب أن يصل إليك اليوم.

فتحت الظرف.

في داخله مفتاح نحاسي قديم، وورقة قصيرة:

«إذا أردتِ أن تعرفي لماذا مات جوزيف، ابدئي بما كتبه في آخر دفتر له. ليس بما تركه لك، بل بما مزّقه.»

قرأت العبارة حتى بهتت الكلمات أمام عينيّ.

دفتر جوزيف.

كنت قد احتفظت بدفاتره منذ موته، وقرأت معظمها، لكنني لم أبحث يومًا عن صفحات ممزقة. كنت أخشى أن أجد فيها ما يجعل موته أكثر قسوة، أو أن أكتشف أنه كان يعرف شيئًا ولم يخبرني به.

ذهبت إلى غرفتي، وأخرجت الصندوق الخشبي الذي حفظت فيه أغراضه. مررت أصابعي على أغلفة الدفاتر واحدًا تلو الآخر، حتى وصلت إلى الدفتر الأخير، الذي كانت حوافه متآكلة من كثرة الاستخدام.

تذكرت عبارته عن الناس الذين يدفنون الشهود بدلًا من دفن الحقيقة.

قلبت الصفحات ببطء.

في النهاية، وجدت أثرًا واضحًا لصفحات اقتُلعت من موضعها. لم تكن ممزقة عشوائيًا؛ كانت الحواف مستقيمة، كأن جوزيف أزالها بنفسه.

وضعت المفتاح النحاسي فوق الطاولة، ثم بدأت أفحص غلاف الدفتر. كان أكثر سماكة من بقية الأغلفة، وفي داخله جيب ضيق لم ألحظه من قبل.

لم يكن المفتاح مناسبًا له، لكنني وجدت داخله قصاصة مطوية بعناية، كُتب عليها رقم خزانة.

وتحت الرقم، اسم واحد:

«كاسيان».

جلست على الأرض، والدفتر مفتوح في حجري.

لماذا كان جوزيف يحتفظ برقم خزانة تخص أبي؟ ولماذا لم يخبرني؟

تذكرت السنوات التي عاش فيها جوزيف بعيدًا عن ثروة كاسيان، رافضًا أن يكون تابعًا لعائلة أبي أو أن يقبل أموالها. كنت أظن أن اختياره كان بسيطًا: رجل أحب طفلة فاختار أن يكون أباها، من دون أن يطلب شيئًا.

لم أشك يومًا في محبته.

ولم أعد أشك فيها الآن.

لكنني بدأت أفهم أن الحب لا يمنع الإنسان من إخفاء الأسرار، وأن جوزيف ربما حاول حمايتي من شيء لم أكن مستعدة لمعرفته.

في المساء، اتصل بي سيلفان.

قال إنه حصل على عنوان قديم لموظف كان يعمل في المستشفى قبل وفاة كاسيان، وإن الرجل ترك رسالة لدى أحد المحامين قبل أن يختفي عن الحياة العامة. لم تكن الرسالة موجهة إليّ، لكنها أشارت إلى «ملف الطبيب الذي رفض التوقيع».

لم أفهم المقصود في البداية.

ثم أضاف سيلفان:

— أعتقد أن جوزيف كان يعرف هذا الرجل.

تسارعت دقات قلبي.

— هل تعرف أين يمكننا العثور عليه؟

— المحامي توفي منذ عامين، لكن مكتبه ما زال يحتفظ ببعض الملفات. سأرسل إليك العنوان.

أغلقت الهاتف، ونظرت إلى الدفتر المفتوح أمامي.

لأول مرة، بدأت الخيوط تتصل بعضها ببعض. سجل المستشفى، وسجلات النقل، والصفحات التي مزقها جوزيف، والموظف الذي رفض التوقيع. لم أكن أعرف بعد ماذا تعني جميعها، لكنني صرت أرى شكلًا واحدًا خلفها: شخصًا ما حاول تغيير ما حدث، ثم محا كل أثر يقوده إليه.

ولم يكن ذلك الشخص قادرًا على فعل كل شيء بمفرده.

جاء داميان إلى منزلي بعد حلول الظلام.

لم أكن قد أرسلت إليه، لكنه لم يحتج إلى دعوة. أخبرتني ماريان بوصوله، ثم نظرت إليّ كما لو أنها تنتظر مني أن أقرر إن كنت سأسمح له بالدخول.

ترددت.

ثم قلت:

— دعيه يدخل.

دخل مرتديًا معطفه الداكن، وعلى وجهه آثار يوم طويل. لم يقترب مني فورًا. بقي عند الباب لحظة، يتأملني كما لو أنه يحاول معرفة إن كنت سأغلقه في وجهه.

— لم تذهبي إلى المستودع وحدك، قال.

— ذهبت.

تصلب وجهه.

— رووران—

— وجدت معاملة تخص مستشفى أبي، تحمل ختم المكتب الملكي. ووجدت إشارة إلى ملف خاص اختفى لا أعرف من أصدر الأمر، لكنني لن أتوقف حتى أعرف.

لم يرفع صوته. كان ذلك أكثر ما أخافني.

— هل أخبرتِ فاريس؟

— نعم.

— جيد.

بدت الكلمة صادقة، لكنني رأيت شيئًا يتبدل في نظرته حين ذكرت الملف الخاص.

— هل تعرف شيئًا عن هذه المعاملة؟ سألته.

—لا أعرف تفاصيلها.

— لم أسألك عن التفاصيل. سألتك إن كنت تعرف شيئًا عنها.

أدار وجهه نحو النافذة.

— القصر ليس مكانًا نظيفًا كما تتخيلين.

— لم أعد أتخيل شيئًا.

التفت إليّ.

— هل هذا ما تغير فيك منذ الليلة الماضية؟ أنك لم تعودي تثقين بي؟

لم أجب فورًا.

كان يمكنني أن أكذب، وأن أخبره أن كل شيء بخير، وأن الجملة التي قالها قرب شفتيّ لم تترك في داخلي شرخًا. لكنني تعبت من التظاهر بأن الخوف لا يؤثر فيّ.

—لا أعرف ماذا أصدق، قلت. أحببتك لأنني شعرت أنني أستطيع أن أكون نفسي قربك. لكنني لا أعرف إن كنت قد رأيتك حقًا، أم أنك أريتني الجزء الذي أردتني أن أحبه.

بدت العبارة وكأنها أصابته في مكان عميق.

— ما شعرتِ به معي لم يكن كذبًا.

— لم أقل إنه كان كذبًا. سألت نفسي فقط إن كانت الحقيقة كلها موجودة.

اقترب خطوة، ثم توقف.

— رووران، هناك أشياء لا يمكن شرحها في جملة واحدة.

— إذًا ابدأ بجملة واحدة صادقة.

ظل ينظر إليّ.

كنت أعرف أنه يستطيع أن يجيب، أو أن يطلب مني الانتظار، أو أن يغضب لأنني شككت فيه. لكنه لم يفعل شيئًا من ذلك.

قال أخيرًا:

— هناك أشخاص في القصر لا يريدون لهذا الملف أن يُفتح.

— وأنت؟

لم يجب.

شعرت بأن الصمت عاد بيننا، لكنه لم يعد صمت حبيبين يخشيان الاعتراف بمشاعرهما. صار صمتًا يقف على حافة حقيقة لم يعد ممكنًا إبقاؤها بعيدة.

— هل كنت تعرف أن اسم أبي موجود في سجل سري؟ سألت.

— عرفت بوجود مراجعة لممتلكاته بعد موته.

— ومتى عرفت؟

تردد جزءًا من الثانية، لكنه كان كافيًا.

— قبل أن تخبريني اليوم.

شعرت ببرودة في صدري.

— ولماذا لم تقل لي؟

— لأنني لم أكن أملك دليلًا على ما يعنيه ذلك.

— لكنك كنت تعرف.

— نعم.

كانت تلك أول مرة يعترف فيها بشيء من دون أن يحيطه بالتبريرات.

اقتربت منه، لا لألمسه، بل لأرى وجهه بوضوح.

— هل كان أبي متورطًا في شيء؟

—لا أستطيع أن أقول ذلك.

— هل كان جوزيف؟

تغيرت ملامحه حين نطقت الاسم.

كانت لحظة خاطفة، لكنني رأيتها.

— ماذا تعرف عن جوزيف؟ سألت.

—لا شيء يثبت ما تفكرين فيه.

— لم أقل لك ما أفكر فيه.

أغمض عينيه، ثم فتحهما ببطء.

— أنتِ لا تعرفين كم من الناس سيحاولون استخدامك للوصول إلى ما تركه أبوك خلفه.

— وهل أنت واحد منهم؟

لم يجب.

ولم أكن بحاجة إلى جواب سريع. كنت بحاجة إلى جواب حقيقي.

لم يقترب مني تلك الليلة كما فعل من قبل. جلسنا في الغرفة نفسها، وبيننا طاولة صغيرة تحمل دفتر جوزيف والمفتاح النحاسي.

أخبرته عن الرقم المكتوب في القصاصة، وعن الموظف الذي رفض التوقيع. لم أخبره بكل ما وجدت، لكنني كنت أراقب وجهه كلما ذكرت تفصيلًا جديدًا.

وحين وضعت المفتاح أمامه، رأيت عينيه تستقران عليه.

— من أين حصلتِ عليه؟

— كان مخبأ في دفتر جوزيف.

لم يلمسه.

— هل تعرفه؟ سألت.

— أظن أنه مفتاح لخزانة قديمة في مبنى السجلات الطبية.

— أظن؟

رفع عينيه إليّ.

—لا أريد أن أعطيك إجابة خاطئة.

كان ذلك معقولًا، لكنه لم يبدُ مرتاحًا. ولأول مرة، شعرت أن معرفته بالقصر قد تكون هي نفسها ما يمنعه من قول الحقيقة.

— غدًا سأذهب إلى عنوان المحامي، قلت. وبعدها سأبحث عن الخزانة.

— سأرافقك.

—لا أعرف إن كنت أريد ذلك.

تألم وجهه، لكنه لم يعترض.

— أفهم.

كانت الكلمة هادئة، خالية من سلطته المعتادة. للحظة، كدت أتراجع عن قسوتي. كنت ما أزال أحبه، وهذا ما جعل الأمر أصعب. لو أنني كرهته، لكان الابتعاد أسهل. لكن قلبي لم يكن قد تلقى الدليل الذي يحتاج إليه كي يتوقف، بينما عقلي بدأ يطالبني بألا أتركه يقودني إلى المجهول.

نهض داميان أخيرًا.

— مهما وجدتِ، لا تواجهي من يقف خلف هذه الأمور وحدك.

— سأحاول أن أكون حذرة.

اقترب من الباب، ثم التفت إليّ.

— رووران، أنا لم أقترب منك لأجعلك تخافين مني.

كدت أسأله عمّا فعله إذًا، لكن الكلمات بقيت في حلقي.

لأنني لم أكن أريد أن أسمع جوابًا آخر نصف صادق.

غادر.

وبقيت أنظر إلى الباب بعد أن أُغلق، حتى أدركت أنني كنت أقبض على المفتاح في يدي بقوة جعلت حافته تؤلمني.

فتحت دفتر جوزيف من جديد، وقرأت آخر سطر كتبه قبل الصفحات الممزقة:

«إن وصلتِ إلى هذا الموضع، فهذا يعني أنني فشلت في إبعادك عن الحقيقة. سامحيني يا رووران. لم يكن خوفي من أن تعرفي ما حدث، بل من أن تعرفي من كان حاضرًا حين حدث.»

توقفت أنفاسي.

لم يقل إن القاتل كان حاضرًا.

لم يقل إن داميان كان حاضرًا.

لكن العبارة فتحت بابًا لم أستطع إغلاقه.

من كان حاضرًا؟

ومن الذي حاول جوزيف إبعادي عنه؟

في الصباح التالي، وصلتني رسالة من المفتش فاريس. وجدوا أثرًا جديدًا في سجلات النقل: عربة ملكية دخلت المستودع القديم ليلة اختفاء إلياس، ثم خرجت قبل الفجر من دون تسجيل وجهتها.

كان رقم العربة مطابقًا للرقم الموجود في نسخة توماس.

وفي أسفل الرسالة، كتب فاريس:

«لدينا سبب للاعتقاد أن إلياس لم يكن مجرد شاهد على تزوير السجلات. ربما كان يحمل نسخة من أمر النقل الأصلي. إذا وصلنا إليه، فقد نعرف من أصدره.»

لم أحتج إلى قراءة الرسالة مرة ثانية.

أخذت المفتاح، ووضعت دفتر جوزيف في حقيبتي، ثم توجهت إلى مكتب المحامي القديم.

لم أكن أعرف إن كان داميان سيحاول اللحاق بي، ولا إن كان سيخبرني بالحقيقة إن واجهته مرة أخرى.

لكنني كنت أعرف شيئًا واحدًا:

لم يعد يكفيني أن أعرف من مات.

كان عليّ أن أعرف من قرر أن يموتوا، ومن جعل موتهم يبدو كأنه أمر لا يسأل عنه أحد.

وإذا كانت الحقيقة تقف خلف باب في مستودع قديم، فسأفتحه.

حتى لو كان خلفه الرجل الذي أحببته.

حتى لو كان خلفه الجزء الذي لم أعرفه منه قط.

لأنني بدأت أفهم أخيرًا أن أخطر الأسرار ليست تلك التي تُخفى عن العالم.

بل تلك التي تُخفى داخل الحب، حتى يصبح اكتشافها شبيهًا بخيانة النفس.

الفصل الثلاثون

حين يتعفّن العقل

لم أعد أعرف متى بدأ الجوع.

ربما بدأ يوم رأيت الموت للمرة الأولى ولم أشعر بما ينبغي أن أشعر به. أو يوم اكتشفت أن الخوف يمكن أن يتحول، في أعماق الإنسان، إلى فضول، وأن الفضول قد ينمو حتى يصير رغبة لا تعرف متى تتوقف.

كل ما أعرفه أنني، في الأسابيع الأخيرة، صرت أستيقظ وفي فمي طعم معدني لا وجود له، وأتلفت حولي كأن شيئًا يناديني من مكان لا أراه.

مرّت أيام لم أشم فيها رائحة الدم، ولم أقترب من جثة، ولم أسمح لنفسي بالعودة إلى الأماكن التي اعتدت زيارتها ليلًا. ظننت أن الابتعاد سيعيد إليّ السيطرة، لكن الجوع لم يختفِ. كان يهدأ قليلًا ثم يعود، أكثر إلحاحًا، حتى صار يشبه حاجة جسدي إلى شيء حرمت نفسي منه طويلًا.

كنت أعرف أنني لا أجوع إلى الطعام.

كنت أجوع إلى الإحساس الذي يسبق ارتكاب شيء لا أستطيع التراجع عنه.

وفي الوقت نفسه، كنت أجوع إلى داميان.

إلى صوته، وإلى حضوره الذي صار يثير في داخلي الطمأنينة والريبة معًا، وإلى الطريقة التي ينظر بها إليّ كأنني المرأة الوحيدة التي يستطيع أن يضع أمامها سلاحه جانبًا.

كان ذلك أسوأ ما في الأمر.

لم أعد أعرف إن كنت أريد الاقتراب منه لأنني أحبه، أم لأنني أخشى أن أفقده، أم لأن جزءًا مظلمًا في داخلي بدأ ينظر إلى كل ما يحبه بوصفه شيئًا يجب الاحتفاظ به مهما كان الثمن.

أحيانًا، حين أتذكر يديه، أتذكر دفأهما حول أصابعي. وفي أحيان أخرى، كانت مخيلتي تنحرف إلى صور لا أريدها؛ صور عن الجمال حين ينفصل

عن الحياة، وعن الأشياء التي لا تغادر صاحبها لأنها لم تعد قادرة على الرحيل.

كنت أكره تلك الصور.

لكنني لم أعد أستطيع الادعاء بأنها لا تخصني.

وضعت دفتر جوزيف في حقيبتي، وأخذت المفتاح النحاسي، ثم خرجت قبل أن تستيقظ ماريان.

لم أكن ذاهبة إلى المستودع لأبحث عن قاتل فحسب.

كنت ذاهبة لأعرف إن كان الرجل الذي أحببته قد جعلني، من دون أن أعلم، أقرب شخص إلى الجريمة التي دمرت حياتي.

كان المستودع القديم يقع خلف مبنى السجلات الطبية، في جناح مهجور من القصر. لم يكن على بابه سوى رقم باهت، ولم يكن في الممر المؤدي إليه سوى نافذة ضيقة تسمح لضوء الصباح بأن يدخل كأنه يعتذر عن وصوله.

وجدت المفتش فاريس ينتظرني عند المدخل.

لم يسألني لماذا جئت وحدي. اكتفى بأن أشار إلى رجل يقف قربه، نحيل، شاحب الوجه، وقد غطى شعره الرمادي معظم رأسه.

عرفته قبل أن ينطق اسمه.

إلياس.

الرجل الذي أعلنت السجلات موته، والذي ظل يتحرك في العالم كأن وجوده نفسه مخالفة للقانون.

نظر إليّ بحذر.

— لم أكن أظن أنك ستصلين إلى هنا.

— وأنا لم أكن أظن أنني سأضطر إلى البحث عن شخص حيّ في سجلات الموتى.

لم يبتسم.

— أحيانًا يكون الموت في الأوراق أكثر أمانًا من الحياة خارجها.

فتح فاريس الباب، فدخلنا.

كان المكان مغطى بطبقة من الغبار، تتوزع فيه الخزائن المعدنية والطاولات القديمة. أخرج إلياس من جيبه ورقة تحمل رقمًا، ثم قارنها بالرقم الذي وجدته داخل دفتر جوزيف.

تطابقا.

قال:

— هذه الخزانة.

أدخلت المفتاح.

دار بصعوبة، ثم انفتح الباب بصوت معدني خشن.

في الداخل، كانت هناك ملفات مربوطة بخيط أسود، ودفتر صغير، وحافظة جلدية متشققة. لم تكن الكنوز التي تخيلتها طوال الليالي الماضية؛ كانت أوراقًا عادية، صفراء، باهتة، لكنها حملت ما لم تستطع الشائعات حمله.

أخرج فاريس الملفات واحدًا تلو الآخر.

وجدنا سجل حركة العربات، ثم نسخة من أمر نقل لم يُضم إلى الأرشيف العام، ثم مراسلات تتعلق بمستشفى كاسيان.

وفي قاع الحافظة، وجدنا ورقة تحمل توقيعًا واضحًا.

لم يكن توقيع كاسيان.

كان توقيع مسؤول في المكتب الملكي، وتحته عبارة:

«بناءً على توجيه ولي العهد، يُنقل الملف الخاص بعائلة كاسيان إلى الحفظ المغلق. ويُمنع تداول أي نسخة منه خارج الدائرة المحددة.»

شعرت بأن الهواء توقف في صدري.

ولي العهد.

داميان.

لكن الورقة لم تكن أمرًا بالقتل. كانت أمرًا بإخفاء ملف، وقد يكون الإخفاء جريمة أخرى، أو محاولة لحماية سر لا أعرفه.

رفعت رأسي نحو إلياس.

— ماذا كان في هذا الملف؟

تردد، ثم أشار إلى الدفتر الصغير.

— هذا ما حاولت الاحتفاظ به. كنت موظفًا في قسم النقل، ولم يكن مسموحًا لي بقراءة الأوامر، لكنني كنت أرى ما يكفي لأعرف أن شيئًا غير طبيعي يحدث. كانت هناك عربات تنقل جثثًا لا تظهر في السجلات، وأسماء تُمحى بعد أيام من تسجيلها.

— ومن أصدر الأوامر؟

أطرق إلياس رأسه.

— رأيت الأمر الأول بعيني. كان متعلقًا بوالدك.

لم أتحرك.

— كاسيان؟

— نعم. لم يكن الأمر مجرد نقل ملف أو مراجعة ممتلكات. كان هناك توجيه بإبعاد والدك عن المشهد نهائيًا، ثم ترتيب السجلات بحيث يبدو موته منفصلًا عن أي قرار صادر من القصر.

لم أستطع أن أتنفس كما ينبغي.

— من أصدره؟

رفع إلياس عينيه إليّ.

— داميان.

لم أسمع صوتًا بعد ذلك.

ربما كان فاريس يتحدث، وربما كانت الخزائن تتحرك، وربما سقط شيء على الأرض. لم أعرف. كل ما رأيته كان وجه داميان، كما بدا لي في الحديقة، وفي الممرات، وفي تلك الليلة التي اقترب فيها ليقبلني.

ثم رأيته كما كان في خيالي قبل أن أعرفه؛ رجلًا لا يترك شيئًا يقف بينه وبين ما يريد.

— هل أنت متأكد؟ سألت.

— رأيت الأمر يحمل توقيعه، وسمعت المسؤول يقول إن ولي العهد يريد انتهاء الأمر قبل أن يصل الخبر إلى المجلس. لم أكن حاضرًا حين مات والدك، ولا أستطيع أن أخبرك كيف نُفّذ الأمر، لكنني رأيت ما جاء قبله وما حدث بعده.

وضعت يدي على حافة الطاولة.

— وجوزيف؟

لم يجب فورًا.

كان صمته كافيًا ليجعلني أتمنى لو لم أسأل.

ثم قال:

— جوزيف لم يكن هدفًا في البداية. لقد عرف أن والدك مات بأمر، لا بقرار عابر. كان يحتفظ بنسخة من رسالة وصلت إلى كاسيان قبل موته، وبأسماء أشخاص شاركوا في إخفاء الملف. حاول أن يسلم ما لديه إلى جهة مستقلة، لكن الرسالة وصلت إلى القصر قبل أن تصل إلى صاحبها.

أحسست بشيء حاد يتحرك في داخلي.

— لذلك قتلوه؟

— هذا ما تشير إليه الأوراق. أما الأمر الذي يخصه تحديدًا، فقد رأيته.

فتح إلياس الدفتر الصغير، وأخرج ورقة مطوية كانت مخبأة بين صفحاته.

قرأها فاريس بصوت مسموع:

«يُتّهم جوزيف بجمع مواد سامة بقصد الإضرار بولي العهد. تُنفذ الإجراءات قبل أن يتمكن من تسليم المستندات، وتُحفظ القضية بعيدًا عن السجل العام.»

لم أسمع بقية العبارة.

جوزيف.

الرجل الذي علمني أسماء النباتات، وعلمني كيف أفرق بين ما يعالج وما يؤذي، والذي كان يضع يده على رأسي كلما عدت إلى المنزل مثقلة بأسئلة لا أعرف كيف أطرحها.

جوزيف الذي لم يطلب من أبي مالًا، ولم يرد من عائلتي شيئًا سوى أن يسمحوا له بأن يحبني.

اتهموه بأنه أراد تسميم داميان.

وقتلوا الرجل الذي رباني لأن الحقيقة كانت في يده.

تراجعت حتى اصطدمت بالطاولة خلفي.

لم أبكِ.

كنت قد بكيت على جوزيف من قبل، حتى ظننت أن الحزن استنفد كل ما يملكه جسدي من دموع. لكن ما شعرت به الآن لم يكن حزنًا وحده. كان غضبًا باردًا، واسعًا، لا يعرف أين يبدأ ولا أين ينتهي.

قال فاريس بهدوء:

— رووران، أحتاج إلى أن تبقي هنا. هذه الوثائق دليل رسمي، ويجب أن تُسجل—

— سجّلها، قاطعته. هذه المرة، لا تسمح لأحد بأن يمحوها.

ثم نظرت إلى إلياس.

— لماذا لم تظهر من قبل؟

— لأنني رأيت ما حدث لجوزيف. كنت أعرف أن اسمي سيصبح التالي، فهربت. وبعدها وجدت اسمي في سجل الموتى. حين يصبح الإنسان ميتًا على الورق، يتوقف الناس عن البحث عنه، لكنه يفقد حقه في أن يعيش علنًا.

أغمض عينيه.

— لم أكن شجاعًا بما يكفي لأعود. لكنني لم أستطع أن أترك الحقيقة تختفي إلى الأبد.

أومأت.

لم أكرهه. لم أستطع حتى أن ألومه. لقد اختار النجاة، كما يفعل كثيرون حين تصبح الحقيقة أغلى من حياتهم.

لكنني لم أكن قد انتهيت من الأسئلة.

— هل تعرف لماذا أراد داميان إنهاء عائلة كاسيان؟

نظر إلياس إلى فاريس، ثم عاد إليّ.

— هناك رسالة أخرى. لم أحتفظ بالأصل، لكنني رأيت نسخة منها. كانت تتحدث عن نفوذ والدك، وعن المستشفى، وعن أشخاص داخل المجلس الملكي يخشون أن تصبح عائلته أقوى من القصر نفسه. بدا الأمر وكأنهم كانوا يخشون ما قد يحدث لو استمر نفوذ كاسيان جيلًا آخر.

— وهل كان داميان واحدًا منهم؟

خفض عينيه.

— لم يكن مجرد واحد منهم. كان صاحب القرار الأخير.

لم أعد أريد سماع المزيد.

لكنني كنت أعرف أنني إن غادرت الآن، فسأظل أعيش مع نصف حقيقة، والنصف الآخر سيأكلني من الداخل.

طلبت من فاريس أن يرافقني إلى القصر. رفض في البداية، ثم وافق بعد أن سلّمت إليه جميع الوثائق وطلبت أن تُحفظ نسخة منها لدى جهة مستقلة عن المكتب الملكي.

للمرة الأولى، لم أعد أخشى أن يختفي الدليل.

كنت أخشى أن أرى الرجل الذي أحببته، وأكتشف أنني ما زلت أحبه حتى بعد أن عرفت ما فعل.

كان داميان في مكتبه حين دخلت.

وقف فور أن رآني. لم يسألني أين كنت، ولم ينظر إلى المفتش فاريس طويلًا. كانت عيناه معلقتين بي، كأنه عرف من وجهي أن شيئًا ما انتهى قبل أن أصل.

وضعت نسخة الأمر الملكي فوق مكتبه.

لم أجلس.

قرأ السطر الأول، ثم أغلق عينيه.

لم يقل إن الوثيقة مزورة. لم يتهم إلياس بالكذب. ولم يسألني كيف وصلت إليها.

قال فقط:

— كنت أتمنى ألا تعرفي بهذه الطريقة.

شعرت بأنني تلقيت صفعة لم تترك أثرًا على وجهي.

— بهذه الطريقة؟

رفعت صوتي للمرة الأولى.

— أي طريقة كنت تريدها؟ أن تخبرني وأنت تمسك بيدي؟ أن تعترف لي بعدما أطمئن إليك أكثر؟ أم كنت تنتظر أن أحبك بما يكفي حتى يصبح قتلك للحقيقة أمرًا يمكنني احتماله؟

لم يتحرك.

كان في سكونه شيء مخيف، لكنه لم يكن سكون رجل ينكر جريمته. كان سكون رجل وصل أخيرًا إلى اللحظة التي لم يعد يستطيع فيها التحكم بما سيحدث.

— اجلسي يا روران.

—لا تأمرني.

رفع عينيه إليّ، ثم خفضهما.

— معك حق.

لم أكن مستعدة لأن يوافقني. كنت أريد منه أن يدافع عن نفسه، أن يمنحني سببًا أكرهه بوضوح، أن يجعل الأمر بسيطًا بما يكفي كي أستطيع الرحيل.

لكنه لم يفعل.

— هل قتلت أبي؟ سألت.

— نعم.

لم يلتف حول الكلمة.

— هل أمرت بقتل جوزيف؟

أغمض عينيه طويلًا.

— نعم.

اهتز شيء في داخلي، لكنني بقيت واقفة.

— لماذا؟

فتح عينيه، وكان فيهما تعب لم أره من قبل.

— لأنني أردت إنهاء نفوذ عائلتك.

— هذا ليس جوابًا.

— كان والدك يملك أكثر مما ينبغي في نظر الأشخاص الذين أحاطوا بي منذ صغري. المستشفى، الأموال، العلاقات، والقدرة على الوصول إلى أماكن لا يستطيع القصر التحكم بها. كنت وليًا للعهد، لكنني كنت محاطًا برجال يعتقدون أن أي قوة لا تخضع لهم تهديد. أقنعوني أن عائلة كاسيان ستصبح مركزًا مستقلًا للسلطة، وأنني إذا تركتها تنمو فستكون نهايتي قبل أن أصل إلى العرش.

— فقررت أن تكون نهايتهم أنت.

— نعم.

كانت بساطة اعترافه أكثر رعبًا من أي تبرير.

— وماذا عن جوزيف؟

أدار وجهه قليلًا.

— عرف ما حدث. كان يحمل أدلة، ورفض أن يسلمها. حاولت أن أجعله يتراجع، لكنه لم يفعل. صدر الأمر بإسكاته.

— منك؟

صمت لحظة.

— نعم.

أغمضت عينيّ.

رأيت جوزيف في مطبخه الصغير، يطحن الأعشاب ويطلب مني أن أراقب لون السائل قبل أن أضيف شيئًا آخر. رأيته يضحك حين كنت أخلط أسماء النباتات، ويقول إن المعرفة ليست أن تحفظي أسماء الأشياء، بل أن تعرفي ما يمكن أن تفعله بغيرك.

ثم رأيت الورقة التي اتهمته بأنه أراد تسميم الرجل الذي قتله.

— هل كنت تعرف أنه بريء؟

— لم يكن هناك دليل على أنه حاول إيذائي. كانت التهمة وسيلة لإغلاق القضية بسرعة.

فتحت عينيّ.

— أنت لم تقتله لأنك كنت تخشى أن يؤذيك. قتلته لأنه كان يستطيع أن يكشفك.

لم ينكر.

— نعم.

ضحكت.

لم تكن ضحكة فرح، ولا حتى سخرية. كانت صوتًا قصيرًا خرج مني لأن البكاء لم يعد كافيًا، ولأنني شعرت أن كل السنوات التي عشتها قبل هذه اللحظة كانت غرفة مغلقة، وأن أحدهم فتح بابها فجأة وأخبرني أن الهواء الذي تنفسته كان مسمومًا منذ البداية.

— وكل ما حدث بعد ذلك؟ سألت. الرسائل، السجلات، اختفاء إلياس، التحقيق، مساعدتك لي، وقوفك بجانبي حين كنت أبكي على جوزيف؟

— لم أصنع كل شيء حدث حولك. بعض الرسائل أرسلها أشخاص أرادوا استخدامك للوصول إليّ، وبعضهم أراد أن ينجو بنفسه. لكنني عرفت أنك بدأت تقتربين من الحقيقة، ولم أمنعك.

— لماذا؟

نظر إليّ، ولم يحاول إخفاء ما في وجهه هذه المرة.

— لأنني كنت أريدك قريبة مني.

— لتراقبني؟

— في البداية، نعم.

تراجعت خطوة.

— في البداية؟

مرر يده على وجهه، وكأنه يحاول أن يستجمع الكلمات التي لم يعد لها أي نفع.

— كنت أريد أن أضعك في موضع لا تستطيعين فيه تهديد ما خططت له. كنت أظن أنني أستطيع أن أجعلك تثقين بي، وأن أجعلك تتعلقين بي، ثم أتركك تفهمين أن كل ما بنيته في حياتك كان قائمًا على عائلة أردت إنهاءها. أردت أن أفقدك كل ما ظننت أنك تملكينه.

— أردت أن تجعلني أحب قاتل أبي؟

— نعم.

أطبق الصمت علينا.

لم أعد أسمع سوى أنفاسي، وصوت الساعة خلفه، وخفقان قلبي الذي بدا غريبًا عن جسدي.

— ومتى تغير ذلك؟ سألت أخيرًا.

لم يجب فورًا.

ثم قال:

—لا أعرف اللحظة التي حدث فيها ذلك. ربما حين رأيتك ترفضين أن تنكسري أمام الجميع، ثم تعودين إلى غرفتك لتبكي وحدك. ربما حين بدأت أراك تتحدثين عن جوزيف كما لو أنه ما زال موجودًا في كل شيء حولك. أو حين أدركت أنك لا تريدين السلطة التي حاولت عائلتك أن تجعلها حلمك.

اقترب خطوة، لكنه توقف حين رأى أنني تراجعت.

— كنت أريد أن أدمرك، يا روران. ثم أصبحت أخشى أن أكون أنا السبب في كل ألم يصيبك. حاولت أن أغير ما أستطيع تغييره، لكنني لم أستطع إعادة الموتى. ولم أستطع أن أجعل ما فعلته أقل فظاعة بمجرد أنني أحببتك.

—لا تستخدم الحب لتخفيف جريمتك.

— لن أفعل.

كانت عيناه تلمعان، لكنه لم يبكِ.

—لا أطلب منك أن تسامحيني. أعرف أنني لا أستحق ذلك.

نظرت إلى الرجل الذي أحببته.

كان أمامي بكل ما فيه من قسوة وخوف وتناقض. لم يكن وحشًا خالصًا أستطيع أن أكرهه بسهولة، ولا رجلًا بريئًا أخطأ مرة واحدة. كان إنسانًا اختار أن يرتكب جريمة، ثم وقع في حب المرأة التي جعلها ضحية لها، وحاول أن يحتفظ بالأمرين معًا.

ولم يكن حبه يمحو اختياره الأول.

— عندما قلت لي إنك تتمنى لو لم أكن من تلك العائلة، سألت. ماذا كنت تقصد؟

أخفض رأسه.

— كنت أتمنى لو أنك لم تكوني ابنة الرجل الذي قررت قتله. تمنيت لو أنني عرفتك في حياة أخرى، قبل أن أجعل اسمك جزءًا من خطتي. تمنيت لو كان بإمكاني أن أحبك من دون أن تكون يداي ملطختين بما فعلته بعائلتك.

ارتجفت أصابعي.

لم تكن تلك الكلمات اعتذارًا كافيًا، لكنها كانت الحقيقة التي كنت أخشاها. لم تكن جملته زلة عابرة فحسب؛ كانت اللحظة التي اصطدم فيها الرجل الذي أراد تدميري بالرجل الذي أحبني.

— لكنك لم تخبرني، قلت. تركتني أصدق أنني أستطيع أن أثق بك.

— نعم.

— وتركتني أحزن على جوزيف بين ذراعيك، بينما كنت تعرف أنك السبب في موته.

لم يستطع النظر إليّ.

وهنا، للمرة الأولى، شعرت أنني أراه فعلًا.

ليس كما رأيته في الحديقة، ولا كما تخيلته في ليالي وحدتي، بل كما هو: رجل قادر على أن يمنحني لحظة من الحنان، ثم يعود إلى حقيقة أنه أمر بقتل الرجل الذي رباني.

كان بإمكاني أن أحبه.

وكان بإمكاني أن أكرهه.

لكنني لم أعد أستطيع أن أجعل أحد الشعورين دليلًا على زيف الآخر.

لا أعرف ما الذي حدث في اللحظات التالية على وجه الدقة.

أتذكر أنني سمعت فاريس يأمر الحراس بالدخول. أتذكر أن داميان لم يقاوم حين أعلن المفتش أنه سيُحتجز على ذمة التحقيق في جرائم القتل والتلاعب بالسجلات وإصدار الأوامر غير القانونية.

وأتذكر أنني لم أتحرك حين اقتربوا منه.

كان قلبي يصرخ بأن أفعل شيئًا، أي شيء، لكن جسدي بقي ثابتًا.

حين مر داميان بجانبي، توقف.

لم يطلب مني أن أنقذه، ولم يحاول أن يجعلني أشعر بالذنب.

قال بصوت لا يسمعه سواي:

— أحببتك حقًا، حتى حين لم أكن أعرف كيف أحبك دون أن أؤذيك.

نظرت إليه.

— كان عليك أن تتعلم ذلك قبل أن تقتل أبي.

أطرق رأسه.

ثم مضى.

لم أتبعه.

ولم أنادِ اسمه.

لكن حين أُغلق الباب خلفه، شعرت بأن شيئًا داخليًا قد انتُزع مني، وأن المكان الذي تركه لم يكن فارغًا تمامًا. كان ممتلئًا بكل ما لم أعد أستطيع تصديقه، وبكل ما كنت أتمنى لو أنه لم يكن حقيقيًا.

بعد ساعات، عدت إلى المنزل.

كانت ماريان تنتظرني في الردهة. لم تسألني عما حدث حين رأت وجهي، بل احتضنتني بصمت. بقيت بين ذراعيها لحظات طويلة، ثم ابتعدت عنها ودخلت غرفتي.

كان كل شيء في مكانه.

الستائر الثقيلة، الكتب، الدفاتر، والأدوات التي جمعتها في ليالي لم أكن أريد أن أتذكرها. لكن الغرفة لم تعد تبدو لي كما كانت. بدت كأنها تخص امرأة أخرى، امرأة كانت تحاول أن تجعل العالم ساكنًا بجمع أشياء لا تستطيع أن تتكلم.

فتحت الدرج.

وجدت الحافظة الزجاجية الصغيرة التي احتفظت فيها بعين شخص ميت.

وقفت أمامها طويلًا.

لم أشعر بالفضول الذي اعتدت أن أشعر به. لم أجد في الزجاج جمالًا غامضًا، ولم أتخيل أن امتلاك جزء من جسد أحدهم يمكن أن يمنحني السيطرة على ما لا أستطيع احتماله.

رأيت شيئًا آخر.

رأيت امرأة تحاول أن تحبس الموت داخل زجاج، لأنها لم تستطع أن تتقبل أن الأشياء التي تحبها تستطيع أن تغادرها.

لم يكن ذلك اكتشافًا مريحًا.

كان مخيفًا، لأنه جعلني مسؤولة عن نفسي بطريقة لم أستطع الهرب منها.

أخذت الحافظة، ووضعتها في صندوق مع بقية الأشياء التي جمعتها. لم أرمها في لحظة غضب، ولم أتظاهر أنني أصبحت بخير بمجرد أن أغلقت الصندوق. كتبت على ورقة صغيرة ما الذي يوجد داخله، ثم قفلته وطلبت من فاريس أن يأخذه ضمن الأدلة المتعلقة بقضية المقابر.

كان ذلك أول قرار أتخذه بشأن هذا الجزء من حياتي من دون أن أحاول تبريره لنفسي.

ثم جلست أمام المرآة.

لم أكن أعرف المرأة التي تنظر إليّ. بدت عيناي متعبتين، ووجهي أكثر شحوبًا، لكنني لم أكن أرى وحشًا كما تخيلت أحيانًا. كنت أرى إنسانة وصلت إلى مكان خطير، وبدأت تفهم أن أفكارها لا تجعلها محكومة بها، لكنها لا تعفيها أيضًا من مسؤولية ما تختار فعله.

لم يكن ما أعانيه قد انتهى.

كنت ما أزال أشعر بالجوع، وبالرغبة في العودة إلى العتمة، وبذلك الانجذاب المربك إلى الدم والموت. لم تختفِ الأصوات التي أحملها من الماضي، ولم تصبح ذاكرتي أقل قسوة لمجرد أنني عرفت الحقيقة.

لكنني لم أعد أريد أن أتركها تقرر عني.

في الأيام التالية، بدأت الحقائق تظهر إلى العلن.

سُجلت وثائق المستودع رسميًا، وثبت أن اسم إلياس مُحي عمدًا من السجلات، وأن أوامر النقل الليلية كانت جزءًا من عملية أوسع لإخفاء الأدلة. أُعيد فتح ملف موت كاسيان، ثم ملف جوزيف، وأُحيلت أوامر داميان إلى محاكمة علنية لم تستطع السلطة الملكية إغلاقها هذه المرة.

لم يكن كل من شارك في الأمر قد ظهر، ولم تُحل كل قضية مرتبطة بالمستشفى أو بالمقابر، لكن الأسماء التي أمكن إثباتها خرجت من الظلام، ولم يعد ممكنًا الادعاء بأن شيئًا لم يحدث.

شهد إلياس بما رآه، وقدمت إيلينا ونادر سجلاتهما، وأدلى توماس بشهادته حول الملفات المحذوفة. أما فاريس، فواصل التحقيق حتى أصبحت القضية أكبر من رجل واحد، وأكبر من اسم عائلة واحدة.

أُعيد إلى كاسيان اسمه في سجل القضية، لا بوصفه رجلًا فقد حياته فحسب، بل بوصفه ضحية قرار حاول أصحابه إخفاءه. وأُزيلت عن جوزيف التهمة التي لُفّقت له، وأُثبت أن الأدلة التي استُخدمت ضده لم تكن سوى وسيلة لإسكاته.

حين قرأت التصحيح الرسمي، بكيت.

لم يكن البكاء طويلًا، لكنه كان مختلفًا عن كل ما سبقه. لم أبكِ لأنني فقدت رجلين أحبهما، بل لأن العالم اعترف أخيرًا بأنهما كانا يستحقان الحقيقة.

لم يعد جوزيف متهمًا في ذاكرة الآخرين.

ولم يعد موت أبي حادثة لا يسأل عنها أحد.

أما داميان، فقد بقي محتجزًا إلى حين محاكمته. لم أذهب لرؤيته.

لم أكن مستعدة لذلك، وربما لن أكون مستعدة أبدًا.

لم أعد أكتب اسمه في دفتري بوصفه احتمالًا أو سؤالًا. كتبت تحته ما فعله، ثم أغلقت الصفحة.

كنت أعرف أنني ما زلت أحبه.

وكان عليّ أن أتعلم كيف أعيش مع هذه الحقيقة دون أن أجعلها عذرًا له، أو سجنًا لي.

بعد أسابيع، ذهبت إلى قبر جوزيف.

لم أحمل معي شيئًا من الأشياء التي كنت أجمعها في الماضي، ولا أي غرض مسروق من قبر آخر. حملت باقة صغيرة من الأعشاب التي علمني أسماءها، ووقفت أمام شاهد قبره حتى هدأ اضطراب أنفاسي.

قلت له ما لم أستطع قوله حين مات:

— عرفت الحقيقة يا جوزيف.

مررت أصابعي على اسمه المحفور في الحجر.

— لم أستطع إنقاذك، ولم أستطع إنقاذ أبي. لكنني لن أسمح لهم بأن يمحوكما مرة أخرى.

هبّت ريح خفيفة، فتحركت أوراق الأعشاب بين يديّ.

لم أسمع صوته.

لم أحتج إلى أن أسمعه.

للمرة الأولى، لم أطلب من الموتى أن يعطوني إجابة. تركت لهم صمتهم، واحتفظت لنفسي بحقي في أن أواصل الحياة.

حين عدت إلى المنزل، كان الليل قد حلّ.

وقفت أمام باب غرفتي لحظة، ثم دخلت. فتحت النافذة، وتركت الهواء البارد يبدد رائحة الغرفة المغلقة. وضعت دفترًا جديدًا فوق المكتب، وكتبت في الصفحة الأولى:

«أنا رووران كاسيان.

لست ابنة رجل بريء تمامًا، ولا حبيبة رجل بريء، ولا المرأة التي ظننت أنني سأكونها.

أنا المرأة التي عرفت الحقيقة، ثم اضطرت إلى أن تختار ما ستفعله بها.»

توقفت.

كان الجوع ما يزال هناك، مختبئًا في مكان عميق، ينتظر لحظة ضعف أو خوف أو وحدة. عرفت أنني لن أستطيع محوه بمجرد أن أقرر ذلك. كنت بحاجة إلى مساعدة، وإلى أن أواجه ما فعلته وما كدت أفعله، بدل أن أختبئ خلف الحزن أو خلف اسم عائلتي أو خلف الرجل الذي أحببته.

وللمرة الأولى، لم أشعر بالخجل من الاعتراف بأنني لا أستطيع فعل كل ذلك وحدي.

أغلقت الدفتر.

ثم أطفأت المصباح.

لم أكن قد شُفيت، ولم أكن قد عدت إلى المرأة التي كنتها قبل كل شيء. ربما لن أعود إليها أبدًا. بعض التجارب لا تعيدنا إلى بداياتنا، بل تتركنا أمام حياة علينا أن نتعلم كيف نبنيها من جديد.

لكنني لم أعد أريد أن أمتلك الموت كي أطمئن إلى أنني لن أفقد أحدًا.

ولم أعد أريد أن أجعل الحب قيدًا حول من أحب.

كنت قد فقدت أبي، وجوزيف، والرجل الذي ظننت أن داميان يمكن أن يكونه. وفقدت أيضًا الصورة التي صنعتها لنفسي، تلك الصورة التي أقنعتني أنني أستطيع أن أراقب الظلام دون أن يتركني مختلفـة عمّا كنت.

ربما كان العقل يتعفن حين نمنحه أكاذيب صغيرة كل يوم، حتى تصبح الحقيقة غريبة، وحتى يبدو الشر مقبولًا إذا جاء في هيئة شيء نريده.

وربما يبدأ الخلاص حين نتوقف عن تسمية رغباتنا قدرًا، ونتوقف عن تسمية حبنا حقًا في امتلاك الآخرين.

لم أعرف إن كنت سأستطيع أن أعيش دون أن أعود يومًا إلى حافة ذلك الجوع.

لكنني عرفت أنني لن أسمح له بأن يكتب نهايتي نيابة عني.

أغلقت النافذة، ووقفت أمام المرآة للمرة الأخيرة.

لم أرَ وحشًا.

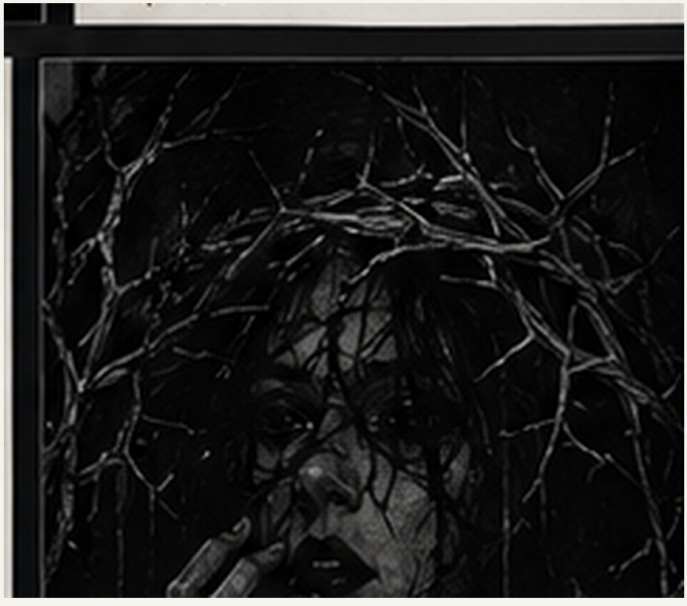
ولم أرَ امرأة بريئة.

رأيت روران.

امرأة تحمل في داخلها أشياء مخيفة، لكنها ما تزال تملك الاختيار.

وكان ذلك، في تلك الليلة، كافيًا كي أبدأ.

لم يكن كل ما تعفّن في داخلي قد مات؛ لكنني، للمرة الأولى، توقفت عن إطعامه.



الفصل الحادي والثلاثون

مغفرة لا تستحقها يداي

لم تكن الحقيقة نهاية العذاب، كما تخيلت.

كنت أظن أنني حين أعرف من قتل أبي وجوزيف، وحين أرى اسم داميان يُكتب أخيرًا في ملف اتهام بدل أن يبقى محميًا خلف أبواب القصر، سأتمكن من التنفس دون أن أشعر بأن شيئًا يضغط على صدري.

لكن الحقيقة لم تُنقذني من نفسي.

لقد أزاحت فقط الستار عن الأشياء التي كنت أختبئ خلفها.

في البداية، حاولت أن أعيش بصورة طبيعية. كنت أستيقظ في الصباح، أرتدي ملابسي، وأذهب إلى المستشفى. أراجع الحسابات، وأستمع إلى شكاوى الموظفين، وأحاول أن أستعيد ثقة المرضى الذين صاروا يتعاملون مع اسمي بحذر.

كان الجميع يعتقد أنني امرأة نجت من مأساة عائلية، وأن انشغالي بالمستشفى وسيلة جيدة كي أتعافى.

لم يعرفوا أنني كنت أعدّ الساعات حتى ينتهي النهار.

لم يعرفوا أنني حين أعود إلى غرفتي، وأخلع قفازيّ، لا أنظر إلى يديّ كما ينظر المرء إلى يديه بعد يوم عمل طويل، بل كما لو أنني أبحث فيهما عن أثر لا يمكن غسله.

كنت قد لمست الموتى، وسرقت أشياء لم تكن لي، واعتديت على حرمة قبور لا تخصني. كنت قد أقنعت نفسي، في ليالٍ كثيرة، أن ما أفعله محاولة لفهم الموت، وأنني أستطيع أن أتوقف متى أردت.

لكنني لم أتوقف حين أردت.

توقفت حين خفت، ثم عدت حين اشتد الجوع.

وهذا ما لم أعد أستطيع مسامحة نفسي عليه.

في إحدى الأمسيات، وقفت أمام المرآة، وأخذت أتأمل وجهي طويلًا. بدا شاحبًا، وعيناي محاطتين بظلال داكنة. لم يكن في ملامحي شيء يشرح للآخرين ما يحدث في داخلي.

همست لنفسي:

— هل انتهيتِ الآن؟

لم يجب أحد.

ابتسمت ابتسامة صغيرة، ثم أعدت السؤال بصوت أعلى:

— أسألكِ أنتِ. هل انتهيتِ؟

بدا انعكاسي في المرآة غريبًا، كأنني أنظر إلى امرأة تعرف عني أكثر مما أعرف عن نفسي.

قلت لها:

— لقد ماتوا. انتهى الأمر لا يوجد ما تبحثين عنه في المقابر بعد الآن.

ثم سمعت صوتي الآخر، صوتًا لا يأتي من خارج الغرفة، بل من ذلك المكان المظلم الذي أحاول أن أُبقيه صامتًا.

«وماذا لو أردتِ العودة؟»

أغمضت عينيّ.

— لن أعود.

«قلتِ ذلك من قبل.»

فتحت عينيّ بعنف.

— اخرسي.

ارتد صوتي عن الجدران، ثم ساد الصمت.

وضعت يدي على فمي، وشعرت بالخجل من نفسي. لم أكن أعرف إن كنت أحاور أفكاري، أم أن وحدتي جعلتني أسمعها كما لو كانت شخصًا آخر يجلس في الغرفة. كنت أعرف أنني لم أعد أحتمل البقاء وحدي طويلًا، لكنني لم أكن أريد أن يرى أحد ما أصبحت عليه.

كنت أخشى أن أنطق بالحقيقة أمام إنسان آخر، لأنني عندها لن أستطيع التظاهر بأنها مجرد أفكار عابرة.

ذهبت إلى قبر جوزيف في صباح بارد.

لم أخبر ماريان. لم أرد أن ترافقني، ولم أرد أن أشرح لأحد لماذا احتجت إلى الوقوف أمام شاهد قبره مرة أخرى، بعدما وعدته بأنني سأحاول أن أعيش بطريقة مختلفة.

حملت باقة من الأعشاب التي كان يزرعها قرب نافذته. كانت بعضها قد جفّ، لكن رائحتها أعادت إليّ مطبخه الصغير، وأصابعه التي اعتادت تفتيت الأوراق بين راحتيه قبل أن يشرح لي أسماءها وفوائدها.

جلست أمام قبره.

— جئت لأعتذر، يا جوزيف.

خرج صوتي ضعيفًا، كأنني لم أستخدمه منذ أيام.

— أعرف أنني قلت لك إنني سأكون أفضل. أعرف أنني وعدتك بألّا أسمح للموت بأن يبتلع حياتي. لكنني لا أعرف كيف أفعل ذلك.

مررت أصابعي فوق اسمه المحفور في الحجر.

— أنت علّمتني كيف أميز بين ما يعالج وما يؤذي. علّمتني أن المعرفة مسؤولية، وأننا لا نملك حق فعل كل ما نستطيع فعله. ومع ذلك، أخذت ما لم يكن لي. دخلت أماكن كان ينبغي أن أحترم حرمتها، وتعاملت مع الموتى كأنهم أشياء أستطيع الاحتفاظ بها لأنني أخاف أن أفقد ما أحب.

توقفت، وابتلعت الغصة التي صعدت إلى حلقي.

— كنت أريد أن أفهم الموت، لكنني أظن أنني كنت أريد شيئًا آخر. كنت أريد أن أشعر بأن هناك شيئًا لا يستطيع أن يتركني. شيئًا لا يغادرني، ولا يخونني، ولا يموت بعيدًا عني.

انحنيت حتى لامست جبهتي يديّ.

— وأنا أعرف الآن كم كان ذلك قاسيًا. لم يكن الموتى ملكًا لي. لم تكن قبورهم أماكن لأهرب إليها من خوفي. لم يكن لي الحق في أن أجعل حزن الآخرين ثمنًا لراحتي.

بكيت طويلًا.

لم أطلب منه أن يخبرني أنني لم أفعل شيئًا سيئًا. لم أطلب منه أن يمنحني عذرًا، أو أن يعيدني إلى المرأة التي كنتها قبل أن أتعرف إلى ذلك الجوع.

طلبت فقط أن أتعلم كيف أعيش دون أن أكرر ما فعلت.

— سامحني إن استطعت، همست. وإن لم أستحق المغفرة الآن، فسأحاول ألّا أزيد ما فعلته سوءًا.

حين نهضت، لم أشعر بالخفة التي كنت أتمناها. بقي الذنب في مكانه، ثقيلًا وواضحًا.

لكنني لم أحاول التخلص منه بالهرب.

تركت الأعشاب فوق القبر، ثم غادرت.

مرّت أيام قليلة استطعت فيها الالتزام بخطتي، لكن السيطرة كانت هشة؛ كنت أحتاج إلى ترتيب يومي حول الخطر، لا إلى الاعتقاد بأن الخطر اختفى.

عدت إلى المستشفى، وطلبت من سيلفان أن يساعدني في ترتيب عملي بحيث لا أبقى وحدي حتى ساعات متأخرة. لم أخبره بكل شيء، لكنني قلت له إنني لا أنام جيدًا، وإن أفكاري أصبحت تخيفني.

نظر إليّ بقلق لم أحاول إسكاته.

—لا يمكنكِ أن تعالجي كل شيء بالعمل، قال.

— أعرف.

— ولا يمكنكِ أن تعاقبي نفسك حتى تتعافي.

خفضت رأسي.

—لا أعرف كيف أفرق بين العقاب والتكفير.

سكت قليلًا، ثم قال:

— التكفير أن تتوقفي عن إيذاء الآخرين، وأن تتحملي مسؤولية ما فعلتِ. أما العقاب، فقد يتحول إلى طريقة أخرى للهروب من المسؤولية؛ لأنك تنشغلين بكراهية نفسك بدل أن تواجهي ما يجب عليك تغييره.

بقيت أفكر في كلماته بعد أن غادر.

كنت أظن أن كراهيتي لنفسي دليل على أنني ما زلت أملك ضميرًا. لم أفهم أن الكراهية، مهما كانت شديدة، لا تعيد حقًا إلى صاحبه، ولا تحمي قبرًا من أن يُنتهك مرة أخرى.

ومع ذلك، لم يكن فهم ذلك كافيًا كي أتوقف عن الجوع.

كان يزداد.

في المساء، كنت أسمع كلمة واحدة تتكرر في رأسي، كلمة لم أعد أستطيع طردها بمجرد أن أشغل نفسي:

الدم.

لم تكن صورة بعينها هي التي تطاردني، بل الإحساس الذي ارتبط بها؛ ذلك التوتر الذي يسبق الاندفاع، والراحة القصيرة التي كنت أبحث عنها في أشياء لا ينبغي لي الاقتراب منها.

حاولت أن أتناول الطعام، وأن أخرج للمشي، وأن أبقى قرب ماريان حين تشتد الوحدة. لكن بعض الليالي كانت تمر بطيئة إلى درجة تجعل كل دقيقة تبدو كأنها امتحان لا ينتهي.

كنت أقول لنفسي:

— اصبري حتى الصباح.

ثم أعود بعد دقائق:

— لن يحدث شيء إن بقيت هنا.

وبعدها يأتيني صوت آخر:

«أنتِ لا تريدين البقاء هنا. أنتِ تريدين أن تعودي.»

كنت أضغط يديّ على أذنيّ، رغم أنني أعرف أن الصوت لا يأتي منهما.

في إحدى الليالي، وقفت أمام النافذة المفتوحة، وأخذت أنظر إلى الشارع البعيد. لم أعد أحتمل فكرة أن أستيقظ في يوم آخر وأنا أحمل هذا الجوع، وهذا الذنب، وهذه الذاكرة التي لا تسمح لي بنسيان شيء.

راودتني فكرة أن أنهي كل شيء.

لم تأتِ كقرار واضح، بل كإغراء مخيف بالاختفاء؛ ألّا أضطر إلى الاعتذار مرة أخرى، وألّا أستيقظ لأقاوم نفسي، وألّا أواجه يومًا جديدًا قد أفشل فيه من جديد.

نظرت إلى العتمة خلف الزجاج، وشعرت بالخجل لأن جزءًا مني وجد في الفكرة راحة مؤقتة.

ثم سمعت صوت جوزيف في ذاكرتي، لا كصوت خارق ولا كرسالة من الموت، بل كذكرى واضحة لرجل كان يصرّ على أنني أستحق الحياة حتى حين أرتكب الأخطاء.

تراجعت عن النافذة وأغلقتها.

جلست على الأرض، وضممت ركبتيّ إلى صدري، وبكيت حتى آلمتني عيناي.

— أنا لا أريد أن أموت، قلت لنفسي. أنا فقط لا أريد أن أعيش هكذا.

كانت تلك أول جملة صادقة أقولها منذ وقت طويل.

نهضت بصعوبة، وذهبت إلى غرفة ماريان. أيقظتها، ثم وقفت أمامها عاجزة عن شرح ما يحدث.

لم تسألني لماذا أبكي. لم تطلب مني أن أتماسك.

جلست بجانبي، وتركتني أقول ما استطعت قوله.

وفي الصباح، اتفقت مع ماريان على ألّا أبقى وحدي حين تشتد تلك الأفكار، وطلبت منها أن تساعدني في الوصول إلى مختص. لم يكن الاتفاق علاجًا، ولم يضمن أنني لن أعود إلى ما فعلت؛ لكنه نقل الخطر من السرّ إلى شيء يمكن لشخص آخر أن يساعدني على مواجهته.

لم يكن ذلك انتصارًا عظيمًا.

كان مجرد قرار بالبقاء يومًا آخر.

لكنني كنت بحاجة إلى ذلك اليوم.

بعد أسبوع، زرت قبر كاسيان.

كانت الزيارة مختلفة عن زيارتي لجوزيف. لم أحمل أعشابًا، ولم أجلس طويلًا قبل أن أتكلم. وقفت أمام اسم أبي، وتذكرت الرجل الذي حاول الجميع أن يرسمه لي؛ الأب الذي أراد أن أصير طبيبة، والوريثة التي ينبغي أن تحمل اسم العائلة، والابنة التي اعتقدت أن مستقبلها قد كُتب قبل أن تعرف كيف تختار.

لم أكن أعرف إن كان أبي قد أحبني بالطريقة التي احتجتها، أو إن كان قد رأى فيّ امتدادًا لاسمه أكثر مما رأى إنسانة مستقلة. لم أعد أملك فرصة لسؤاله.

لكنني كنت أعرف أن موته لم يكن ذنبي.

وأن جوزيف لم يستحق ما حدث له.

وأن جرائم داميان لا تجعل جرائمي أقل شأنًا، مثلما أن أخطائي لا تجعلني مسؤولة عن قرار اتخذه رجل آخر بقتل أبي.

قلت أمام القبر:

— لم أعد أعرف كيف أراك، يا أبي. قضيت عمري أحاول أن أكون ما أردته مني، ثم قضيت وقتًا طويلًا أهرب من كل ما تركته خلفك. لكنني لا أستطيع أن أجعل موتك عذرًا لكل ما فعلته بعده.

سكتُّ، ثم أضفت:

— أنا آسفة لأنني لم أفهم نفسي قبل أن أؤذي الآخرين. وآسفة لأنني جعلت الحزن يقودني إلى أماكن لم يكن ينبغي لي دخولها.

لم أطلب منه أن يسامحني.

كان ذلك ما تعلمته من زيارتي لجوزيف لا يمكنني أن أفرض المغفرة على أحد، حتى لو كان ميتًا.

عدت إلى المنزل وأنا أعرف أنني سأظل أحمل ذنبي، لكنني لم أعد أريد أن أحوّله إلى حكم أبدي على حياتي.

لم أكن قد تعافيت.

ولم أكن أعرف إن كنت سأستطيع يومًا أن أعيش دون ذلك الجوع.

لكنني كنت أحاول.

وكان عليّ أن أتعلم أن المحاولة لا تعني أنني لن أسقط مرة أخرى.

لم أكن أعرف أنني سأنتكس في الليلة التالية، وأن الوعد الذي قطعته لنفسي لن يكون أقوى من اندفاع لم أتعلم بعد كيف أواجهه.

ولا أنني، بعد كل ما وعدت به نفسي عند القبور، سأقف مجددًا أمام الباب الذي أقسمت ألّا أفتحه.



لم أكن وحشًا منذ البداية... لكنني لم أبقَ كما كنت.

الفصل الثاني والثلاثون

الجوع الذي لم يغفر لي

كانت الليلة هادئة أكثر مما ينبغي.

لا مطر، ولا رياح، ولا أصوات في الممرات. حتى المنزل بدا كأنه يحبس أنفاسه، تاركًا لي فرصة كاملة كي أسمع ما يحدث في داخلي.

كنت قد قضيت النهار في المستشفى، ثم عدت إلى المنزل وتناولت العشاء مع ماريان. حاولت أن أشاركها الحديث عن أمور عادية، عن مريضة تحسنت حالتها، وعن موظف عاد إلى عمله بعد غياب طويل.

ضحكت مرة.

كانت ضحكة قصيرة، لكنها فاجأتني حتى إنني توقفت بعدها، كأنني ارتكبت شيئًا لا يليق بحزني.

نظرت إليّ ماريان بحنان.

— من حقك أن تضحكي يا روران.

لم أجب.

كنت أشعر أنني لا أستحق لحظة خفيفة ما دام هناك أشخاص لم أعتذر لهم، وما دامت هناك قبور انتهكتها بيدي. كنت أحوّل كل شعور بالراحة إلى تهمة جديدة، ثم أستغرب لماذا أزداد اختناقًا.

في تلك الليلة، طلبت من ماريان أن تذهب إلى غرفتها، وأغلقت بابي.

لم يكن ذلك لأنني أردت العودة إلى ما كنت أفعله. أقسم أنني لم أكن أريد ذلك.

لكن الجوع كان قد عاد أقوى من كل مرة سابقة.

بدأ الأمر بإحساس معدني في فمي، ثم بتوتر جعلني أعجز عن الجلوس. مشيت في الغرفة، فتحت النافذة وأغلقتها، رتبت الكتب، ثم أعدت ترتيبها، وغسلت يديّ رغم أنهما كانتا نظيفتين.

لم يهدأ شيء.

جلست أمام المرآة.

— أنتِ تعرفين ما سيحدث إذا خرجتِ، قلت.

حدقت في انعكاسي.

— أعرف.

— إذًا ابقي.

— سأبقى.

مرّت دقيقة.

ثم نهضت.

ضحكت بمرارة، وضربت راحتيّ برفق على جانبي رأسي، لا لأؤذي نفسي، بل كأنني أحاول إيقاظ عقل لا يستجيب.

— لماذا لا أستطيع أن أتوقف؟

لم يجب أحد.

لكنني كنت أعرف أنني لا أستطيع أن أحمّل الجوع مسؤولية كل شيء. لقد كنت أنا من اتخذ القرارات السابقة، وأنا من سمح للرغبة بأن تتحول إلى فعل. لم تكن أفكاري وحدها هي التي أخافتني، بل قدرتي على إيجاد الأعذار لها كلما اقتربت من تنفيذها.

فتحت الدرج.

كان المفتاح الذي احتفظت به من أيام الأرشيف هناك، إلى جانب دفتر جوزيف. أخرجت الدفتر وفتحته على الصفحة التي كتبت فيها اعتذاري لنفسي.

قرأت الكلمات ببطء.

«لن أسمح له بأن يكتب نهايتي نيابة عني.»

أغلقت الدفتر.

— إذًا لماذا أشعر أنني سأخسر أمامه؟

لم أجد جوابًا.

وبعد وقت لا أعرف طوله، ارتديت معطفي وخرجت.

لم أذهب لأنني اتخذت قرارًا واعيًا بأن أعود إلى الماضي. بل لأنني وصلت إلى تلك النقطة التي يصبح فيها التفكير نفسه متعبًا، ويبدو الفعل أسهل من المقاومة.

كنت أعرف أن هذا ليس عذرًا.

كنت أعرف أنني أستطيع أن أطرق باب ماريان، وأن أطلب منها ألّا تتركني وحدي، وأن أتصل بسيلفان أو أطلب المساعدة التي وعدت نفسي بقبولها.

لكنني لم أفعل.

خرجت، وسمحت للصمت أن يبتلع خطواتي.

لم أكن أريد أن أؤذي أحدًا.

كنت أكرر ذلك في رأسي وأنا أسير، لكنني أدركت أن النية وحدها لا تكفي لحماية الآخرين من أفعالي.

انتهى بي الطريق قرب المقبرة القديمة.

توقفت عند البوابة.

كان المكان مظلمًا، والأشجار تحجب ضوء القمر عن الممرات الضيقة. تذكرت زيارتي لجوزيف، وتذكرت كيف وعدته ألّا أعود إلى هنا لأبحث عن شيء أحتفظ به.

وضعت يدي على البوابة الحديدية.

— عودي إلى المنزل، قلت لنفسي.

لم أتحرك.

— رووران، عودي.

كنت أسمع اسمي بصوتي، لكنني شعرت كأنني أحاول إقناع شخص آخر لا يريد أن يسمع.

لم تكن المقبرة تناديني. لم تكن الأرواح تنتظرني، ولم يكن هناك سر سحري يربطني بالموتى. كان هناك فقط جوع تعلمت أن أستجيب له، وذاكرة جعلتني أخلط بين الرغبة والضرورة.

دفعت البوابة.

دخلت.

لن أكتب تفاصيل ما حدث في الداخل، لأنني لا أريد أن أختبئ خلف المشهد أو أن أجعل ما فعلته يبدو كأنه قدر لا مفر منه. كل ما سأقوله إنني انتهكت حرمة قبر مرة أخرى، وأخذت جثة لم يكن لي حق الاقتراب منها.

فعلت ذلك رغم اعتذاري.

رغم وعدي.

رغم أنني كنت أعرف تمامًا كم كان هذا الفعل خاطئًا.

وحين أدركت ما فعلته، لم أشعر بالنشوة التي كنت أبحث عنها، ولا بالراحة التي وعدني بها الجوع. شعرت بفراغ واسع، ثم بخوف شديد، ثم بخزي جعلني أعجز عن النظر إلى ما حولي.

لم أستطع أن أقنع نفسي بأنني كنت أبحث عن المعرفة.

كنت أبحث عن ذلك الإحساس الذي صار عقلي يربطه بالدم والموت، وكنت قد سمحت لنفسي بأن أتبعه مرة أخرى.

جلست بعيدًا عن القبر، ووضعت يديّ على وجهي.

— ماذا فعلتِ؟

خرج السؤال مني بصوت مكسور.

ثم أجبته:

— فعلتِ ما وعدتِ نفسك ألّا تفعليه.

— لماذا؟

— لأنني لم أطلب المساعدة حين احتجت إليها.

بدأت أبكي.

لم يكن بكاءً جميلًا ولا هادئًا. كان بكاء امرأة لم تعد تستطيع التظاهر بأنها تسيطر على ما يحدث لها، لكنها ما تزال مسؤولة عن الخطوة التي اتخذتها.

عدت إلى المنزل قبل الفجر، وأنا أعرف أنني لا أستطيع أن أخفي ما حدث، ولا أن أدفنه في ذاكرتي كما فعلت مع أشياء أخرى.

لم تكن المشكلة أنني فشلت مرة أخرى فحسب.

المشكلة أنني كنت أبدأ بفهم أنني لن أخرج من هذه الدائرة بمجرد أن أكره نفسي أكثر.

حين دخلت غرفتي، لم أخلع معطفي.

جلست أمام المكتب، وفتحت الدفتر الجديد.

حاولت أن أكتب اعتذارًا آخر، لكن الكلمات بدت لي نسخة من كلمات قديمة. كنت أعتذر، ثم أعود. أعد، ثم أنكث. أبكي على الموتى، ثم أعود إلى المكان الذي انتهكت فيه حرمتهم.

مزقت الصفحة.

ثم مزقت الثانية.

وبعدها توقفت، ونظرت إلى القصاصات أمامي.

كان بإمكاني أن أكتب ألف اعتذار، لكن الاعتذار وحده لم يكن يوقفني.

أمسكت القلم وكتبت:

«لقد عدت إلى المقبرة. سرقت جثة لا أريد أن أخفي ذلك عن نفسي مرة أخرى.»

توقفت قليلًا، ثم أضفت:

«أنا خائفة من الجوع، لكنني أخاف أكثر من أن أستمر في تسميته شيئًا لا أستطيع مقاومته. أحتاج إلى مساعدة لا أستطيع أن أقدمها لنفسي وحدي.»

قرأت السطر الأخير عدة مرات.

ثم أغلقت الدفتر، ونهضت لأفتح الباب.

كانت ماريان في الممر، وقد استيقظت على صوت خطواتي. نظرت إليّ، ثم إلى وجهي الشاحب.

— روران؟ ماذا حدث؟

حاولت أن أجيب، لكن الكلمات لم تخرج.

اقتربت مني، فأمسكت بذراعها كي لا أفقد توازني.

— فعلت شيئًا سيئًا، همست.

لم تقل إنني بخير، ولم تقل إن كل شيء سيمر. اكتفت بأن وضعت يدها فوق يدي.

— أخبريني.

أخبرتها.

لم أصف لها ما حدث بالتفصيل، لكنني قلت إنني عدت إلى المقبرة، وإنني أخذت جثة، وإنني لم أعد أثق بقدرتي على التوقف وحدي.

بدا الألم على وجهها، ولم تحاول إخفاءه.

— كنتِ تستطيعين إيقاظي، قالت.

أطرقت رأسي.

— أعرف.

—لا أستطيع أن أقرر بدلًا منك، يا روران. لكنني لن أساعدك على إخفاء ما حدث، ولن أتركك تواجهينه وحدك.

كان في كلامها ما احتجته أكثر من أي مواساة: حدود واضحة، ويد لا تدفعني بعيدًا.

وافقت على أن نطلب المساعدة، وعلى أن أخبر فاريس بما حدث حتى يمكن تصحيح ما أفسدته، وإعادة ما يمكن إعادته إلى أهله، والتحقيق في الأمر بطريقة تحفظ كرامة المتوفى وحقوق عائلته. لم أكن أعرف كيف سأواجه العواقب، لكنني لم أعد أريد أن أجعل الخوف سببًا لجريمة أخرى.

في تلك اللحظة، لم أشعر بالراحة.

شعرت بالرعب.

لكنني بقيت واقفة.

بعد أيام، عدت إلى قبر جوزيف.

لم أذهب لأطلب منه المغفرة هذه المرة. لم أكن أريد أن أجعل قبره مكانًا أهرب إليه كلما فشلت، ثم أعود إلى حياتي من دون تغيير.

وقفت أمامه، ويدي خاليتان.

— عدت إلى ما وعدتك أن أتركه، قلت لا أملك عذرًا يغيّر ذلك.

ابتلعت ريقي، وأكملت:

— أريد أن أقول لك إنني لن أكرر ما حدث، لكنني لا أريد أن أكذب عليك أو على نفسي لا أعرف إن كنت سأتعافى بسرعة، ولا أعرف إن كان الجوع سيتركني. لكنني سأطلب المساعدة، وسأواجه ما فعلته، ولن أختبئ خلف حزني أو خلف اسم أبي أو خلف داميان.

نظرت إلى الاسم المحفور في الحجر.

—لا أطلب منك أن تسامحني لأنني حزينة. أريد أن أتعلم كيف أكون إنسانة لا تحتاج إلى انتهاك شيء كي تشعر بأنها ما زالت حية.

لم أسمع إجابة.

ولم أنتظرها.

حين غادرت المقبرة، لم أكن قد تحررت من الجوع، ولم تكن أفكاري قد أصبحت هادئة. كنت أعرف أن الأيام المقبلة ستحتاج إلى جهد، وإلى مساعدة حقيقية، وإلى مواجهة عواقب لا يمكن للكلمات أن تمحوها.

لكنني لم أعد أريد أن أجعل الموتى شهودًا على اعتذاراتي وحدها.

أردت أن أجعل أفعالي، إن استطعت، مختلفة عن أفعالي السابقة.

في المساء، جلست أمام المرآة مرة أخرى.

لم أعد أصرخ على انعكاسي، ولم أعد أطلب منه أن يجيب عن أسئلة لا يملك لها جوابًا. نظرت إلى وجهي طويلًا، ثم قلت:

— أنا أعرف ما فعلت.

سكتُّ لحظة.

— وأنا أعرف أنني قد أرغب في العودة إليه.

كانت الجملة مخيفة، لكنها كانت صادقة.

— لكن الرغبة ليست أمرًا يجب أن أطيعه. والخوف ليس سببًا لأؤذي نفسي. والذنب ليس حكمًا يفرض عليّ أن أدمّر ما تبقى مني.

أخذت نفسًا عميقًا.

—لا أستطيع أن أعدك بأنني لن أتعثر. أستطيع فقط أن أعدك بأنني لن أتعامل مع تعثري كسر، ولن أتركه يتحول إلى عذر كي أؤذي أحدًا مرة أخرى.

لم تبتسم المرأة في المرآة.

ولم تتغير ملامحها فجأة.

لكنني لم أعد أنتظر منها أن تصبح شخصًا آخر حتى أستطيع البدء.

أطفأت المصباح، وتركت باب غرفتي مفتوحًا.

في الخارج، كانت ماريان تتحرك بهدوء، وكان البيت يحتفظ بأصواته الصغيرة التي لم أعد أسمعها في ليالي وحدتي.

أما الجوع، فظل في داخلي.

لم يختفِ لأنني اعتذرت، ولم يصمت لأنني بكيت، ولم ينتهِ لأنني عرفت الحقيقة.

لكنه لم يعد السر الوحيد الذي أحمله.

صارت هناك حقيقة أخرى: أنني أحتاج إلى مساعدة، وأنني أستطيع أن أطلبها، وأن ما فعلته لا يمكن محوه، لكنه لا يجب أن يصبح أمرًا أكرره إلى الأبد.

لم أكن بريئة.

ولم أكن ميؤوسًا مني.

كنت روران، امرأة ارتكبت أفعالًا لا تستطيع التراجع عنها، وتخاف مما قد تفعله إن بقيت وحدها مع جوعها. امرأة لا تملك حق طلب المغفرة من ضحاياها كأنها حق مضمون، لكنها تستطيع أن تبدأ بتحمل مسؤولية أفعالها.

وفي تلك الليلة، لم أكتب وعدًا أبديًا.

كتبت موعدًا للقاء من سيساعدني، واسم الشخص الذي سأخبره بالحقيقة، والخطوة الأولى التي سأفعلها في الصباح.

ثم أغلقت الدفتر.

كان ذلك أقل شاعرية من الاعتذار عند القبور، وأقل راحة من البكاء أمام المرآة.

لكنه كان حقيقيًا.

وللمرة الأولى، فهمت أن النجاة ليست أن يتوقف الظلام عن الوجود داخلي.

النجاة أن أتوقف عن منحه مفاتيح حياتي.

أنا لم أُغفر بعد. لكنني لن أستخدم ذنبي ذريعةً لأصنع ذنبًا جديدًا.

الفصل الثالث والثلاثون

المكتب الذي ابتلعني

لم أنم تلك الليلة.

بقيت ماريان في الغرفة المقابلة، وتركت الباب مفتوحًا. لم تطلب مني أن أصف ما فعلته بالجثة؛ كانت تعرف أنني إن بدأت الكلام فقد أهرب إلى التبرير، وإن صمتُّ فقد أهرب إلى الإنكار. اكتفت بالبقاء قريبة، من دون أن تعدني بأن كل شيء سيكون بخير.

أما أنا، فكنت أحدّق في يديّ.

لم تكونا ملطختين بالدماء، ولم يكن عليهما ما يكشف شيئًا. ومع ذلك، شعرت بأنهما تحملان اعترافًا لا تستطيع المياه محوه.

عند الفجر، طرقت ماريان الباب بخفة.

— رووان، المفتش فاريس ينتظرك.

رفعت رأسي ببطء. لم أشعر بالخوف الذي توقعت أن أشعر به. كان في داخلي شيء أكثر إنهاكًا من الخوف؛ رغبة غريبة في أن تنتهي لعبة الاختباء، حتى لو انتهت حياتي كلها معها.

نهضت وارتديت معطفي، ثم توقفت أمام المرآة.

— هل ستذهبين لتخبريه بالحقيقة؟ سألت صورتي.

لم تجبني طبعًا.

ابتسمت ابتسامة صغيرة، شاحبة.

—لا بأس. لم أعد أحتاج إلى إجابتك.

في مكتب المفتش، اعترفت بسرقة الجثة الأخيرة. لم أختبئ خلف مرضي أو حزني أو موت الرجلين اللذين أحببتهما. قلت إنني كنت أعرف أن ما أفعله خطأ، وإنني عدت إليه رغم ذلك، وإنني لم أعد أثق بقدرتي على التوقف وحدي. طلبت أن يُسجَّل اعترافي كما هو،

وأن تُعاد الجثة إلى أهلها إن أمكن، وأن يُعامل ما فعلته بوصفه جريمة لا سرًّا عائليًا يمكن دفنه.

استمع فاريس من دون أن يقاطعني.

وحين انتهيت، وضع قلمه جانبًا وقال:

— اعترافك مهم يا روران، لكنه لا يمحو ما حدث. سنحقق في كل شيء، وستواجهين العواقب.

أومأت.

— أعرف.

— وهل يوجد شيء آخر لم تخبرينا به؟

كان السؤال بسيطًا، لكنني شعرت كأنه يدفعني نحو باب ظللت سنوات أُبقيه مغلقًا.

مكتبي.

غرفتي الصغيرة التي لم يدخلها أحد. المكان الذي كنت أختبئ فيه حين يضيق المستشفى بي، وحين تصبح وجوه المرضى مرايا لشيء لا أريد رؤيته في نفسي. المكان الذي جمعت فيه أشياء سميتها يومًا تحفًا فنية، وأقنعت نفسي بأن تحويل الرعب إلى شكل جميل يجعله أقل رعبًا.

أخفضت عينيّ.

— نعم.

وصلنا إلى المستشفى قبل الظهيرة.

لم أكن وحدي. سار فاريس إلى جانبي، وتبعتنا ماريان بخطوات مترددة. كان الممر المؤدي إلى مكتبي مألوفًا إلى حد مؤلم؛ مررنا بغرفة الانتظار، وبالنافذة التي كنت أقف عندها كل صباح، وباللوحة التي تحمل اسم كاسيان، أبي، مؤسس هذا المكان.

توقفت أمام الباب.

لم أفتح القفل فورًا.

— هل أنت متأكدة؟ سألني فاريس.

نظرت إليه.

— لو كنت متأكدة من شيء في حياتي، لما وصلنا إلى هنا.

أدرت المفتاح.

صدر صوت خافت، ثم انفتح الباب.

في البداية، بدا المكتب طبيعيًا. الطاولة الخشبية، الملفات المرتبة، رفوف الكتب الطبية، والستائر الثقيلة التي كنت أسدلها كلما أردت أن أعزل نفسي عن العالم. لم يكن في الغرفة ما يستدعي الشك.

لكنني كنت أعرف أين ينتهي المكتب الذي يعرفه الجميع، وأين يبدأ المكتب الذي صنعتُه لنفسي.

تقدمت نحو خزانة طويلة في الزاوية، وأخرجت من درجها السفلي مفتاحًا صغيرًا. أدخلته في قفل مخفي خلف الرف، ثم ضغطت على لوح خشبي لم ينتبه إليه أحد من قبل.

تحرك جزء من الجدار.

لم يصدر صوت عن أحد.

خلفه امتدت غرفة ضيقة، مضاءة بمصباح أصفر خافت. كانت الجدران مغطاة برسوماتي، وبإطارات داكنة، وبأشكال صنعتها من بقايا حصلت عليها من القبور والجثث التي سرقتها. لم تكن أعمالًا فنية كما تخيلتها يومًا؛ كانت سجلًا صامتًا لانحداري، قطعة بعد أخرى، وكل واحدة منها دليل على أنني لم أكن أتوقف عند الفكرة، بل كنت أحولها إلى فعل.

على الرفوف وُضعت أشياء صغيرة رتبتها بعناية مريضة. وفي وسط الغرفة وقفت طاولة عريضة تغطيها قطعة قماش سوداء، وإلى جوارها دفتر جلدي كتبت على غلافه كلمة واحدة:

«الخلود».

ضحكت.

لم تكن ضحكة فرح، بل صوتًا خرج من مكان بعيد في صدري.

— كنت أظن أنني أصنع شيئًا يبقى، همست. لم أفهم أنني كنت أترك دليلًا على الشيء الذي أصبحته.

دخل فاريس الغرفة أولًا، ثم أشار إلى رجاله كي يمنعوا أي شخص من لمس المحتويات قبل توثيقها. بقيت ماريان عند المدخل، وقد وضعت يدها على فمها. لم تنظر إليّ بغضب، ولم تندفع نحوي لتواسيني. كان في عينيها حزن أشد قسوة من الإدانة.

أما أنا، فكنت أراقب الرف الأخير.

هناك، في زاوية بعيدة، وضعت قطعة صغيرة صنعتها في الليلة التي سبقت موت جوزيف. لم تكن تخصه، لكنني كنت قد تخيلت يومها أنه لو رآها لفهم ما يجري في داخلي، وربما عرف كيف يعيدني إلى نفسي.

كان ذلك أكثر ما آلمني.

جوزيف علّمني كيف أميز بين الأعشاب التي تشفي وتلك التي تؤذي. علّمني أن المعرفة لا تمنح صاحبها حق استخدام كل ما يعرفه. لكنني أخذت منه ما أردت، وتركت حكمته خلفي، ثم بنيت في الظلام عالمًا لم يكن ليجرؤ على دخوله.

اقترب فاريس من الطاولة، وفتح الدفتر بقفازين.

كانت فيه ملاحظات مؤرخة، ورسومات، وأسماء قبور، وإشارات إلى مقتنيات مفقودة. لم تكن جميعها كافية وحدها لإدانتي، لكن بعضها تطابق مع البلاغات القديمة، ومع سجلات النقل، ومع إفادات العاملين في المقبرة.

ثم عثر على قائمة أخرى.

قائمة بأشياء أُبلغ عن اختفائها من قبور مختلفة، وبجانب كل اسم تاريخ كتبته بيدي.

أغمضت عينيّ.

لم أعد أستطيع الادعاء بأنني فقدت السيطرة في ليلة واحدة. لقد كانت هناك ليالٍ كثيرة، وقرارات كثيرة، وأبواب كثيرة فتحتها بيدي.

قال فاريس بصوت صارم:

— رووران، أنتِ موقوفة على ذمة التحقيق في سرقة الجثث وانتهاك القبور، وستُفحص هذه المواد وتُربط بكل البلاغات السابقة.

مددت يدي إليه قبل أن يطلب مني ذلك.

— خذني.

تردد للحظة، ثم وضع القيود حول معصميّ.

كان المعدن باردًا.

لم أحاول المقاومة.

لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى خرجت الحقيقة من الغرفة السرية إلى الشوارع.

بدأت الأخبار تتسرب، ثم تحولت إلى عناوين تتناقلها المدينة من نافذة إلى أخرى. ابنة كاسيان، مديرة المستشفى، المرأة التي عادت إلى العمل بعد موت أبيها، كانت هي نفسها التي تبحث عنها السلطات منذ أشهر بسبب اختفاء الجثث.

لم يعد الناس يتحدثون عن فتاة غامضة تمر في الممرات ليلًا، بل عن امرأة أخفت وراء صورتها المحترمة عالمًا لم يعرفوا بوجوده.

جاءت الأسئلة من كل جهة.

كيف لم يلاحظ أحد؟

كيف كانت تعالج المرضى نهارًا ثم تعود إلى المقابر ليلًا؟

هل كان حزنها على جوزيف وكاسيان حقيقيًا، أم أن كل ما فعلته كان جزءًا من جنون لا يفهمه أحد؟

لم أجد جوابًا يصلح لهم. ولم أعد أملك الرغبة في صناعة جواب يحمي صورتي.

في التحقيق، اعترفت بما استطعت تذكره، وسلمت المفاتيح والدفاتر، ولم أنكر شيئًا حين واجهوني بالأدلة. لم أطلب من فاريس أن يخفف عني، ولم أستند إلى موت أبيّ أو جوزيف لأجعل نفسي ضحية.

كنت قد عشت طويلًا وأنا أخلط بين الألم والحق، وبين الرغبة والعذر. ولم يكن اعترافي سيعيد ما أخذته من الموتى، لكنه كان أول شيء أفعله من دون أن أحاول تجميل صورتي أمام نفسي.

ومع ذلك، لم يتوقف الجوع.

حتى في الزنزانة، كنت أسمع صوته في رأسي، يهمس لي بأنني لن أكون بخير، وأن كل ما فعلته لم يكن سوى بداية. كنت أخاف أن أصدقه، وأخاف أكثر أن أجد نفسي يومًا أطيعه من جديد.

طلبت مقابلة طبيب، وأخبرته بالحقيقة كما أخبرتها لفاريس. لم أعد أريد أن أُترك وحدي مع ذلك الصوت، لكنني لم أكن أستطيع أن أضمن اختفاءه.

للمرة الأولى، فهمت أن الندم ليس علاجًا، وأن الاعتراف لا يجعل الإنسان آمنًا تلقائيًا. كان عليّ أن أواجه ما فعلته، وأن أقبل أن الآخرين لن يثقوا بي لمجرد أنني بكيت عليه.

لكن قرار مصيري لم يكن بيد الطبيب، ولا بيد فاريس وحده.

كان بيد الرجل الذي أحببته، والرجل الذي قتل أبيّ وجوزيف، والرجل الذي صار اسمه مرادفًا للحب والخوف في ذاكرتي.

داميان.

لم أرَه منذ اعترافه.

لم تُعقد الجلسة في صباح اعترافي. أمضيت أسابيع في التحقيق، وأُتيح لمحامٍ مستقل مراجعة الأدلة والطعن فيما أمكن الطعن فيه. طابقت الهيئة سجلات المقابر مع الدفتر والمقتنيات، واستدعت الشهود، وفحصت محاضر استعادة الجثة الأخيرة. لم يُعامل اعترافي بوصفه دليلًا كافيًا وحده، وإن ظلّ أثقل ما في الملف. طلب محاميّ استبعاد بعض المقتنيات لعدم اكتمال توثيقها، فاستُبعد ما تعذّر إثبات مصدره، بينما بقيت السجلات المتطابقة وشهادات العاملين والدفتر المؤرخ أدلةً قائمة. وحين اكتملت الإجراءات، أبلغني الكاتب أن ميثاق الطوارئ القديم يفرض تصديقًا ملكيًا خاصًا على الأحكام القصوى المصنّفة اعتداءً على حرمة الموتى وأمن المملكة، حتى أثناء خضوع وليّ العهد للتحقيق. تذكرت الإشارة الهامشية في أمر الاستدعاء، وفهمت أخيرًا لماذا أُدرج القانون في ملف المستشفى. عندها فقط أدركت أن توقيع داميان قد يصبح جزءًا من نهايتي. استُدعيت هيئة الحكم، ومثلت أمامها لا بوصفي ابنة كاسيان أو مديرة المستشفى، بل متهمةً في قضية لم يعد بوسعي إنكارها.

دخلت القاعة وسط صمت ثقيل.

رأيت وجوهًا أعرفها، وأخرى لم أرها من قبل. رأيت فاريس واقفًا إلى جانب ملفات التحقيق، ورأيت ماريان في آخر الصفوف، شاحبة الوجه، لكنها لم تترك المكان.

ثم رأيته.

كان داميان واقفًا تحت الحراسة، بملابسه السوداء ووجهه الذي لم يفقد حدته. بدا أكثر تعبًا مما أتذكر، لكن عينيه ظلتا كما هما؛ داكنتين، ثابتتين، تحملان ذلك الظلام الذي جذبني إليه يومًا قبل أن أعرف كم من الدم أخفاه خلفه.

لم ينظر إليّ فورًا.

وحين فعل، شعرت أن القاعة كلها اختفت للحظة.

لم تكن في عينيه كراهية.

كان فيهما شيء أسوأ: حب لا يستطيع إنقاذي، وندم لا يستطيع إعادة شيء إلى مكانه.

بدأت الجلسة بعرض الأدلة. قرأ فاريس تقارير المقابر، وسجلات البلاغات، ومحتويات الدفتر، ثم شرح كيف قادت اعترافاتي إلى كشف الغرفة المخفية. لم ينكر أحد أنني تعاونت مع التحقيق، لكن ذلك لم يغيّر حقيقة أن الأدلة كانت تخصني، وأن أفعالي لم تكن شائعة أو اتهامًا كاذبًا.

وعندما سُئلت، وقفت وأجبت بوضوح.

— هل تعترفين بأن الغرفة السرية في مكتبك كانت ملكك، وأن المقتنيات التي عُثر عليها فيها جمعتها أنتِ؟

— أعترف.

— وهل تنكرين مسؤوليتك عن سرقة الجثث وانتهاك القبور؟

نظرت إلى الوجوه أمامي.

—لا أنكر.

لم ألتفت إلى داميان. لم أكن أريد أن أستمد شجاعة زائفة من وجوده، ولا أن أحمّله مسؤولية ما فعلته أنا.

بعد ساعات طويلة، انتهت المداولات.

وقف رئيس الهيئة وأعلن أن الأدلة المادية، وسجلات المقابر، وقائمة المقتنيات، واعترافي الموثق، أثبتت مسؤوليتي عن سرقة الجثث وانتهاك القبور وإخفاء أدلة مرتبطة بجرائم متعددة. لم يكن الاعتراف وحده أساس الحكم؛ فقد طابقت الهيئة تواريخ الدفتر مع البلاغات القديمة، واستُدعي شهود من المقبرة، وثُبتت سلسلة حيازة الأدلة أمام الحاضرين.

ثم التفت الجميع إلى داميان.

كان داميان لا يزال وليّ العهد، لكن احتجازه سحب منه إدارة التحقيقات، ولم يكن عضوًا في هيئة المحاكمة ولا صاحب القرار في إثبات التهمة. نصّ ميثاق الطوارئ القديم على أن الحكم الصادر في الجرائم المصنّفة «اعتداءً على حرمة الموتى وأمن المملكة» لا يصبح نافذًا إلا بتصديق وليّ العهد، بعد توقيع رئيس الهيئة ومفوّضين اثنين من المجلس. كان هذا التصديق إجراءً دستوريًا شكليًا لا يمنحه حق اختيار المتهم أو تقرير إدانته؛ وقد أصرّ المجلس على تطبيقه كي لا يُطعن في الحكم لاحقًا بسبب الأزمة السياسية.

وضعوا الوثيقة أمامه.

لم يتحرك.

رأيت أصابعه تستقر على حافتها، ورأيت عضلة في فكه تنقبض. كان يعرف ما تعنيه الورقة. وكان يعرف أن اسمي مكتوب فيها، وأن التوقيع الذي ينتظرونه منه سيحوّل حياتي إلى حكم لا يمكن التراجع عنه بسهولة.

رفع عينيه نحوي.

للمرة الأولى منذ دخلت القاعة، شعرت أنه يريد أن يقول شيئًا. ربما أراد أن يعتذر، أو أن يطلب مني أن أكرهه، أو أن يعترف بأنه لم يعد يعرف كيف يحبني من دون أن يدمّرني.

لكنه لم يقل شيئًا.

قال رئيس الهيئة، وقد دفع إلى الأمام نسخة من ميثاق الطوارئ:

— ينصّ قانون المملكة على عقوبة قصوى حين تكون سرقة الرفات متكررة ومنظمة، ويثبت معها العبث بالأدلة أو إخفاؤها بقصد تعطيل التحقيق في جرائم أخرى. لكن الهيئة هي التي تحدد انطباق القانون، لا وليّ العهد. وقد انتهينا إلى أن الوقائع المثبتة تقع ضمن هذا النص. يبقى التصديق الإجرائي، ويمكنك الامتناع عنه؛ عندها يُحال الأمر إلى مجلس الوصاية، وتدخل المملكة في نزاع دستوري جديد.

لم يبعد داميان عينيه عني.

كان بإمكانه أن يمتنع عن التصديق، وعندها لن يُنفذ الحكم فورًا، بل سينتقل إلى مجلس الوصاية للمراجعة، مع احتمال أن يستغل أنصاره ذلك لتأخير محاكمته هو أيضًا. لم يكن توقيعه دليلًا على أن القانون عادل، ولا أن سلطته بريئة؛ كان اختيارًا واعيًا منه ألّا يستخدم سلطته هذه المرة لإنقاذ المرأة التي أحبها، بعدما استخدمها سابقًا لتدمير عائلتها. لم يمنحه ذلك بطولة، ولم يخفف مسؤوليته؛ بل جعل قراره جزءًا آخر من جريمته الأخلاقية.

وأنا كنت أعرفه بما يكفي لأفهم أن اختياره لن يكون دليلًا على أنه توقف عن حبي.

قد يكون الحب نفسه هو ما سيدفعه إلى أقسى قراراته، أو ما سيجعله يظن أن العقاب يجب أن يكون عادلًا حتى حين يمزق آخر شيء بقي له.

أمسك القلم.

للحظة، تمنيت أن ينظر بعيدًا، كيلا أرى ما يحدث في وجهه. لكنه لم يفعل.

وقّع.

ثم دفع الوثيقة إلى رئيس الهيئة.

قرأ الرجل الحكم بصوت واضح، لا ارتجاف فيه ولا رحمة:

— بناءً على ما ثبت من جرائم المتهمة روران كاسيان، وبموجب القرار الملكي الصادر والموقّع من وليّ العهد داميان، حُكم عليها بالإعدام، على أن يُحدَّد موعد التنفيذ وفق الإجراءات المعتمدة.

لم أسمع ما قيل بعد ذلك.

كانت كلمة واحدة قد ابتلعت كل الكلمات الأخرى.

الإعدام.

نظرت إلى داميان أخيرًا. لم يبدُ منتصرًا، ولم يحاول أن يخفي ألمه خلف قناع الأمير الذي لا ينكسر. كان وجهه جامدًا، لكن عينيه فضحتا ما عجزت شفتاه عن قوله.

لم ينقذني.

ولم يطلب مني أن أسامحه.

ربما كان يعرف أن الحب الذي لم يمنع يده من توقيع الحكم، لن يكون كافيًا ليمنحني الغفران.

اقتادني الحراس بعيدًا.

وقبل أن أغادر القاعة، التفتُّ إليه مرة أخيرة. لم أكن أبحث عن وعد، ولا عن نجاة، ولا حتى عن اعتذار. أردت فقط أن أعرف إن كان الرجل الذي أحببته لا يزال يراني خلف كل ما انكشف مني.

كان ينظر إليّ.

وعرفت أنه يراني.

يرى الفتاة التي فقدت أباها، والابنة التي بكت جوزيف، والمرأة التي سرقت الموتى، والإنسانة التي اعترفت أخيرًا بأنها لم تعد قادرة على السيطرة على نفسها وحدها.

لكنه، رغم ذلك كله، ترك الحكم قائمًا.

أُغلق الباب خلفي، وانطفأت أصوات القاعة شيئًا فشيئًا.

وفي الطريق إلى زنزانتي، سمعت صوتي الداخلي يهمس:

«لقد انتهى كل شيء.»

توقفت عن السير لحظة، ثم تابعت مع الحراس.

لم يكن كل شيء قد انتهى بعد.

كان لا يزال هناك شيء واحد أريد أن أعرفه: هل سيبقى داميان وفيًّا لقراره حين يحين موعد تنفيذه، أم أن الحب الذي لم يمنعه من توقيع موتي سيجعله عاجزًا عن مشاهدة نهايتي؟

لم أكن أعرف.

وللمرة الأولى، لم أحاول أن أختبئ داخل إجابة جميلة. كنت رووران كاسيان، وقد صدر الحكم بحقي.

أما ما سيحدث حين يأتي اليوم الأخير، فلم يكن قد كُتب بعد.

الفصل الرابع والثلاثون — الأخير

لم يرحم الموتُ مَن أحبّوه

لم أحاول الهرب.

حين أُعلن الحكم، وحين أُغلقت الأبواب خلفي، وحين شعرت ببرودة القيود حول معصميّ، لم أفعل شيئًا سوى أنني مشيت.

لم أصرخ.

لم أتشبث بأحد.

لم أطلب فرصة أخرى، ولم أرفع صوتي في وجه الحراس. حتى حين أخبرني أحدهم أن عليّ تسليم كل ما أحمله، أطعتُه بهدوء، كأنني أؤدي مهمة صغيرة في يوم عادي، لا كأنني أسلّم آخر ما تبقى لي من حياة.

كان عقلي قد توقف عن العمل بطريقة لم أفهمها. لم أعد أشعر بالحزن أو الخوف أو الغضب. لم يكن ذلك شجاعة ولا قبولًا بالحكم، بل فراغًا ابتلع قدرتي على الاستجابة. مرّت سبعة أيام بين صدور الحكم والتنفيذ، خضعت خلالها القضية لمراجعة إجرائية أخيرة، وثُبّتت محاضر الأدلة والاعترافات، ورُفض طلب إعادة المحاكمة لعدم ظهور دليل جديد. لم تمنحني الأيام فرصة حقيقية للنجاة، لكنها منحتني وقتًا كافيًا لأفهم أن النهاية لن تقع في اللحظة نفسها التي نطقوا فيها بالحكم.

في الزنزانة، جلست على السرير الحجري، وأسندت ظهري إلى الجدار.

كانت هناك نافذة ضيقة في الأعلى، لا تسمح إلا لشريط باهت من الضوء بالعبور. راقبت ذلك الشريط طويلًا، أراه يتحرك ببطء مع مرور الساعات، ثم يختفي، ثم يعود في اليوم التالي.

لم أكن أفكر في الموت.

ولم أكن أفكر في الحياة.

لم أفكر في أبي، ولا في جوزيف، ولا في داميان.

حتى الأصوات التي اعتادت أن تملأ رأسي بدت كأنها غادرتني أخيرًا. لم يعد هناك من يلومني، أو يحذرني، أو يغريني بالعودة إلى الظلام. بقيت وحدي، في سكون لم أعرفه طوال حياتي.

كان ذلك مخيفًا أكثر من كل ما فعلته.

لقد قضيت سنوات أبحث عن شيء يوقظني من الداخل، عن شعور قوي بما يكفي ليكسر الرتابة التي كنت أختنق فيها. وحين وجدت ذلك الشيء، لم أعرف كيف أتوقف. وحين أدركت ما صرت إليه، كان كل شيء قد وصل إلى نقطة لا يمكنني فيها التراجع من دون أن أواجه ما فعلته.

لم يكن الندم شعورًا ثابتًا أستطيع استدعاءه متى أردت. أحيانًا كنت أرى فداحة ما فعلت، وأحيانًا كنت أتشبث بالشغف القديم لأنه الشيء الذي جعلني أشعر بأنني حيّة.

لم أكن بريئة ولا جاهلة بما فعلت. عرفت أن الموتى لم يكونوا أشياء تخصني، وأن حزني لم يمنحني حق انتهاك قبورهم. لكن معرفة ذلك لم تكن كافية وحدها كي أتحرر من التعلق بما صار هوسي.

كنت أفهم الحقيقة، لكنني لم أكن قد تصالحت معها.

لم أستطع أن أكره هوسي بالطريقة التي تمنحني راحة سهلة؛ كان عليّ أن أعترف بأنه منحني إحساسًا بالقوة، ثم أقرّ بأنه استهلكني وألحق الأذى بآخرين.

كان ذلك الشغف يجعلني أنتظر الليل وأشعر أنني ألاحق شيئًا أكبر مني. لكنه لم يكن بريئًا لمجرد أنه أيقظني؛ فقد قادني إلى أفعال لا يمكنني ردّها إلى أصحابها.

لم أندم على أنني أردت الشعور بالحياة.

ندمي الحقيقي كان على ما فعلته باسم ذلك الشعور، وعلى الذين دفعتهم إلى ثمن لم يختاروه.

وبقي هذا الفرق معي حتى في الزنزانة: لم تكن الرغبة في الحياة جريمة، لكنني جعلت غيري يدفع ثمن طريقتي في البحث عنها.

مرّت الأيام ببطء.

كان الحراس يحضرون الطعام في أوقات محددة، ويغادرون من دون أن يسألوا إن كنت أريد شيئًا آخر. كنت آكل حين أتذكر أن عليّ أن آكل، وأنام حين يغلبني التعب. لم أعد أعدّ الأيام، ولم أعد أسأل عن موعد التنفيذ.

في إحدى المرات، دخلت امرأة لتتفقد حالتي. سألتني إن كنت أريد كتابة رسالة أخيرة.

نظرت إليها طويلًا.

— لمن؟

لم تجب مباشرة.

— لمن تشائين. لعائلتك، أو لشخص تحبينه.

كدت أضحك.

أي عائلة بقيت لي؟

أبي تحت التراب، وجوزيف تحت التراب، وأمي غادرت حياتي منذ زمن بعيد. أما الرجل الذي أحببته، فقد وقّع بيده القرار الذي سيقودني إلى الموت.

داميان.

كان اسمه وحده كافيًا في الماضي ليوقظ داخلي أشياء كثيرة؛ الغضب والفضول والخوف والرغبة في الاقتراب رغم كل التحذيرات. أما الآن، فلم أشعر بشيء حين خطر لي.

قلت للمرأة:

—لا أريد أن أكتب لأحد.

وضعت الورقة والقلم على الطاولة الصغيرة، ثم خرجت.

بعد رحيلها، بقيت أنظر إليهما.

كان يمكنني أن أكتب لجوزيف. أن أعتذر له عن كل مرة تجاهلت فيها صوته، وعن كل خطوة ابتعدت بها عن الطريق الذي حاول أن يعلّمني إياه.

وكان يمكنني أن أكتب لأبي، وأسأله لماذا تركني أحمل حلمًا لم يكن حلمي، ولماذا لم يخبرني أن الإنسان قد يضيع وهو يحقق ما يظنه واجبه.

وكان يمكنني أن أكتب لداميان.

أن أسأله إن كان قد نام بعد توقيعه.

أن أسأله إن كانت يده قد ارتجفت، وإن كان قد فكر في تلك اللحظة التي وقفت فيها أمامه في قاعة الحكم، أنني المرأة نفسها التي أحبها، وأنه اختار مع ذلك أن يرسلها إلى الموت.

لكنني لم أكتب.

لم أكن أريد أن أمنح أحدًا الكلمات التي لم يعد في وسعي قولها بصوتي.

تركت الورقة بيضاء.

في اليوم الذي جاءوا فيه لأخذي، لم أحتج إلى أن يخبروني بما ينتظرني.

عرفت من وجوههم.

وقف الحارس أمام الباب، وطلب مني النهوض. فعلت ذلك بهدوء، ثم مددت يديّ كي يضعوا القيود حولهما.

كان المعدن أبرد مما أتذكر.

سرت بينهم عبر الممر الطويل. لم أقاوم، ولم ألتفت إلى الأبواب المغلقة، ولم أحاول البحث عن مخرج. كانت خطواتي منتظمة، ووجهي ساكنًا إلى درجة جعلت أحد الحراس ينظر إليّ أكثر من مرة، كأنه ينتظر أن أستيقظ فجأة وأتحول إلى المرأة التي سمع عنها الجميع.

لكنني لم أفعل.

وحين خرجنا إلى الساحة، ضرب الهواء البارد وجهي.

كان هناك جمع من الناس.

وجوه متراصة، وأصوات خافتة، وعيون تنتظر مشهد النهاية. بعضهم جاء ليرى سقوط ابنة كاسيان، وبعضهم جاء ليشاهد المرأة التي أخفت خلف مكتبها عالمًا لم يكن أحد يتخيله. وربما كان بينهم من أراد أن يتأكد أن الوحوش لا تشبه الحكايات، بل تمشي بين الناس بملابس عادية ووجوه مألوفة.

رفعت رأسي.

رأيت السماء رمادية، ثقيلة، كأنها لم تقرر بعد إن كانت ستمطر أم ستكتفي بمراقبتنا.

وفي نهاية الساحة، كانت المشنقة تنتظرني.

عندها فقط، حدث شيء صغير.

ارتجفت أصابعي.

لم أكن أعرف أن جسدي ما زال قادرًا على الخوف، بعد كل ذلك السكون. حاولت أن أقبض يديّ، لكنهما ظلتا ترتجفان. شعرت بنفسي أتنفس بسرعة، ثم أسرع، ثم لم أعد قادرة على أخذ نفس كامل.

توقفت قدماي.

— تابعي السير، قال الحارس.

لم أستطع.

حدقت في المشنقة، وفجأة لم أعد أراها كما كانت.

رأيت بابًا يُغلق.

رأيت أبي يبتعد عني، وجوزيف يختفي في الظلام، ورأيت نفسي أقف في ممرات المستشفى، أبتسم للمرضى وأخبرهم أن كل شيء سيكون بخير، بينما لم أكن أعرف كيف أجعل شيئًا واحدًا في داخلي بخير.

ثم رأيت داميان.

لم يكن واقفًا أمامي في الساحة، لكنني رأيته بوضوح لا يحتمل الشك. رأيته يمسك القلم، ويوقّع اسمي، ويتركني أذهب إلى مصيري بعينين لم أستطع أن أنسى ما فيهما.

وفجأة، انهار كل شيء.

—لا!

خرج الصوت من صدري حادًا، غريبًا، كأنه لم يكن صوتي.

حاول الحارس أن يدفعني إلى الأمام، فتراجعت مذعورة.

— لا، لا، لا... انتظروا!

بدأت أبكي.

لم تكن دموعًا هادئة، ولا حزنًا أنيقًا كما تصوره الكتب. كان بكاءً قبيحًا، متقطعًا، يقطع أنفاسي ويهز كتفيّ. بكيت كما لم أبكِ يوم مات أبي، وكما لم أبكِ يوم حملوا جوزيف بعيدًا عني. بكيت بكل ما حبسته في داخلي، بكل الكلمات التي ابتلعتها، وبكل مرة أقنعت فيها نفسي أنني لا أخاف شيئًا.

—لا أريد أن أموت!

لم أعد أرى وجوه الناس بوضوح. تداخلت الأصوات، واختلطت السماء بالأرض، وصارت القيود حول معصميّ أثقل من أن أحتملها.

— أرجوكم! أرجوكم، لا تفعلوا هذا!

لم يقترب أحد.

كانت الساحة واسعة، لكنني شعرت بأنني وحيدة في عالم لا يسمع.

سقطت على ركبتيّ، وارتطم الحجر البارد بهما. حاولت أن أتشبث بثوب أحد الحراس، فتراجع عني، بينما كنت أبكي وأتوسل، أطلب وقتًا إضافيًا، يومًا واحدًا، ساعة واحدة، أي شيء يعيد إليّ وهم أن الحياة ما زالت ملكي.

ثم تحول رجائي إلى غضب.

رفعت رأسي نحو السماء، والدموع تغطي وجهي.

— لماذا؟!

خرج السؤال من أعماقي، لا أنتظر له جوابًا.

— لماذا أعطيتموني كل هذا ثم أخذتموه؟ لماذا جعلتموني أحلم؟ لماذا تركتموني أظن أنني أستطيع أن أصبح شيئًا عظيمًا، أن أغيّر العالم، أن أترك أثرًا لا يمحوه الزمن، ثم حطمتم كل شيء؟!

كنت أصرخ حتى آلمني حلقي.

— اللعنة على الحياة! اللعنة على هذا القدر الأعمى! اللعنة على كل أمل جعلني أرفع رأسي لأكتشف أنني كنت أطير بجناحين من ورق!

لم أعد أعرف إن كنت أخاطب السماء أم أبي أم نفسي.

— أردت أن أكون شيئًا! هل كان ذلك ذنبي؟ أردت أن أشعر بأنني حيّة، أن يكون في داخلي شيء يستحق أن أستيقظ لأجله! فلماذا انتهى بي الأمر هنا؟ لماذا تركتموني أضيع حتى لم أعد أعرف الطريق إلى نفسي؟!

انكسرت الكلمات إلى شهقات.

كنت أصرخ وأبكي وألعن كل شيء، ثم أعتذر، ثم أعود إلى الصراخ. لم أعد تلك المرأة الباردة التي مشت إلى الحكم من دون أن ترف لها

عين. لم أعد مديرة المستشفى، ولا ابنة كاسيان، ولا صاحبة المكتب السري الذي أخفى أسراري.

كنت طفلة.

الطفلة التي انتظرت طويلًا أن يحبها أحد بما يكفي ليبقى. الطفلة التي تعلمت أن تكون قوية لأن الضعف لم يجد من يحمله عنها. الطفلة التي صدقت أن الأحلام الكبيرة قادرة على إنقاذ أصحابها، وأن المعرفة تستطيع أن تمنحها السيطرة على العالم، وأن الحب، مهما كان مظلمًا، سيترك لها مكانًا آمنًا في نهايته.

لكن الأحلام لم تنقذني.

والمعرفة لم تمنحني السيطرة.

والحب لم يفتح الباب.

رفعت وجهي المبلل بالدموع، وبحثت في الحشد عن وجه واحد.

داميان.

لم أكن أعرف إن كان سيأتي. لم أكن أعرف إن كان يريد أن يشاهد النهاية بنفسه، أم أنه سيختبئ خلف جدران القصر، كما اختبأ طويلًا خلف سلطته.

ثم رأيته.

كان واقفًا بعيدًا، محاطًا بالحراس، شاحبًا كأن النوم لم يعرف طريقه إليه منذ أيام. لم يكن هناك تاج على رأسه، ولا ابتسامة متعالية، ولا تلك النظرة التي كانت تجعل الآخرين يتراجعون قبل أن يتكلم.

كان رجلًا فقط.

الرجل الذي أحببته، والرجل الذي قتل أبيّ وجوزيف، والرجل الذي علّمني، من حيث لا يدري، أن الخوف يمكن أن يشبه الرغبة، وأن الاقتراب من الظلام لا يعني أنك ستنجو منه.

وحين التقت عينانا، لم أستطع أن أكرهه وحده.

كرهت نفسي لأنني أحببته.

وكرهته لأنه أحبني، ثم تركني أصل إلى هنا.

— أنت!

خرج صوتي مبحوحًا، لكنه وصل إليه.

— أنت الذي جعلتني أظن أنني أستطيع الوثوق بك!

لم يتحرك.

— أنت الذي أخذت أبيّ! أنت الذي أخذت جوزيف! والآن... الآن أنت الذي ستأخذني أنا أيضًا!

ارتجفت شفتاي، وعاد البكاء يخنقني.

— ألم يكفك ما أخذته مني؟ ألم يكفك أنني أحببتك؟ كان بإمكانك أن تتركني أكرهك، كان بإمكانك أن تجعلني أعيش وأنا ألعنك كل يوم، لكنك حتى هذا لم تتركه لي!

رأيت وجهه يتغير، ورأيت يده تنقبض بجانبه.

لكنه لم يتقدم.

لم ينادِ الحراس.

لم يطلب إيقاف الحكم.

كان قراره أقوى من رغبته في إنقاذي، أو ربما كان أضعف من أن يواجه كل ما صنعه، فلم يجد سوى أن يترك النهاية تحدث أمام عينيه.

لم أعرف أي الاحتمالين كان أشد قسوة.

— أكرهك! صرخت.

ثم انهرت من جديد.

— أكرهك لأنني ما زلت أحبك!

لم أعد قادرة على الوقوف. رفعني الحراس، بينما كنت أقاومهم بلا قوة، لا لأهرب، بل لأن جسدي أخيرًا أدرك ما كان عقلي قد عجز عن فهمه طوال الأيام الماضية.

كنت سأموت.

لن أعود إلى مكتبي.

لن أفتح نافذة المستشفى في الصباح.

لن أجلس على قبر جوزيف لأخبره أنني آسفة.

لن أقف أمام قبر أبيّ وأسأله إن كان قد أحبني كما أحببت أن أصدّق.

لن أعرف إن كان بإمكاني أن أتعلم يومًا كيف أعيش من دون أن أؤذي نفسي أو الآخرين.

كل الطرق التي ظننتها مفتوحة أُغلقت، ولم يبقَ أمامي إلا الطريق الذي لم أرد رؤيته.

حين وقفوني أمام المشنقة، كنت قد فقدت القدرة على الصراخ.

كان البكاء لا يزال يهزني، لكنه صار أضعف، متقطعًا، مثل أنفاس شخص يركض منذ زمن طويل ولم يعد يملك ما يكفي للاستمرار.

سمعت صوتًا يقرأ الحكم.

لم ألتقط كل الكلمات. كانت تتساقط حولي بلا معنى، بينما كنت أحدق في نقطة بعيدة فوق رؤوس الناس.

تذكرت جوزيف.

تذكرت يديه وهما ترتبان الأعشاب، وصوته حين كان يقول لي إن بعض الأشياء لا تصبح نافعة لمجرد أننا نعرف كيف نستخدمها.

تذكرت أبيّ، والمستشفى، والأبواب العالية التي ظننت أنها ستقودني إلى مستقبل عظيم.

وتذكرت نفسي، قبل كل شيء.

روران التي كانت تظن أن عليها أن تصبح شخصًا استثنائيًا كي تستحق الحياة.

روران التي لم تعرف كيف تفرّق بين أن يكون لديها شغف، وأن يتحول ذلك الشغف إلى شيء يلتهمها.

روران التي عثرت في الظلام على إحساس جعلها تشعر بأنها حيّة، فتمسكت به حتى بدأ يسلبها كل ما بقي منها.

لم أندم على أنني كنت أبحث عن شعور يوقظني.

لكنني عرفت، في تلك اللحظة، أنني دفعت آخرين ثمنًا لبحثي، وأن ما منحني الشغف لم يمنحني الحق في أن أقرر مصيرهم.

كان ذلك هو الجزء الذي لم أستطع الهرب منه، حتى في آخر لحظاتي.

رفعت عينيّ مرة أخرى نحو داميان.

لم أطلب منه شيئًا هذه المرة.

لم أطلب أن ينقذني، ولم أطلب أن يحبني، ولم أطلب حتى أن يتذكرني.

أردت فقط أن أراه كما هو، وأن أسمح لنفسي بأن أكون كما أنا، من دون أقنعة أخيرة.

كان وجهه جامدًا، لكن عينيه لم تكونا كذلك.

ربما كان يتألم.

ربما كان نادمًا.

ربما سيقضي بقية حياته وهو يرى هذه اللحظة كلما أغلق عينيه.

لكن ألمه لم يغيّر شيئًا.

الحياة لم تكن محكمة عادلة توزع الألم بالتساوي. لم يكن من الضروري أن يعاني بقدر ما عانيت كي يصبح ما حدث أقل ظلمًا. ولم يكن حبه لي قادرًا على إعادة ما سلبه من أبيّ وجوزيف، أو محو ما فعلته أنا بالذين لم يعرفوا حتى اسمي.

كان كل شيء أكبر من الحب، وأقسى منه.

وحين طلبوا مني أن أستعد، انكسرت آخر قطعة من كبريائي.

بكيت مجددًا، لكن صوتي لم يعد يملك القوة التي امتلكها قبل دقائق.

— لا أريد أن أموت...

خرجت الكلمات صغيرة وضعيفة، لم تشبه المرأة التي اعترفت بجرائمها، ولا التي حاولت أن تقف أمام الحكم بلا مقاومة.

كانت كلمات إنسانة خائفة، لا تملك في اللحظة الأخيرة حكمةً تليق بنهاية رواية.

— أرجوكم... أنا خائفة.

لم يتراجع أحد.

لم يأتِ أحد ليقول إن ما حدث كان خطأ يمكن محوه، أو إننا نستطيع البدء من جديد.

لم تمنحني الحياة فهمًا كاملًا في اللحظة الأخيرة، ولم يتحول خوفي إلى شجاعة، ولم يصبح ألمي حكمة تبرر ما فعلت.

كنت خائفة، ونادمة على أشياء، ومتمسكة بأشياء أخرى، ولم أستطع ترتيب كل ما في داخلي في كلمات أخيرة جميلة.

كنت رووان فحسب.

ثم نُفّذ الحكم.

وانقطع صوتي.

لا أعرف ماذا حدث بعد ذلك.

لا أعرف إن كان داميان قد بقي واقفًا حتى النهاية، أم أنه أدار وجهه في اللحظة الأخيرة لا أعرف إن كانت ماريان قد بكت، أو إن كان فاريس قد غادر الساحة بصمت لا أعرف ماذا قال الناس وهم يعودون إلى بيوتهم، ولا كم يومًا احتاجوا حتى يجدوا حكاية أخرى يتحدثون عنها.

ولا أعرف إن كان أحد قد زار قبري.

لكنني لم أكن وحشًا منذ ولادتي.

كنت إنسانة تائهة، ثم ارتكبت أشياء لا يمحوها فهم أسبابها. لم يكن حزني عذرًا، ولا اضطرابي براءة، ولا شغفي خلاصًا. تشبثت به لأنني خشيت الفراغ، ولم أفهم إلا متأخرة أن الخوف لا يمنحنا حق إيذاء الآخرين.

لم أندم على رغبتي في أن أشعر بالحياة، ندمت لأنني جعلت الآخرين يدفعون ثمنها.

أما داميان، فلا أعرف إن كان قد أحبني بالطريقة التي تمنيتها.

ربما أحبني، وربما أحب الصورة التي رأى فيها نفسه إلى جواري. لا أستطيع الجزم.

ما أعرفه أنه لم يتعلم أن الحب ليس سلطة، وأن الرغبة في حماية إنسان لا تمنحك الحق في تقرير حياته وموته.

كل ما أعرفه أنه وقّع الحكم،

وأنني أحببته رغم ما عرفت عنه. لم يكن الحب كافيًا لإنقاذ أيٍّ منا من الحقيقة.

ليس كل ما يتعفّن يُصدر رائحة، وليس كل ما يموت يُدفن.

بعض الأشياء تتعفّن في الداخل، خلف ابتسامة مهذبة ومكتب مرتب واسم عائلة يفتح الأبواب. وقد يتغذّى العطب على الحزن أو الطموح أو خوفنا من أن نكون عاديين.

كنت أظن أنني سأترك أثرًا لا يُمحى.

تركت أثرًا بالفعل، لكنه لم يكن الأثر الذي حلمت به.

لم أصبح الطبيبة التي أرادها أبي، ولم أنقذ نفسي كما تمنّى جوزيف، ولم أجد في حب داميان خلاصًا. انتهيت اسمًا في ملف، وقضيةً يتناقلها الناس، وتحذيرًا يختصرونه في جملة واحدة.

كنت أكثر من جرائمي، لكن ذلك لم يُلغِ ما فعلته.

كنت الفتاة التي أرادت أن تعرف كل شيء، ثم ضاعت وهي تبحث عن إحساس يوقظها. لم أفهم في الوقت المناسب أن الشغف الذي يطلب مني التخلي عن إنسانيتي لا يمنحني الحياة؛ بل يستهلكها.

وهكذا انتهت حكايتي؛

لا بغفران، ولا بانتصار، ولا بحبٍّ أنقذني في اللحظة الأخيرة. انتهت بحقيقة واحدة:

لم يكن كل ما تعفّن في داخلي قد مات،

لكنني حين أردت أخيرًا أن أتعلم كيف أعيش معه، لم يبقَ لي وقت.

النهاية.

عبارات من الرواية

بعض الصمت ليس هدوءًا، بل صرخة تعلّمت ألّا تطلب النجدة.

01

ليس كل ما نلمسه يخصّنا، وليس كل ما نقدر عليه يحقّ لنا فعله.

02

الوجع لا يختفي دائمًا، أحيانًا يتعلّم كيف يتخفّى.

03

أخطر الأكاذيب تلك التي نرويها لأنفسنا كي نواصل يومنا.

04

قد تكون المرآة صادقة، ومع ذلك لا نحتمل ما نراه فيها.

05

لا يجعل الألمُ الأذىَ بريئًا، ولا يجعل الندمُ ما حدث كأن لم يكن.

06

بعض الأبواب لا تُغلق بالمفتاح، بل بالقرار الذي نتأخر في اتخاذه.

07

الحب ليس عفواً عن الجريمة، ولا وعدًا بأن ينجو أحدنا من عواقب الآخر.

08

كل نهاية لا تمنح خلاصًا، بعضها يترك الحقيقة وحدها في الضوء.

09

حين يتعلّم الظلام طريقه إلى الداخل، تبدأ النجاة بالاعتراف لا بالإنكار.

10



أسماء صمادي

كاتبة سورية • مواليد 2007

